الأخلاق فى القرآن الكريم والسنة النبوية

د/ عفاف على النجار

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات

جامعة الأزهر

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الناشر

مكتبة ومطبعة الغد

للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾

[سورة القلم الآية : ٤]

إهداء

إلى الراغبين فى أن يتخلقوا بأخلاق إسلامية نابعة من مصدرى الإسلام الرئيسيين :

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

وإلى كل من بث خلقا لبناء غد مشرق ، أقدم هذا الكتاب ، سائلة الله تبارك و تعالى لى ولكل من قرأه العفو والعافية فى الدنيا والآخرة

عفاف النجار

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . ومن اهتدى بهديه وعمل بشريعته إلى يوم الدين .

أما بعد

فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾[١] وحين سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن[٢] .. وقال ﷺ محددا الهدف من بعثته : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[٣] .. وقال رجل لرسول الله ﷺ : أوصنى.. قال "اتق الله حيثما كنت" قال : زدنى . قال : "اتبع السيئة الحسنة تمحها" قال : زدنى ، قال : "خالق الناس بخلق حسن"[٤] .. وقيل: "يا رسول الله ، أى المؤمنين أكمل إيماناً ؟ .. قال : "أحسنهم خلقا"[٥] .. وقد كان من دعائه ﷺ : "اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت"[٦] .

والخلق فى اللغة هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب ؛ لأنه يصير كالخلقة فيه .. وحسن الخلق قد يكون هبة من الله عز وجل بحيث يولد الإنسان كامل العقل ، حسن الخلق ، كما هو الحال بالنسبة للأنبياء .. وقد يكون مكتسبا بالمجاهدة ، وحمل النفس على الأعمال

---

(١) سورة القلم الآية : ٤ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده ٢/٣٨١ .

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب البر .

(٥) أخرجه الترمذى .

(٦) أخرجه مسلم .

التى يقتضيها الخلق المطلوب .. فمثلا من أراد أن يتخلق بالكرم والسخاء فعليه أن يتكلف الانفاق فى وجوه الخير ، ودعوة الناس إلى الطعام ، وبذل المال للمحتاجين ، ويواظب على ذلك تكلفا مجاهداً نفسه حتى يصير ذلك طبعا له ، فيسهل عليه الانفاق فيصبح كريما جواداً بالتطبع.. وهكذا فى جميع الأخلاق المطلوبة ، والتى أمر بها الإسلام ، وكان رسول الله ﷺ قدوة ، وأسوة لنا فيها .

والمتأمل فى التكاليف الشرعية يجدها جميعا ليست غايات فى حد ذاتها ، وإنما هى وسائل الوصول إلى الغايات : فمثلا الصلاة يقول الله عز وجل فى شأنها ﴿.. **وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون**﴾(١) إذن فالصلاة وسيلة، والغاية أن ينتهى الإنسان عن الفحشاء والمنكر ، فمن لم تنهه صلاته عن ذلك فقد قصرت به الوسيلة عن بلوغ الغاية .. ولو نظرنا إلى الصيام لوجدنا الله تعالى يقول : ﴿**يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾(٢) فالصيام وسيلة لبلوغ التقوى ؛ لذلك قال النبى ﷺ : "من لم يدع قول الزور ، والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه"(٣) .. وكذلك الزكاة ماهى إلا نوع من التكافل الاجتماعى ، وإحساس الغنى بالفقير وإيجاد التراحم بين الناس ، والتعاطف ؛ لذا كان المن بإعطاء الزكاة للفقير مبطلا لها كما قال الحق تبارك وتعالى : ﴿**يا ايها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى**﴾(٤) إذ أن الزكاة تصل بصاحبها إلى غايتها وهى الرحمة والأخوة ، والإحساس بأن للفقير حقا عليه ، وأنه أخ له فى الإسلام ..

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٨٣ .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الصوم .

(٤) سورة البقرة : الآية ٢٦٤ .

وكذلك جميع الأوامر مثل : بر الوالدين ، وصلة الرحم ، وكفالة اليتامى، وحسن الجوار ، ومعاشرة الزوجة بالمعروف ، وإكرام الضيف، والعفو والصفح ، والكرم ، والأمانة ، والعدل ، .. ماهى إلا أخلاقيات كريمة ، إذا سادت المجتمع صلح ، وصلح أفراده وعاش الناس فى سلام ووئام .. وكذلك جميع النواهى : كالنهى عن العقوق ، والزنا ، والسرقة ، والغش ، والخيانة ، والظلم ، والغيبة ، والنميمة ، والقتل ، والربا ، والسباب ، وما إلى ذلك .. ماهى إلا نهى عن سوء الخلق الذى يفسد ما بين الناس ، فيفسد المجتمع ، وتضيع الحقوق وتضمحل القيم ، فتنهار الأمة من داخلها .

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : "إن من أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقا .. وإن أبغضكم إلى ، وابعدكم منى مجلسا يوم القيامة : الثرثارون[1] والمتشدقون[2] ، والمتفيقهون . قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيقهون ؟ قال : المتكبرون"[3] .

وهكذا نرى علو المنزلة يوم القيامة لا يتم بلوغها إلا بحسن الخلق ، إذ أن أعلى المنازل على الإطلاق منزلة سيد الخلق ﷺ ، وبالتالى كان القريبون منه مجلسا هم الحائزون لأعلى المنازل الذين بلغوها بحسن الخلق.

لقد بنى النبى ﷺ بكتاب الله تعالى وبأخلاقه النبوية الشريفة نفوسا مؤمنة صالحة قانتة عابدة فنجدهم رهبانا بالليل ليوثا بالنهار .

إن مكارم الأخلاق النبوية تنظم كل قاعدة من قواعد الأخلاق فتدعو الفرد إلى صفاء الروح ، والاستقامة والسيطرة على الشهوات بالعفة ،

---

(١) الثرثار : كثير الكلام .

(٢) المتشدق : الذى يتطاول على الناس بالكلام .

(٣) أخرجه الترمذى . كتاب البر والصلة . باب ما جاء فى معالى الأخلاق ٤/٣٧٠ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

والأخلاق ، واللين ، وكسر جماح الغضب ، والتواضع ، وتحرى الحكمة فى إصدار النصيحة ، والمثابرة فى كل عمل يرضى الله عز وجل ، وتحمل مشاق الحياة ، وتجنب الكذب ، والنفاق ، والإسراف ، والبخل ، والتعالى ، والتفاخر بالأحساب والأنساب ..

ومكارم الأخلاق النبوية تدعو إلى الوفاء بالواجبات الأسرية نحو الآباء والأبناء والزوج والزوجة ، والأقارب ذوى الأرحام ، والجار الجنب والصاحب بالجنب .

إن الأخلاق النبوية تنهى عن القتل والسرقة والاختلاس ، والتعامل بالربا والاعتداء على أموال اليتامى ، والخيانة ، وقول الزور .

وتأمر برد الأمانة ، ومراعاة العهود ، وشهادة الصدق ، وإقرار الوئام بين الناس .

وتزداد الأخلاق النبوية رقة فى التعامل فتأمر بآداب غاية فى السمو والعظمة على بساطتها كالاستئذان قبل الدخول على الغير وإن كان على أقرب الأقربين ، كذا أدب التحاور ، وخفض الصوت عند الحديث وحسن اختيار الحديث فلكل مقام مقال .

هذا .. وقد أجملت فى كتابى هذا بعضا من الأخلاق الإسلامية التى اتصف بها سيد الخلق رسول الله ﷺ ، والصالحون من بعده ، لعل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا بفضله وكرمه وجوده وإحسانه للإتصاف بها ؛ لنفوز بسعادة الدارين الدنيا والآخرة .

أسأل الله تعالى أن يغفر لى الزلل ، ويجبر التقصير ، وأن يغفر لى ولوالدى ولأهلى ولذريتى . ورضى الله تعالى عن أساتذتى . وآخر دعوتى أن الحمد لله رب العالمين .

عفاف النجار

الموضوع الأول
تقوى الله

التقوى : لغة : اسم ، وموضع التاء واو وأصلها وَقوْى ، وهى فَعْلى من وقيت[١] . يقال : وقى الشىء : أى صانه عن الأذى وحماه . ويقال: وقاه الله من السوء. ويقال: اتقى الله أى خاف عقابه فتجنب ما يكره[٢].

التقوى : شرعا : أن نجعل وقاية بيننا وبين عقاب الله سبحانه . ومن عقابه سبحانه النار . فتقوى العبد لله أن يجعل بينه وبين ما يؤذيه أو يخشاه وقاية تقيه منه ، وهى امتثال أوامره واجتناب نواهيه بفعل كل مأمور به وترك كل منهى عنه حسب الطاقة ، فمن فعل ذلك فهو من المتقين الذين شرفهم الله تعالى فى كتابه بالمدح والثناء[٣] .

والخلاصة : هى حفظ النفس عما يعرضها للوم أو السؤال أو العقاب، أو هى ألا يراك الله حيث نهاك ، وألا يفتقدك حيث أمرك .

قال ابن قيم الجوزية[٤] : "والتقوى فى الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح . قال تعالى ﴿**ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب**﴾[٥] ، وقال سبحانه ﴿**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها**

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٤٠٤/١٥ .
(٢) المعجم الوجيز ص ٦٧٩ مجمع اللغة العربية .
(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين . تأليف محمد بن علان ٢٤٦/١ .
(٤) انظر الفوائد ص١٢٦ .
(٥) سورة الحج الآية ٣٢ .

ولكن يناله التقوى منكم﴾[1] ، وقال النبى ﷺ : "التقوى ههنا : وأشار إلى صدره"[2] .

فالكيس[3] يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل ، أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق ، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير ، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة ، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل فإن ساواه فى همته تقدم عليه بعمله" أ.هـ.

---

(١) سورة الحج الآية ٣٧ .

(٢) أخرجه الترمذى .

(٣) الكيس : العاقل عكس الأحمق .

فضل تقوى الله

لقد أمر الله تعالى الناس جميعاً بالتقوى فقال جل ذكره **﴿يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة...﴾**[1] أى يا ايها الناس خذوا لأنفسكم الوقاية ، واتقوا الله الذى رباكم بنعمه ، وتفضل عليكم بإحسانه ومننه ، فهو الذى خلقكم من جنس واحد هو آدم -عليه السلام- وإذا كنا جميعا أبناء لأب واحد ، فلا يصح أن نتعدى حدود الله تعالى .

وكذلك قال سبحانه **﴿واتقوا النار التى أعدت للكافرين﴾**[2] أى : اتقوا النار التى أعدت للذين يبتعدون عن الله ولا يمتثلون أمره .

والسؤال : كيف نجعل بيننا وبين الله تعالى وقاية وهو سبحانه يطلب منا أن نكون دائماً فى معيته باتباع أمره واجتناب نهيه ؟! .

والجواب : إن المطلوب أن نجعل الوقاية بيننا وبين عقاب الله سبحانه .

فعلينا أن نسمع ونطيع ، وأن نأتمر بما أمر به ونجتنب ما نهى عنه، ونرضى بما قسمه سبحانه لنا ونحمده تعالى على قضائه وقدره ، بذلك نكون قد جعلنا بيننا وبين عقابه عز وجل وقاية إذا فعلنا ذلك كان فضل الله تعالى عظيما .

والمتدبر للقرآن الكريم يراه قد تحدث عن فضيلة التقوى فى عشرات المواضع وفى مختلف المواطن .

---

(١) سورة النساء من الاية ١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣١ .

فتارة يبين لنا القرآن الكريم أن تقوى الله هى خير زاد يتزود به الإنسان لدنياه ولآخرته فيقول : ﴿**وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب**﴾[1] .

أى تزودوا -أيها المؤمنون- من القول الطيب ، ومن العمل الصالح الذى ينفعكم فى حياتكم ، وبعد مماتكم ، فإن تقوى الله تعالى وخشيته والخوف منه وطاعته فى السر وفى العلن هى خير زاد لكم .

ففى الآية تنبيه على أن هذه الدار ليست بدار قرار .

قال الأعمش[2] :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقوى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودوا

ندمت على ألا تكون مثله ... وأنت لم ترصد كما كان أرصدا

كما بين القرآن الكريم أن تقوى الله هى الطريق الذى يوصل إلى العلم النافع ، وإلى الفهم السليم للأمور ، وإلى المنهج القويم للسلوك الحميد ، قال تعالى : ﴿**واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم**﴾[3] أى واتقوا الله فى جميع ما أمركم به ونهاكم عنه ، وهو سبحانه يعلمكم ما فيه صلاح حالكم فى الدارين وحفظ أموالكم ، ولولا هدية لكم لم تعلموا شيئاً ، وهو العليم بكل شىء .

وتارة يبين لنا القرآن الكريم أن تقوى الله تؤدى إلى فتح باب الخيرات والبركات يقول تعالى : ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا**

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٩٧ .

(٢) انظر تفسير القرطبى ٢/٢٧٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[1] أى آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، واتقوا ما نهى الله عنه وحرمه ، لفتح الله عليهم بركات بالمطر وبركات الأرض بالنبات والثمار ، وكثرة المواشى والأنعام ، وحصول الأمن والسلامة .

أيضا بين القرآن الكريم أن تقوى الله تكفر السيئات وتدخل الجنات قال تعالى : **﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم﴾**[2] .

قال فخر الدين الرازى[3] : "واعلم أنه لما بالغ فى ذمهم وفى تهجين طريقهم بين أنهم لو آمنوا واتقوا لوجدوا سعادات الآخرة والدنيا، أما سعادات الآخرة فهى محصورة فى نوعين:

أحدهما : رفع العقاب ، **والثانى** : إيصال الثواب ، أما رفع العقاب فهو المراد بقوله **﴿لكفرنا عنهم سيآتهم﴾** وأما إيصال الثواب فهو المراد بقوله **﴿ولأدخلناهم جنات النعيم﴾** .

وتارة يرشدنا القرآن الكريم إلى أن تقوى الله تفرج الكروب ، وتأتى بالأرزاق من طرق لا يعلمها إلا الله تعالى وتيسر الأمور العسيرة .

قال تعالى **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا﴾**[4] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٩٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ٦٥ .

(٣) مفاتيح الغيب ٤٦/١٢ .

(٤) سورة الطلاق من الآيتين ٢ ، ٣ .

قال أبو ذر : "قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال : يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم"[١] .

وروى أن عوف بن مالك الأشجعى أسر المشركون ابنا له يسمى سالما فأتى رسول الله فقال : اسر ابنى وشكا إليه الفاقة فقال : ما أمسى عند آل محمد إلا مد فاتق الله واصبر وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله .

ففعل فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها فنزلت هذه الآية"[٢] .

وقال جل ذكره : ﴿**ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا**﴾[٣] أى من يتق الله فى امتثال أوامره واجتناب نواهيه يسهل عليه أمره فى الدنيا والآخرة .

ومن تحلى بتقوى الله ، وبالخوف منه يستطيع التمييز بين الحق والباطل يقول سبحانه : ﴿**يا ايها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا**﴾[٤] أى يجعل لكم بصيرة مستنيرة تميز بين الخير والشر .

قال الألوسى[٥] : "إن تتقوا الله فى كل ما تأتون وتذرون يجعل لكم بسبب ذلك الاتقاء فرقانا أى هداية ونورا فى قلوبكم تفرقون به بين

---

(١) دليل الفالحين ٢٤٧/١ .

(٢) تفسير الكشاف ١٠٩/٤ .

(٣) سورة الطلاق من الآية ٤ .

(٤) سورة الأنفال الآية ٢٩ .

(٥) روح المعانى ١٩٦/٩ .

الحق والباطل" وروى عن ابن جريج وابن زيد "نصرا يفرق بين المحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين"[١] .

كما صرح القرآن الكريم بأن تقوى الله تضاعف الأجر والثواب، وتجعل الإنسان الصادق فى إيمانه ينظر بنور الله فيقول سبحانه : **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾**[٢] أصل الكفل الحظ والنصيب ، والمعنى : يؤتكم نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله وتقواكم لله ، ويجعل لكم يوم القيامة نورا تمشون وتهتدون به على الصراط كما قال : **﴿نورهم يسعى بين أيديهم﴾**[٣] .

وقد شرف الله تعالى المتقين بالمدح والثناء فقال سبحانه : **﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾**[٤] .

كما أن تقوى الله تحفظ من الأعداء والنصر عليهم قال تعالى : **﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا﴾**[٥] .

قال الزمخشرى[٦] : "وإن تصبروا على عداوتهم وتتقوا ما نهيتم عنه من موالاتهم . أو وإن تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا الله فى اجتنابكم محارمه كنتم فى كنف الله فلا يضركم كيدهم ...وهذا

---

(١) المرجع السابق .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٨ .

(٣) سورة التحريم من الآية ٨ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨٦ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٢٠ .

(٦) تفسير الكشاف ٢١٤/١ .

تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى وقد قال الحكماء: "إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلا فى نفسك" .

كما كرم الله تعالى عباده المتقين بإصلاح العمل وغفران الذنب قال تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم**﴾(١) .

أمر الله تعالى الذين آمنوا بإتقائه تعالى فى حفظ اللسان وأن يوافق ظاهره باطنه ، وأن يكون فيه إصلاح للناس ، ونشر الفضائل ويرغبون الناس فى التخلق بها .

ولما فى التقوى والقول السديد من وسائل الصلاح جوزى الأتى بهما بإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب .

وقد اختص -سبحانه- المتقين بمحبته ، وموالاته ، وانتفاء الخوف ، والحزن ، وحصول البشارة فى الدنيا والآخرة والفوز العظيم .

قال تعالى : ﴿**بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين**﴾(٢) فقد جعل الله جزاء الموفين بالعهد المتقين الغدر - محبته تعالى ورحمته لهم فى الدنيا والآخرة .

وقال جل ذكره : ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة**﴾(٣) فالإيمان والتقوى هما صفتا أولياء الله ، ومن تولاه الله تعالى وتولى حفظه ورضى عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن فى دنياه على ما فاته ، وقوله ﴿**لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة**﴾

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٧٠ ، ٧١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٧٦ .

(٣) سورة يونس الآيات ٦٢ - ٦٤ .

قال الزهرى وعطاء وقتادة : "هى البشارة التى تبشر بها الملائكة المؤمن فى الدنيا عند الموت"[1] .

وقال سبحانه : ﴿**إنِ أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾[2] أى إن المتقين أولياؤه .

كما جعل الله تعالى الجنة ميراثا للمتقين فقال : ﴿**تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا**﴾[3] أى نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال الموروث ، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية وهى الجنة ، فإذا أدخلهم الجنة فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى . وقيل : أورثوا من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار لو أطاعوا[4] .

وقال سبحانه : ﴿**إن المتقين فى جنات ونهر**﴾[5] وقال : ﴿**وأزلفت الجنة للمتقين**﴾[6] وقال جل ذكره : ﴿**إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون**﴾[7] وقال تعالى : ﴿**ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين**﴾[8] وقال: ﴿**وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين**﴾[9] .

---

(١) تفسير القرطبى ٢٢٩/٨ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٣٤ .
(٣) سورة مريم الآية ٦٣ .
(٤) تفسير الكشاف ٤١٦/٢ .
(٥) سورة القمر الآية ٥٤ .
(٦) سورة الشعراء الآية ٩٠ .
(٧) سورة الدخان الآية ٥١ .
(٨) سورة النحل الآية ٣٠ .
(٩) سورة آل عمران الآية ١٣٣ .

ثم بين الله تعالى حال المتقين وما أعد لهم من الخير فى الجنة فقال: **﴿إن المتقين فى ظلال وعيون وفواكه مما يشتهون كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾**[1] أى فى ظلال الأشجار وظلال القصور ، والمراد بالعيون الأنهار ، وبالفواكه ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهوتهم ، ثم يقال لهم **﴿كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون﴾**.

وقال عز وجل : **﴿إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأسا دهاقا لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا جزاء من ربك عطاء حسابا﴾**[2] .

والمفاز مصدر بمعنى الفوز والظفر بالنعمة والنجاة من النار . ثم فسر سبحانه هذا المفاز فقال : (حدائق وأعنابا) وهى جمع حديقة وهى البستان المحوط عليه ، والأعناب جمع عنب ، (وكواعب أترابا) الكواعب جمع كاعبة : وهى الناهدة والمراد أنهم نساء كواعب : أى صارت ثديهن كالكعب فى صدورهن . والأتراب : جمع ترب ، وهن من كن فى سن واحدة ، (دهاقا) صافية ممتلئة .

فى هذه الآيات بين الله تعالى حال المؤمنين المتقين يوم القيامة بأن لهم فوزا عظيما بما عملوا فى الدنيا وأن لهم فى الجنة موضع فوز ومكان نجاة ، بعضه حدائق غناء ، ذات بهجة ورواء ، وأن لهم فيها فواكه وأعنابا ، ونساء حسانا فى سن واحدة ، والتمتع بهذا الصنف من النساء أمل الناس فى الدنيا فكان لهم فى الآخرة على وجه ونظام لا يعلمه إلا الله ، وإن لهم فيها كأساً مملوءة بالمشتهى من المشروبات

---

(١) سورة المرسلات الآيات ٤١ – ٤٣ .

(٢) سورة النبأ الآيات ٣١-٣٦ .

والمستلذ من الطيبات ، وهم لا يسمعون لغوا ولا كذابا ، وقد جزاهم الله على أعمالهم جزاء ، قد تفضل به وأحسن ، جزاء من صاحب الفضل والنعمة رب السموات والأرض[١] .

أيضا من نعم الله -تعالى- على المتقين يوم القيامة قوله جل ذكره : ﴿**مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ..**﴾[٢] .

بين الله تعالى حال المتقين فى الجنة المعهدة لهم . فيها من كل الثمرات وفيها أنهار من ماء غير آسن أى : غير متغير الطعم والريح واللون لطول المكث بل ماؤها عذب فرات من شربه لا يظمأ أبدا ، وفيها أنهار من لبن صابح لم يتغير طعمه بحموضة كلبن الدنيا ، وفيها أنهار من خمر لذيذة لكل من يشربها ، وأنهار من عسل مصفى خال من الشوائب ، ولهم فيها مغفرة من ربهم ورضوان منه وذلك هو الفوز العظيم .

ومن أعظم الفضائل على المتقين معية الله تعالى لهم فقد أخبر سبحانه فى آيات متعددة أنه معهم بعونه ونصره وتأييده فقال : ﴿**واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين**﴾[٣] وقال : : ﴿**وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين**﴾[٤] .

---

(١) التفسير الواضح . د/محمد حجازى ٨١٣/٣٠ - ٨١٤ .
(٢) سورة محمد من الآية ١٥ .
(٣) سورة البقرة من الآية ١٩٤ .
(٤) سورة التوبة من الآية ١٢٣ .

الأسباب الباعثة على تقوى الله

أولاً : معرفة صفات الله تعالى :

فعلى العبد أن يعلم أن الله تعالى له صفات العلم والحكمة التامة فهو العليم الحكيم وهو المهيمن الرقيب الذى يراقب عبده فى كل أحواله وهو الحسيب على أعماله وهو الشهيد لكل أفعاله ، وهو عليم بذات الصدور يعلم السر وأخفى ، ويعلم دبيب النملة على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، وهو الذى يعلم الغيب وحده ، فهو وحده علام الغيوب قال تعالى : ﴿**وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين**﴾[1] .

وقال جل ذكره : ﴿**وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة وإن الله بكل شىء عليم**﴾[2] .

فإذا علم العبد ذلك فليعلم أن ذلك يوجب عليه مراقبة الله تعالى فى السر والعلن ، والاستحياء منه سبحانه أن يراه على معصيته موقعا لمحارمه .

وإذا علم أنه -تعالى- مطلع على وساوس قلبه ، وأسرار نفسه فليطهر قلبه من الشهوات والشبهات ، لأنه محل نظر رب العالمين .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

(٢) سورة المجادلة الآية ٧ .

وليعلم العبد كذلك أن الله تعالى متصف بصفات القوة والقدرة التامة، فهو سبحانه العزيز الذى لا يغلب ، القهار الذى لا يقهر ، الجبار الذى يقصم الجبابرة ، ولا يعجزه شىء ولا يمتنع عليه فهو سبحانه ﴿**فعال لما يريد**﴾[1] ﴿**وهو على كل شىء قدير**﴾[2] .

فلا شك أن من عرف الله تعالى بتلك الصفات وجب عليه الخوف الشديد من عقابه .

وقد قرن الله تعالى بين عقابه ومغفرته ؛ فلابد من الإيمان بصفاته كلها ، قال سبحانه : ﴿**اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم**﴾[3] . وقال جل وعلا : ﴿**نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم**﴾[4] . وقال : ﴿**إن بطش ربك لشديد**﴾[5] وقال سبحانه : ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق**﴾[6] .

---

(١) سورة البروج الآية ١٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٢ .

(٣) سورة المائدة الآية ٩٨ .

(٤) سورة الحجر الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .

(٥) سورة البروج الاية ١٢ .

(٦) سورة هود الآيات ١٠٢-١٠٦ .

وفى الحديث عن أنس ﷺ قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، فقال : "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً " فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين[١] .

ثانيا : التصديق بالوعيد وما أعده الله للعاصين :

إذا علم الإنسان ما أعده الله تعالى للعصاة من العذاب المهين فى الآخرة لا شك أنه سيزداد خوفا من أن يكون من هؤلاء الهالكين .

وسبيل ذلك هو أن يتمثل الأهوال التى يلاقيها من خالف أمر الله تعالى من شدة المعاناة عند الموت والمنازعة والسكرات يقول تعالى : ﴿**وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ماكنت منه تحيد**﴾[٢] .

وقد كان أشرف الخلق يعانى عند موته ويقول ﴿**إن للموت لسكرات**﴾[٣] .

ثم يتمثل العبد القبر وضغطته ، وظلامه ووحشته ، فإن للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ الذى اهتز له عرش الرحمن كما أخبر رسول الله ﷺ .

---

(١) الخنين : هو ضرب من البكاء دون الانتحاب ، وهو خروج الصوت من الأنف. لسان العرب ١٤٢/١٣ بتصرف والحديث أخرجه البخارى . كتاب الرقاق . باب : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ١٠١/١٤-١٠٢ فتح البارى .

(٢) سورة ق الآية ١٩ .

(٣) أخرجه البخارى . كتاب المغازى . باب مرض النبى ﷺ ووفاته ٢٠٩/٩-٢١٠ فتح البارى .

ثم يأتيه ملكان شديدان يسألانه من ربك ؟ وما دينك ؟ وما الرجل الذى بعث فيك ؟ فهل أعد نفسه لهذا الإمتحان ؟! .

ثم يتذكر يوم القيامة وأهواله ، وشدة حره ، واقتراب الشمس من الرؤوس ، وغرق الناس فى غرقهم .

عن المقداد ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل" قال سليم بن عامر الراوى عن المقداد فوالله ما أدرى ما يعنى بالميل : أمسافة الأرض أم الميل الذى تكتحل به العين "فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاما . قال : وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه"[1] .

أيضا إذا علم الإنسان ما أعده الله تعالى للعصاة يوم القيامة لاشك أنه سيزداد خوفا من شدة النار وعذابها ، وحرارة جمرها ، وبعد قعرها، وضراوة حيَّاتها ، وما يلقى على أهلها من الجوع والعطش ، وما يلقون فيها من العذاب المهين .

قال تعالى : **﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾**[2] .

---

(١) اخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها . باب صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهواله ١٩٦/١٧ شرح النووى .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٩ .

وقال سبحانه : **﴿مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم﴾**(1).

وروى عن أبى هريرة ﷺ قال : كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة(2) فقال : "تدرون ما هذا؟" قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : "هذا حجر رمى به فى النار منذ سبعين خريفا ، فهو يهوى فى النار الآن ، حتى انتهى إلى قعرها ، فسمعتهم وجبتها"(3) .

وماذا يجيب الإنسان حين يقف بين يدى الرحمن ويسأل عما قدم وما أخر .

عن أبى برزة بن عبيد الأسلمى ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه"(4) .

هذا فالتقوى تتولد من التصديق بالوعيد ، وما أعده الله للعاصين .

---

(1) سورة محمد الآية ١٥ .

(2) وجبة : سقطة .

(3) أخرجه مسلم . كتاب الجنة وصفة نعيمها . باب جهنم أعاذنا الله منها ١٧/١٧٩ شرح النووى .

(4) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب صفة القيامة . باب فى القيامة ٤/٦١٢ . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ثالثا : الفهم الصحيح لكتاب الله

ومعرفة هدى الرسول ﷺ وسير الصالحين من عباد الله والاهتداء بهذا كله .

رابعا الخوف من موت الفجأة :

من الأسباب الباعثة على تقوى الله ، الخوف من موت الفجأة قبل التوبة ، وقبل أداء حقوق الله تعالى وحقوق الناس ، فمن المعلوم أن الموت لا يأتى إلا بغتة .

قال تعالى :﴿**حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون**﴾[١] .

وقال سبحانه :﴿**ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون**﴾[٢] .

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٩٩،١٠٠.

(٢) سورة المؤمنون الآيات ٩-١١ .

مراتب التقوى :

قال البيضاوى : للتقوى ثلاث مراتب :

الأولى : التوقى عن العذاب المخلد بالتبرى عن الشرك وعليه قوله تعالى :﴿**إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما**﴾[١] .

الثانية : التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهو المتعارف باسم التقوى فى الشرع وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**﴾[٢] .

الثالثة : أن يتنزه عما يشغل سره عن الحمق ويتبتل إليه بشراشره[٣]: وهو التقى الحقيقى المطلوب بقوله تعالى :﴿**اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾[٤] ثم قال فى قوله تعالى :﴿**اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾[٥] . نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهو التبرى من كل شىء سوى الله تعالى أ.هـ [٦] .

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٦ .

(٢) سورة الأعراف من الآية ٩٦ .

(٣) أى جميعه .

(٤) سورة آل عمران ص الآية ١٠٢ .

(٥) سورة البقرة الآية ٢١ .

(٦) دليل الفالحين ٢٤٧/١ .

تعقيب :

إن تقوى الله عز وجل إذا رسخت فى القلب واختلطت بالعروق والدماء وخالطت بشاشتها النفوس جعلت صاحبها لايكتفى بالإبتعاد عن الحرام أو المكروه وإنما يلتزم فى مأكله وفى مشربه وفى ملبسه وفى معاملاته ويتحرى الحلال الذى لاتحوم حوله شبهة ولاتقترب منه ريبة.

وصاحب هذه التقوى يعمل بقول الرسول ﷺ : **﴿الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب﴾**[1] .

ففى هذا الحديث النبوى الشريف ما يفيد أن تمام التقوى التى أشار إليها الرسول ﷺ فى قوله :**﴿فمن اتقى الشبهات﴾** مرتبط بطهارة القلب ونظافته من الوساوس والهواجس وخبيث الخواطر، ولاشك أن هذه الطهارة هى رأس مكارم الأخلاق وأصل فروع الأخلاق .

" ومن ثمرات التقوى العرفان الذى به تتجلى الأمور ، والنور الذى تنشرح به الصدور ، ومن انشرح صدره واستنار قلبه بشهود التوحيد وأنه لاشريك له فى ملكه ولا فى شىء من أفعاله ، تيقن أن لاحول له

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الإيمان . باب فضل من استبرأ لدينه ١/١٣٤ -١٣٧ من الفتح .

ولاقوة ، وأنه لايملك لنفسه نفعا ولاضـرا ، فخـرج عمـا فـى نفسـه مـن التدابير ، وألقى نفسه مع جرى المقـادير ، ففـاز كمـا جـاء فـى الحديـث الشريف :**﴿لاحول ولاقوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة﴾**[1] وظهر بهـذا أن التوكل واليقين من ثمرات التقوى[2] .

كما يجب أن يعلم أن تقوى الله تعالى لاتتعارض مع التمتع بما أحلـه الله تعالى لعباده من طيبـات دون اسـراف أو تقتـير يقـول جـل ذكـره : **﴿يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنــه لايحب المسرفين﴾**[3] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ١٥٦/٥ .

(٢) انظر دليل الفالحين ٢٥٥/١ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٣١ .

الموضوع الثانى
الصــدق

تعريف الصدق :

أولاً : تعريف الصدق لغة :

الصدق لغة نقيض الكذب ويقال : صَدَقْتُ القوم أى : قلت لهم صدقاً، ورجل صدوق : أبلغ من الصادق والمصدق : الذى يصدقُك فى حديثك.

قال أبو الهيثم : " صدقنى فلان أى قال لى الصدق وكذبنى أى قال لى الكذب "[1] .

" ويقال صدق فى الحديث وصدق الحديث أى أنبأه بالصدق "[2] .

والصدّيق : الدائم التصديق والمبالغ فى الصدق - والذى يصدق قوله بالعمل . ومصداقُ الأمر : الدليل على صدقه[3] .

ثانياً : تعريف الصدق اصطلاحاً :

الصدق هو : مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معاً . ومتى انخرم شرط من ذلك لايكون صدقاً تاماً .

" وقيل الصدق ما طابق الواقع والكذب ما خالفه أو الصدق ما طابق الاعتقاد والكذب ما خالفه"[4] .

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٢٤١٧/٤-٢٤٢٠ .

(٢) مختار الصحاح ٩٦/٢ .

(٣) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية ٥٣٠/١ .

(٤) الخلق الكامل لمحمد أحمد جاد المولى بك ٣٤٢/٤ .

وقال الإمام ابن القيم[1] : " الصدق اسم لحقيقة الشىء بعينه حصولاً ووجوداً وكمال قوته واجتماع أجزائه فالتمام والوجود نوعان خارجى وذهنى فإذا أخبرت المخاطب بخبر صادق حصلت له حقيقة المخبر عنه بكماله فى ذهنه " .

فلا تعارض بين المعنيين اللغوى والإصطلاحى فهو مطابقة الخبر من قول أو عمل للواقع وللحقيقة .

الحاجة إلى الصدق :

لا ننكر أن التزام الصدق فى كل ما يقال ويفعل يستلزم مشقة كبيرة ويحتاج إلى عناء ، ورياضة نفس ، وصبر وشجاعة ، ذلك لأنه يعرض للإنسان فى حياته اليومية مسائل دقيقة يرى فيها قصار النظر أن الكذب أنفع وأنه لامفر منه . ولهذا كان لزاماً على أن أنبه عن الحاجة إلى الصدق كى أحث المجتمع على الإلتزام به فى كل الأحوال .

قال محمد جاد المولى بك[2] : " بأن الحاجة إلى الصدق تتمثل فيما يلى :"

١- أن هذا الخلق من خواص الإنسان وأحد الأركان التى عليها مدار نظام المجتمع البشرى فى جميع حركاته وسكناته .

فإن التاجر إن لم يعتمد على صدق المقال لاينتقل من بلد لآخر لأجل البيع والشراء ، وكذلك الذى يشترى منه إن لم يصدق التجار فيما يقولونه من الأثمان ومايروى إليه من الأخبار فى هذا الصدد لايقدم

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ٢/٢٠٦ .

(٢) الخلق الكامل ٤/٣٤٧-٣٥١ .

على الشراء ومثل ذلك يقال فى الزراعة والصناعة ، بل قد يتجاوز ذلك إلى الحاكم والمحكوم . ومن ذلك يتجلى أن الصدق عليه مدار نظام المجتمع الإنسانى وأن الكذب مخل به هادم لأحكامه ، كيف والمتصف به فاقد مزية النطق الذى من شأنه أن يكون إعراباً عن الحقيقة فهو من هذه الجهة منحط عن درجة الإنسانية إلى درك الحيوانية ، بل هو شر من ذلك .

٢- إن حياة المجتمع الإنسانى من ضرورياتها التعاون والتآزر بين الأفراد والجماعات فلا يمكن أن يعيش الإنسان منفرداً مستقلاً عن غيره فى جميع شئونه ، بل لابد له من الإستعانة بغيره والإستناد عليه فى كثير من ضروريات الحياة ، وإذاً فلابد من التفاهم مع غيره على أساس صحيح كى يتيسر له أن يتعاون معه ، فإذا لم يوجد الصدق فقد التعاون الذى هو أهم شىء فى هذه الحياة .

٣- إن الإنسان محتاج للعظة والإعتبار بأخبار الأمم الماضية والحاضرة ولاسبيل إلى معرفة ذلك إلا بالصدق .

٤- إن الميزة التى امتاز بها الإنسان عن الحيوان إنما هى العلم والمعرفة . والعلم مشتمل على قضايا ونظريات ، فإذا نقلت كاذبة انقلب العلم جهلاً وعدمت الحقائق العلمية وفقد الإنسان ميزته التى امتاز بها عن الحيوان (ومما يظهر أهمية ذلك تحرى البخارى فى جمع الحديث حيث أنه اعتمد فى جمعه للحديث على صدق من يأخذ عنه حتى بلغ الذروة فى تحريه فمما ذكر أنه عندما رأى رجلاً ينادى لفرسه أو لجمله ليعطيه شيئاً ثم عندما جاءه لم يعطيه شىء امتنع البخارى عن أخذ الحديث منه لأنه عده من الكذابين وهذا دليل على وجوب تحرى الصدق فى أخذ العلم) .

٥- إن قصوى غايات الإنسان نيل السعادة الباقية ، وهذه لاتقم إلا فى الدار الآخرة ، فلابد حينئذ من نقل أخبار تلك الدار الصادقة ولامناص من معرفة الوسائل الموصلة إلى تلك السعادة على وجه صحيح وهذا لايكون إلا بالنقل عن الله سبحانه وتعالى بواسطة رسله .

فإن لم يكن الصدق شعارهم تعذرت معرفة ما عند الله تعالى لأنهم هم أمناؤه على وحيه وإبلاغنا ما غاب عنا .

٦- وإنما كان الصدق فضيلة لأنه من أهم الأسس التى تبنى عليها المجتمعات ، ولولاه مابقى مجتمع ، لأنه لابد للمجتمع من أن يتفاهم أفراده بعضهم مع بعض ، وأحوج مايكون الصدق فى المجتمعات الصغيرة كالأسرة والمدرسة فكلاهما لايبقى إلا بالصدق فلو كذب الطلاب فى جميع مايتكلمون وكذب عليهم مدرسوهم فيما يلقون مابقيت المدرسة وكذلك المنزل .

ومما يجعل الصدق أمراً لاغنى عنه أن أغلب المعارف التى وصلت إلينا بالسماع أو القراءة مبناها على الصدق وعليها يعول الإنسان فى معاملاته وتصرفاته فلو كانت كذباً لكانت الأعمال المبنية عليها خطأ وضلالاً .

ومن أجل هذا كان الصدق أساساً كبيراً من أسس الفضائل وعنواناً لرقى الأمم وتحضرها .

٧- وإذا علمت ما يترتب على الصدق من الفوائد فى المجتمع الإنسانى فقد علمت مقداره من الفضيلة وأكبرت من يتصف به وإذا صدق التاجر وفر على المشترى قدراً من الزمن يضيع فى المساومة

وجزءاً من ماله كان ذاهباً بغير حق لوكذب عليه فى قيمة المبيع وبذلك يقبل عليه المشترون إقبالاً عظيماً متى علموا منه ذلك الخلق الفاضل فيتبادلون المنفعة .

وإذا صدق المعلم فيما يلقيه من المعلومات ووقف عند مايعلمه ولم يقف ماليس له به علم ، وعلم المتعلمون صدقه فيما يقول فعرفوا منه معلومات حقه ، وثقوا بما يقول ولم يضيعوا أزمانهم فى الأباطيل وأحسنوا الإستماع إليه وأكبروا من شأنه .

وإذا صدق الحاكم فى الحكم على ما تقتضيه القوانين العادلة ونفذ أحكامها ، سارع المحسن إلى الإكثار من إحسانه ، وارتد المسىء عن إساءته . وإذا أصبح الصدق خلقاً للإنسان جنى من ثماره حسن السمعة، وقلده فيه خلانه ومخالطوه من أسرته وأحبابه وبخاصة الأطفال فإنهم إذا نشأوا بين أسرة كريمة الأخلاق صادقة المقال شبوا على الصدق فى القول متحلين بفاضل الأخلاق فلينظر من ليس بصادق فى جنايته على أولاده بما ورثوا عنه من الأكاذيب وسىء الأخلاق وكذلك من يكفلهم .

قال الشيخ الغزالى[١]: إن العمل الصادق هو العمل الذى لاريبة فيه لأنه وليد اليقين ، ولاهوى معه لأنه قرين الإخلاص، ولاعوج عليه لأنه نبع من الحق.

ونجاح الأمم فى أداء رسالتها ، يعود إلى جملة مايقدمه بنوها من أعمال صادقة فإن كانت ثروتها من صدق العمل كبيرة ، سبقت سبقاً

---

(١) خلق المسلم ص٤٣ .

بعيداً ، وإلا سقطت فى عرض الطريق ، فإن التهريج والخبط ، والإدعاء والهزل ، لاتغنى فتيلاً عن أحد "أ.هـ .

إن الحاجة إلى الصدق كبيرة لأن الصدق أساس البر والكذب أساس الفجور ولأن الكذب يفسد على الإنسان تصور المعلومات على حقيقتها كما يفسد عليه تعليمها الناس ، ولأن الكذب يصور المعدوم موجوداً والموجود معدوماً والحق باطلاً والباطل حقاً ، والخير شراً والشر خيراً ، فيفسد عليه تصوره.

ونفس الكاذب دائماً معرضة عن الحقيقة ميالة إلى الباطل ومتأثرة به ، ولهذا كان الكذب أساس الفجور والصدق أساس البر ، ولذلك قال رسول الله ﷺ: "إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب صديقاً وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب كذاباً"(١) وأول مايسرى الكذب من النفس إلى اللسان فيفسده ، ثم يسرى إلى الجوارح فيفسد عليها أعمالها ، كما أفسد على اللسان أقواله فيعم الكذب أقواله وأعماله ، فيستحكم عليه الفساد ويترامى داؤه إلى الهلكة إن لم يتداركه الله بدواء الصدق ويقلع عن تلك العادة من أصلها ، فكل عمل صالح ظاهر أو باطن أساسه وأصله الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن أساسه وأصله الكذب ومن هنا كانت الحاجة إلى الصدق ماسة وشديدة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب : البر والصلة والآداب . باب تحريم الكذب وبيان مايباح منه ١٥٩/١٦ بشرح النووى .

أنواع الصدق

إن أرقى الصدق وأعلاه هو : صدق الله تبارك وتعالى ، وصدق الأنبياء عليهم السلام .

أولاً : صدق الله تبارك وتعالى :

إن صفة الصدق من الصفات الحميدة التى يجب أن تلازم المسلم ولاتنفك عنه كما أنها أيضاً تعد صفة كمال للمخلوق ومن هنا كان من باب أولى أن تكون صفة كمال للخالق جل علاه مع الفارق بين وصفه سبحانه وتعالى بهذه الصفة ووصف عباده بها - ولهذا وصف سبحانه وتعالى نفسه بهذه الصفة فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم نحو قوله تبارك وتعالى :﴿**الله لاإله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً**﴾[1] .

قال أبو حيان[2] : "ومن أصدق من الله حديثاً هذا استفهام معناه النفى ، والتقدير : لا أحد أصدق من الله حديثاً ...

قال الماتريدى : أى إنكم تقبلون حديث بعضكم من بعض مع احتمال صدقه وكذبه ، فإن تقبلوا حديث من يستحيل عليه الكذب فى كل ما أخبركم به من طريق الأولى .

وقال أبو السعود[3] : "ومن أصدق من الله حديثاً إنكار لأن يكون أحداً أصدق منه تعالى فى وعده وسائر أخباره وبيان لاستحالته كيف لا والكذب محال عليه سبحانه دون غيره" أ.هـ

---

(١) سورة النساء الآية : ٨٧ .

(٢) البحر المحيط ٤/٧ .

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢/٢١١-٢١٢ .

ومن الآيات التى تدل على أنه سبحانه أصدق القائلين قوله تعالى : ﴿**والذين إمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً**﴾[1] .

قال الفخر الرازى[2] : "ومن أصدق من الله قيلاً هو تؤكيد ثالث بليغ. وفائدة هذه التوكيدات معارضة ما ذكره الشيطان لأتباعه من المواعيد الكاذبة والأمانى الباطلة . والتنبيه على أن وعد الله أولى بالقبول وأحق بالتصديق من قول الشيطان الذى ليس أحد أكذب منه"أ.هـ

وقال أبو حيان[3] : "ومن أصدق من الله قيلاً القيل والقول واحد أى: لا أحد أصدق قولاً من الله . وهى جملة مؤكدة أيضاً لما قبلها، وفائدة هذه التواكيد المبالغة فيما أخبربه تعالى عباده المؤمنين بخلاف مواعيد الشيطان وأمانيه الكاذبة المخالفة لأمانيه " أ.هـ

"ومن أصدق من الله قيلاً أى لاأحد أصدق قولاً ووعداً من الله تعالى وهو وعد حق لاريب فيه لأنه من الله محقق لامحالة ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقق الوقوع وهو قوله "حقاً" فهو القادر على كل شيء وهو الواسع الكرم والرحمة وأما وعد الشيطان فهو غرور من القول وزوراً فإنه إذاً لاأحد أصدق من الله تبارك وتعالى"[4] .

---

(١) سورة النساء الآية ١٢٢ .

(٢) مفاتيح الغيب ٥٢/١١ .

(٣) البحر المحيط ٣٥٥/٣ .

(٤) راجع هذا فى تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٥٦/١ ، والتفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج للدكتور وهبه الزحيلى ٢٧٨/٥-٢٨٢ ، أيسر التفاسير لكلام العلى الكبير لأبى بكر الجزائرى ٤٥٨/١-٤٥٩ .

ومن هنا نصل إلى أنه لا أحد أصدق من الله تبارك وتعالى وهناك بعض المواقف التى صدق الله فيها وعده لرسوله ﷺ ولعباده دلت عليها بعض الآيات القرآنية والتى منها قوله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه: **﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾**(١) .

قال القرطبى(٢) : "روى أنه لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أحد وقد أصيبوا قال بعضهم لبعض : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ! فنزلت هذه الآية . وذلك أنهم قتلوا صاحب لواء المشركين وسبعة نفر منهم بعده على اللواء . وكان الظفر ابتداءً للمسلمين غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة ، وترك بعض الرماة أيضاً مركزهم طلباً للغنيمة فكان ذلك سبب الهزيمة .

وعن عروة بن الزبير ﷺ قال : وكان الله عز وجل وعدهم على الصبر والتقوى أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وكان قد فعل ، فلما عصوا أمر الرسول وتركوا مصافهم وترك الرماة عهد رسول الله ﷺ إليهم ألا يبرحوا من منازلهم ، وأرادوا الدنيا ، رفع عنهم مدد الملائكة ، وأنزل الله تعالى : **﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾** فصدق الله وعده وأراهم الفتح ، فلما عصوا أعقبهم البلاء " أ.هـ

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٢ .

(٢) تفسير القرطبى ١٥١/٤ .

ومن المواقف التى ذكرها المولى عز وجل من تصديق وعده لعباده ما حدث فى غزوة الأحزاب قال المولى تبارك وتعالى :﴿**ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وماذادهم إلا إيماناً وتسليماً**﴾[1] .

قال القرطبى[2] : "قالوا هذا ما وعدنا الله يريد قوله تعالى : ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلو من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب**﴾[3] .

فلما رأوا الأحزاب يوم الخندق قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله " أ.هـ

وقال الألوسى[4] : "وصدق الله ورسوله المراد ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله ﷺ لأن الصدق محقق قبل ذلك والمترتب على رؤية الأحزاب ظهوره ، وجوز أن يكون المعنى وصدق الله تعالى ورسوله ﷺ فى النصرة والثواب كما صدق الله تعالى ورسوله ﷺ فى البلاء "

ومن الأخبار التى وعد الله فيها نبيه وعباده المؤمنين وصدقها لهم ما حدث فى صلح الحديبية وتصديق الله لرؤية رسوله محمد ﷺ من دخوله مكة هو وأصحابه رضوان الله عليعم آمنين قال تعالى :﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله**

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٢ .

(٢) تفسير القرطبى ١٤/١٠٣ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٤ .

(٤) روح المعانى للألوسى ٢١/١٦٩ .

أمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾[1] .

قال ابن كثير[2] : "كان رسول الله ﷺ قد رأى فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام .

فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع فى نفس بعض الصحابة -رضى الله عنهم- من ذلك شيء . حتى سأل عمر بن الخطاب ﷺ فى ذلك فقال له فيما قال أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال :"بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ "

قال : لا ، قال النبى ﷺ : فإنك أتيه ومطوف به " وبهذا أجاب الصديق ﷺ أيضاً ولهذا قال تبارك وتعالى **﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله﴾** هذا لتحقيق الخبر وتوكيده .

وليس هذا من الإستثناء فى شيء . وقوله عز وجل **﴿آمنين﴾** أى فى حال دخولكم ، ثم دخلها رسول الله ﷺ وأصحابه ودخلوا المسجد الحرام فى عمرة القضاء وصدق الله وعده سنة سبع " أ.هـ

ثم يختتم المولى تبارك وتعالى آيات صدقة ببعض الآيات التى يتجلى فيها صدقة تبارك وتعالى فى الآخرة فى وعده ووعيده وكل ما ذكره

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٠٣/٤ .

فى كتابه من أمور هذه الحياة التى لانعلمها ولكننا نؤمن بها وبكل ما يخبرنا به المولى عزوجل عنها قال تعالى :﴿**وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين**﴾(١) .

" أى الحمد لله الذى صدقنا وعده بالبعث والثواب وهذا يقوله المؤمنون إذا دخلوا الجنة وعاينوا ذلك الثواب الوافر والعطاء العظيم والنعيم المقيم والملك الكبير فيقولوا عند ذلك ﴿**الحمد لله الذى صدقنا وعده**﴾ أى الذى كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام فى الدنيا"(٢) .

ثم يخبرنا سبحانه وتعالى فى النهاية بأنه قد تمت جميع كلماته واخباراته فى الدنيا وفى الآخرة ولكنها تمت صادقة عادلة ليس فيها تغير أو جود قال تعالى :﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لامبدل لكلماته وهو السميع العليم**﴾(٣) .

قال القرطبى(٤) : "قال ابن عباس ﷺ تمت كلمة ربك أى مواعيد ربك ، فلا مغير لها . والكلمات ترجع إلى العبادات أو إلى المتعلقات من الوعد والوعيد وغيرهما . وقيل الكلمات هى القرآن الكريم لامبدل له لايزيد فيه المفترون ولاينقصون . صدقاً وعدلاً أى فيما وعد وحكم ، لاراد لقضائه ولاخلف لوعده .

---

(١) سورة الزمر الآية ٧٤ .

(٢) راجع هذا فى روح المعانى للألوسى ٣٥/٢٤، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦٨/٤-٦٩ تفسير القرطبى ٢٨٦/١٥ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١١٥ .

(٤) تفسير القرطبى ٤٧/٧ .

وقال ابن كثير[1] : "وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا قال قتادة رحمه الله : صدقاً فيما قال وعدلاً فيما حكم يقول صدقاً فى الأخبار وعدلاً فى الطلب فكل ما أخبربه فحق لامرية فيه ولاشك وكل ما أمر به فهو العدل الذى لاعدل سواه وكل مانهى عنه فباطل فإنه لاينهى إلا عن مفسدة كما قال تعالى :﴿**يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر**﴾[2] .

وقوله ﴿**لامبدل لكلماته**﴾ أى : ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة وهو السميع لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم والذى يجازى كل عامل بعمله " .

ثانيا : صدق الأنبياء عليهم السلام :

الصدق صفة ملازمة للأنبياء لاتنفك عنهم ولا ينفكون عنها وذلك لأنهم هم الصفوة والقدوة التى يتبعها الناس لذلك وجب أن تكون جميع الصفات والخصال الحميدة ملازمة لهم عليهم السلام حتى يتخذهم الناس قدوة ويثقون بما يقولون ويفعلون ما يأمرونهم به ويكفينا شاهداً على ذلك نبينا ﷺ الذى لقبه قومه بالصادق الأمين والذى اتخذه ﷺ دليلاً على صدقه فى دعواه وسوف أتحدث عن صدق الأنبياء ثم أخص بعض الأنبياء بهذه الصفة وهم الذين خصهم القرآن بها فى عدة مواضع قال تعالى فى صدق أنبيائه عليهم السلام :﴿**ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً**﴾[3]

---

(١) تفسير ابن كثير ١٥٩/٢-١٦٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٨ .

قال البغوى[١] : "يقول أخذنا ميثاقهم لكى يسأل الصادقين يعنى النبين عن تبليغهم الرسالة والحكمة فى سؤالهم مع علمه سبحانه أنهم صادقون تبكيت من أرسلوا إليهم" أ.هـ

وقال الألوسى[٢] : "والمراد بالصادقين النبيون الذين أخذ ميثاقهم ووضع موضع ضميرهم للإيذان من أول الأمر بأنهم صادقون فيما سئلوا عنه وإنما السؤال لحكمة تقتضيه . أى ليسأل الله تعالى يوم القيامة النبين الذين صدقوا عهودهم عن كلامهم الصادق الذى قالوه لأقوامهم أو عن تصديق أقوامهم إياهم . وسؤالهم عليهم السلام عن ذلك الوجهين لتبكيت الكفرة المكذبين كما فى قوله تعالى:**﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾**[٣] أ.هـ

وهناك بعض الآيات التى خصت بعض الأنبياء بصفة الصدق ووصفتهم بها والذين منهم سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا إسماعيل وسيدنا إدريس وسيدنا محمد عليهم جميعاً السلام وسوف أعرض كل مايختص بنبى منهم على حده .

١- صدق سيدنا إبراهيم عليه السلام أبوالأنبياء قال تعالى:**﴿واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾**[٤]

والمعنى:"واذكر فى هذه السورة أو فى القرآن إبراهيم أو اتل عليهم قصته ، إنه كان صديقاً أى : كان الصدق ملازما له فلم يكذب قط نبياً ،

---

(١) معالم التنزيل ٤٣٨/٣ .

(٢) روح المعانى ١٥٥/٢١ .

(٣) سورة المائدة الآية ١٠٩ .

(٤) سورة مريم الآية ٤١ .

وقوله : "نبيا" أى : أى استنبأه الله تعالى أى : كان جامعاً بين الوصفين ولعل هذا الترتيب للمبالغة فى الإحتراز عن توهم تخصيص الصديقية بالنبوة فإن كل نبى صديق ، وقيل : الصديق من صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله"[1] .

قال الزمخشرى[2] : "الصديق من أبنية المبالغة ، والمراد فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله ، وكان الرجحان والغلبة فى هذا التصديق للكتب والرسل أى ، كان مصدقاً بجميع الأنبياء وكتبهم ، وكان نبياً فى نفسه كقوله تعالى:﴿**بل جاء بالحق وصدق المرسلين**﴾[3] أو كان بليغاً فى الصدق لأن ملاك أمر النبوة الصدق ، ومصدق الله بآياته ومعجزاته جرى أن يكون كذلك"أ.هـ

ومن هنا يظهر لنا مدى صدق سيدنا إبراهيم -عليه السلام- فى دعوته لأبيه وقومه فى الدنيا ومع ذلك فقد طلب من المولى -عزوجل- أن يهب له لسان صدق فى الآخرين قال تعالى:﴿**واجعل لى لسان صدق فى الآخرين**﴾[4] .

٢- صدق سيدنا إسماعيل عليه السلام ، قال تعالى : ﴿**واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً**﴾[5] .

---

(١) روح المعانى للألوسى ١٦/٩٥-٩٦ باختصار .

(٢) الكشاف ٢/٤١١ .

(٣) سورة الصافات الآية ٣٧ .

(٤) سورة الشعراء الآية ٨٤ .

(٥) سورة مريم الآية ٥٤ .

" وهذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام - ووالد عرب الحجاز كلهم - بأنه كان صادق الوعد قال ابن جريج: لم يعد ربه عدة إلا أنجزها يعنى ما التزم عبادة قط بنذر إلا ما قام بها ووفاها حقها . وقيل : إن إسماعيل -عليه السلام- وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه فيه فجاءه ونسى الرجل فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد فقال : ما برحتى من ههنا ؟ قال : لا . قال : إنى نسيت. قال : لم أكن لأبرح حتى يأتين . فلذلك كان صادق الوعد ... وقال بعضهم : إنما قيل له صادق الوعد لأنه قال لأبيه ﴿**ستجدنى إن شاء الله من الصابرين**﴾[1] فصدق فى ذلك[2] .

فصدق الوعد من الصفات الحميدة كما أن خلفه من الصفات الذميمة قال تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالاتفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالاتفعلون**﴾[3] .

ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل -عليه السلام- بصدق الوعد . وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً ولايعد أحداً شيئاً إلا وفى له به ... ولما توفى النبى ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتنى أنجز له فجاءه جابر بن عبد الله رضي الله عنه فقال : إن رسول الله ﷺ قد قال لو كان جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا يعنى ملء كفيه فلما جاء مال

---

(١) سورة الصافات الآية ١٠٢ .

(٢) راجع تفسير القرطبى ١١/٧٧ بتصرف .

(٣) سورة الصف الآيتان ٢،٣ .

البحرين أمر الصديق جابراً -رضى الله عنهما- فغرف بيده من المال ثم أمره بعده فإذا هو خمسمائة درهم فأعطاه مثليها معها"[1] .

٣- صدق سيدنا إدريس -عليه السلام- : قال تعالى:﴿**واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً**﴾[2] .

"وصف المولى عزوجل إدريس -عليه السلام- بالصدق كما وصف إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- ، وإدريس كان نبى قبل أنبياء بنى إسرائيل فقال صديقاً أى مبالغاً فى الصدق"[3] .

٤- صدق سيدنا يوسف -عليه السلام- : قال تعالى:﴿**يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون**﴾[4] .

قوله : "الصديق" أى : الكثير الصدق أو البليغ الصدق ووصفه بهذه الصفة لأنه لم يجرب عليه كذباً وقيل : لأنه تعرف صدقه فى تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاءت كما أوّل .

٥- صدق سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين:

لقد كانت صفة الصدق هى أشهر صفاته - ﷺ - بين قومه فقد اشتهر بينهم بلقب الصادق الأمين وكانوا لاينادونه إلا بهذا اللقب حتى

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٢٣/٣ بتصرف .

(٢) سورة مريم الآية ٥٦ .

(٣) راجع هذا فى تفسير القرطبى ٧٨/١١ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٢٤/٣ بتصرف .

(٤) سورة يوسف الآية ٤٦ .

أن السيدة خديجة بنت خويلد -رضى الله عنها- لم تتزوج رسول الله ﷺ إلا بعد ما سمعت عن صدقه وأمانته ولذلك قالت له عندما نزل عليه الوحى لأول مرة وذهب إليها يرتجف فيما روته السيدة عائشة -رضى الله تعالى عنها- قالت : "أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء وكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه : وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله يتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فاجأه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال:**﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم﴾**[1] .

فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة -رضى الله عنهما- فقال : زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع قال لخديجة أى خديجة مالى لقد خشيت على نفسى فأخبرها الخبر قالت خديجة : أبشر فوالله مايخزيك الله أبداً ، فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضعيف، وتعين على نوائب الحق ..."[2]

---

(١) سورة العلق الآيات ١-٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب : التفسير . باب : تفسير سورة إقرأ باسم ربك الذى خلق ٨/٧١٥ من الفتح .

ونجده ﷺ اتخذ من صدقه بين قومه دليلا على صدق دعـوى النبـوة واثباتها فقد روى ابن عباس ﷺ قـال : **﴿لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين﴾**[1] . صعد النبى ﷺ على الصفا فجعل ينـادى : يـابنى فهـر ، يابنى عدى - لبطون قريش - حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر مـاهو فجاء أبو لهب وقريش ، فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقـى، قالوا : نعم. ماجربنا عليك إلا صدقاً !!

قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد .

فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟

فنزلت : **﴿تبت يـدا أبـى لهـب وتـب مـا أغنـى عنـه مالـه ومـا كسب﴾**[2]"[3] .

ومن هنا فقد أجمعت قريش كلها على صدقه ﷺ المسلم منهـم والـذى ظل على كفره - فمثال من شهد له بالصدق ممن أسلموا أبو سفيان بـن حرب وذلك عندما التقى بهرقل ملك الروم" حين قال هرقـل لركـب مـن قريش أيكم أقرب نسـب بهـذا الرجـل الـذى يزعـم أنـه نبـى ؟ فقـال أبـو

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ٢١٤ .

(٢) سورة المسد الآآيتان ٢،١ .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب : التفسير . باب : وأنذر عشيرتك الأقربيـن ٥٠١/٨ من الفتح بلفظه ، والإمام أحمد بن حنبل فى مسنده ٣٠٧/١ طبعـة دار صادر بيروت .

سفيان : أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم إنى سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبوه .. ثم سأله عدة أسئلة منها قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ... ثم علق على إجابة أبى سفيان وكان مما جاء فى كلامه (وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقال : لا . فقال هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله"[1] .

وقد شهد لرسول الله ﷺ بالصدق أيضاً أعداؤه من الكفار " فقد التقى الأخنس بن شريق بأبى جهل يوم بدر ، فقال له : ياأبا الحكم ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا ، أخبرنى عن محمد صادق أم كاذب . فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب قط !!"[2]

وأعظم مظهر من مظاهر صدقه عليه الصلاة والسلام هو تبليغ كل ما أوحى إليه من ربه ، إذ لو لم يكن صادقاً لكتم بعضه مما فيه عتاب له . مثل قوله تعالى:﴿**عبس وتولى**﴾[3] وقوله:﴿**عفا الله عنك لم أذنت لهم**﴾[4] وقوله:﴿**وتخفى فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه**﴾[5] وقد قال تعالى :﴿**ولو تقول علينا بعض**

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب : بدء الوحى .باب :-كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ ٧٣/١-٧٤ من الفتح .

(٢) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ١٠٥/١ طبعة دار التراث .

(٣) سورة عبس الآية ١ .

(٤) سورة االتوبة الآية ٤٣ .

(٥) سورة الأحزاب الآية ٣٧ .

الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾[1] .

وكيف لايتصف رسول الله ﷺ بالصدق وقد وصفه المولى تبارك وتعالى بأنه على خلق عظيم قال تعالى:**﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**[2] .

الأمر بالصدق

إن الصدق خصال الإنسان وأوضح دلائل الإيمان وبه تمام المكارم والفضائل وهو ركن وثيق من أركان الدين وعلامة صادقة لأولياء الله المتقين من أجل هذا كله أمرنا المولى عزوجل باتباع الصدق وجعله صفة ملازمة لنا فعلينا أن نكون صادقين مع الله أولاً ثم مع أنفسنا ثم مع الآخرين .

أولاً : الأمر بالصدق مع الله تبارك وتعالى :

فعلى كل مسلم أن يكون صادقاً فى أعماله التى يؤديها وأن تكون خالصة لوجه الله تعالى ومن هنا يكون الإنسان فى هذه الحالة صادقاً مع الله قال تعال:**﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلاً﴾**[3]

قال المراغى[4] : "وصف الله بعض الكمله من المؤمنين الذين صدقوا عند اللقاء ، واحتملوا البأساء والضراء فقال :(من المؤمنين

---

(١) سورة الحاقة الآيات ٤٤-٤٧ .

(٢) سورة القلم الآية ٤ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٢٣ .

(٤) تفسير المراغى ١٤٧/٢١ .

رجال صدقوا ...) أى ومن المؤمنين بالله تعالى ، المصدقين برسوله عليه الصلاة والسلام ، رجال أوفوا بما عاهدوا الله عليه من الصبر فى اللأواء وحين البأساء ، فاستُشْهِدَ بعضٌ يوم بدر ، وبعضٌ يوم أحد ، وبعض فى غير هذه المواطن ، ومنهم من ينتظر قضاءه والفراغ منه كما قضى من مضى منهم على الوفاء لله بعهده وما غيروه ومابدلوه".

قال الفخر الرازى[1] : "هذا إشارة إلى وفائهم بعهدهم الذى عاهدوا الله تعالى عليه أنهم لايفارقون نبيه إلا بالموت فمنهم من قضى نحبه أى قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب : النذر ، ومنهم من هو بعد فى القتال ينتظر الشهادة وفاءاً بالعهد ومابدلوا تبديلاً بخلاف المنافقين فإنهم قالوا لانولى الأدبار فبدلوا قولهم وولوا أدبارهم " .

" والمعنى من المؤمنين رجال كثيرون ، وفوا أكمل وفاء بما عاهدوا الله تعالى عليه من التأييد لرسوله ﷺ من الثبات معه فى كل موطن .

فمنهم من قضى نحبه أى منهم من وفى بوعده حتى أدركه أجله فمات شهيداً كحمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير رضى الله عنهما وغيرهما .

ومنهم من ينتظر " أى ومنهم من هو مستمر على الوفاء ، وينتظر الشهادة فى سبيل الله تعالى فى الوقت الذى يريده سبحانه ويختاره كبقية الصحابة الذين نزلت هذه الآية وهم مازالوا على قيد الحياة "[2]

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٥/٢٠٣ .

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور / محمد سيد طنطاوى -شيخ الأزهر- ٢١/٤٨ .

فالعبد إذا صدق الله ﷺ وجزاه خير الجزاء فمن هنا كان الصادق ملزماً بإخلاص العقد لله عزوجل لأن الله تعالى لايرضيه من عبده إلا ذلك .

ثانياً : الصدق مع النفس :

إن الإنسان المسلم إذا صدق مع الله وأصبحت جميع أفعاله ابتغاء مرضاة الله ورضوانه تعالى ، بالطبع سيكون صادقاً مع نفسه لأنه سيعلم أن الله مطلع عليه فى كل وقت وفى كل عمل ومن هنا سيراقب الإنسان نفسه ولن يفعل إلا ما يرضى الله تبارك وتعالى وتكون نفسه مطمئنة دائماً .

وإطمئنان النفس لن يأتى إلا من فعل الخير مع الصدق فيه وإخلاصه لله تعالى فإن المؤمن فى هذه الحالة لن يخدع نفسه ويكذبها بل سيكون صادقاً معها ولهذا ستطمأن نفسه لوعد الله لأنها نفذت أوامره بصدق وهذا سيؤدى إلى دخول الجنة قال تعالى:﴿**ياأيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك * راضية مرضية * فادخلى فى عبادى * وادخلى جنتى**﴾[1] .

قال الصابونى[2]: " ياأيتها النفس الطاهرة الزكية ، المطمئنة بوعد الله التى لايلحقها اليوم خوف ولافزع ارجعى إلى رضوان ربك وجنته".

راضية بما أعطاك الله من النعم ، مرضية عنده بما قدمت من عمل. قال المفسرون : هذا الخطاب والنداء يكون عند الموت فيقال للمؤمن

---

(١) سورة الفجر الآيات ٢٧-٣٠ .

(٢) صفوة التفاسير ٣/٥٥٩ .

عند احتضاره تلك المقالة " فادخلى في عبادى" أى فادخلى فى زمرة عبادى الصالحين " وادخلى جنتى " أى وادخلى جنتى دار الأبرار الصالحين " أ.هـ

فعلى الأنسان أن يكون صادقاً مع نفسه ويخلص عمله لله تعالى .

الثالث : الصدق مع الآخرين :

الصدق رأس الفضائل به يرتقى المجتمع ويرتفع بخلاف الكذب فإنه رأس الرذائل وبه يتصدع بناء المجتمع ، ويختل سير الأمور ويسقط صاحبه من العيون ، ولايصدقونه فى قول ولايثقون به فى عمل ولا يحبون له مجلساً ، أحاديثه منبوذة ، وشهادته مردودة .

فإن الذى يقول الكذب ليقتطع حقوق عباد الله أو يتهمهم فى أعراضهم أو يؤذيهم فى أنفسهم لأضر على نفسه وعلى المجتمع الإنسانى من كل ما يضر الإنسانية ويؤلمها وقد عرض نفسه بهذا إلى غضب الله ومقته وكان سبباً فى بث الفوضى وفى ذلك خطر عظيم وبلاء شديد ولذلك أمرنا الله تعالى بالصدق مع بعضنا البعض فى كل شىء قال تعالى :**﴿ياأيها الذين إمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾**[1] .

فعلى المؤمن أن يكون صادقاً مع جميع البشر المسلمين وغيرهم لأن هذا يصلح أعمال الإنسان ويغفر له ذنوبه .

قال تعالى:**﴿ياأيها الذين إمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾**[2] .

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٩ .

(٢) سورة الأحزاب الآيتان ٧٠،٧١ .

ونجد رسولنا الكريم ﷺ أيضاً يحث المؤمنين ويأمرهم فى أحاديثه بالصدق مع الآخرين حتى يكون المجتمع صالحاً مفيداً فقد أمرنا بالصدق فى كل شىء وفى كل المعاملات من بيع وشراء وزواج وغيرها من المعاملات التى يقوم عليها بناء المجتمع فإن الزواج مثلاً إن لم يقم على الصدق من البداية فلن يكون زواجاً مستقيماً ناجحاً لأنه سيكون مبنى على الغش والخداع وكذلك فى البيع والشراء فإن التاجر إذا صدق وفر على المشترى قدراً من الزمن يضيع فى المساومة وجزءاً من ماله كان ذاهباً بغير حق لو كذب عليه فى قيمة المبيع ، وبذلك يقبل عليه المشترون إقبالاً عظيماً متى علموا منه ذلك الخُلق الفاضل فيتبادلون المنفعة ولذلك قال رسول الله ﷺ " البيعان بالخيار مالم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما"[1]

ولم يأمرنا رسول الله ﷺ بالصدق مع الكبار فقط بل امتد أمره ﷺ به إلى الصغار حتى ينشأوا تنشأة حسنة مبنية على الصدق ، لأن الأطفال هم بناء المجتمع وأساسه الذى سيبنى عليه ومن ذلك مارواه أحد الصحابة قال دعتنى أمى يوماً ورسول الله ﷺ قاعداً فى بيتنا فقالت هاتعال أعطيك شيئاً فقال لها رسول الله ﷺ " ما أردت أن تعطيه قالت أردت أن أعطيه تمراً فقال ﷺ إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة"[2] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب : البيوع باب : الصدق فى البيع ١١٥٤/٣ - بشرح النووى .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب : الدعاء . باب : الدعاء بالعفو والعافية ١٨٠/٢ .

فعلى الإنسان المسلم أن يلتزم الصدق كما التزم به المسلمون الأوائل وفتحوا به وبغيره من الصفات الحميدة العالم كله وجذبوا الناس إلى الإسلام بهذه الصفات وعلى رأسها الصدق لأنه أساسها .

قال سفيان الثورى لبعض أصحابه : يا أخى ، عليك بتقوى الله وصدق اللسان ، فإنه ما أوتى العبد شيئاً فى الدنيا أحسن من لسان صادق .

ثمرات الصدق

لكل صفة وخصلة حميدة ثمرات تنتج عن العمل بها وللصدق ثمرات دنيوية وثمرات أخروية يجنيها الصادقون .

أولاً : الثمرات الدنيوية وتتمثل فيما يلى :

١- راحة الضمير وطمأنينة النفس قال رسول الله ﷺ : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة"(١) .

٢- البركة فى الكسب وزيادة الخير لقول الرسول ﷺ " البيعان بالخيار مالم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما وإن كتما وكذبا، محقت بركة بيعهما "(٢)

٣- النجاة من المكروه ، فقد ينجى الصدق صاحبه مما يكره ومن هذا ماروى أن هارباً لجأ إلى أحد الصالحين وقال له : أخفنى عن

---

(١) رياض الصالحين للإمام محى الدين النووى - باب : الصدق ص ٣٠ وقال: " رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح" .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب : البيوع . باب : الصدق فى البيع ١١٥٤/٣ . بشرح النووى .

طالبى، فقال له : نم هنا ، وألقى عليه حزمة من خوصه ، فلما جاء طالبوه وسألوا عنه قال لهم : هاه ذا تحت الخوص . فظنوا أنه يسخر منهم فتركوه ونجا ببركة صدق الرجل الصالح .

وما حكى أيضاً من أن رجل أوصته أمه بأن لايكذب فسافر فقابله قطاع طرق وقالوا له : كم معك ؟ فقال لهم عن مامعه بكل صدق فسألوه عن ذلك فقال لهم : أوصتنى أمى بألا أكذب ، فلم أكذب فاهتدوا على يديه ببركة صدقه وعزموا ألا يعودوا إلى فعل الفحشاء.

لذلك قال رسول الله ﷺ : " تحروا الصدق وإن رأيتم أن فيه الهلكة، فإن فيه النجاة ، واجتنبوا الكذب ، وإن رأيتم فيه النجاة ، فإن فيه الهلكة"(١) .

٤- أن الإنسان إذا صدق فى عقيدته أدى ذلك إلى إخلاصه لله فى العبادة وانقياده له وامتثاله لأوامره واجتناب نواهيه .

٥- أن الصدق فى الأقوال يتأدى بصاحبه إلى الصدق فى الأعمال والصلاح فى الأحوال .

قال تعالى:﴿**يايأيها الذين إمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً**﴾(٢) .

---

(١) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين المتقى الهندى ٣/٣٤٤ - الطبعة الخامسة مؤسسة الرسالة - بيروت .

(٢) سورة الاحزاب الآيتان ٧٠-٧١ .

٦- أن نجاح الأمم فى أداء رسالتها يعود إلى مايقدمه أبناؤها من أعمال صادقة فإن كانت ثروتها من صدق العمل كبيرة ، سبقت سبقاً بعيداً وإلاسقطت وانهارت .

٧- أن الله تبارك وتعالى يثبت الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته .

٨-ويكفى الصادق فخراً أن الله تبارك وتعالى فى كتابه الكريم أعلن أنه يعلم الصادق من الكاذب ويشهد الناس على الصادق وعلى الكاذب قال تعالى : **﴿فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾**(١)

قال الزمخشرى(٢) : " والمعنى : وليتميزن الصادق منهم من الكاذب. ويجوز أن يكون وعداً ووعيداً كأنه قال : وليثيبن الذين صدقوا وليعاقبن الكاذبين وقرأ على ﷺ والزهرى وليعلمن من الإعلام ، أى : وليعرفنهم اللهُ الناس من هم . أو يسمنهم بعلامة يعرفون بها من بياض الوجوه وسوادها ، وكحل العيون وزرقتها " .

٩- أن الصدق يهدى الإنسان إلى البر حتى إذا داوم عليه الإنسان كتب عند الله صديقاً قال رسول الله ﷺ :" عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ومايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ومازال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً "(٣) .

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٣ .

(٢) الكشاف ١٨٣/٣ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب : البر والصلة والآداب .باب: تحريم الكذب وبيان مايباح منه ١٥٩/١٦ بشرح النووى .

ثانياً : الثمرات الأخروية :

إن لكل صفة حميدة نبيلة أمربها المولى عزوجل عباده المؤمنين جزاءً أخروياً واسعاً جزيلاً عنده تبارك وتعالى ولقد أعد الله لعباده الصادقين جزاءً أخروياً كبيراً تحدث عنه سبحانه فى بعض آياته ، وذكره نبينا محمد ﷺ فى بعض من أحاديثه ، ومن هذا الجزاء أو هذه الثمرات مايلى :

١- أن هذا الصدق سينفعهم يوم القيامة لأن الله سيدخلهم جنات يخلدون فيها أبداً قال تعالى:﴿**قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم**﴾[1]

قال الفخر الرازى[2] : "أجمع العلماء على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة والمعنى : أن صدقهم فى الدنيا ينفعهم فى القيامة ، والدليل على أن المراد ماذكرنا : أن صدق الكفار فى القيامة لاينفعهم ألا ترى أن إبليس قال : ﴿**إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم**﴾[3] فلم ينفعه هذا الصدق " .

٢- ومن ثمرات الصدق الآخروية أن الله جعلهم أحسن الرفقاء فى الجنة ورفعهم إلى مكان الذين أنعم الله عليهم من النبين والصالحين والشهداء قال تعالى:﴿**ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم**

---

(١) سورة المائدة الآية ١١٩ .

(٢) مفاتيح الغيب ١٢/١٣٧-١٣٨ .

(٣) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾[1] .

٣- أيضاً من ثمرات الصدق الأخروية ما أعده الله لعباده الصادقين من الأجر الكبير والنور الهائل العظيم قال تعالى:**﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بأياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾**[2] .

٤- وأيضاً من ثمرات الصدق الأخروية أنه ضمان للجنة قال رسول الله ﷺ :" اضمنوا لى ستاً أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم - وأوفوا إذا عاهدتم - وأدوا إذا إئتمنتم - واحفظوا فروجكم - وغضوا أبصاركم - وكفوا أيديكم"[3] .

ففى هذا الحديث يبين الرسول ﷺ أنه من ضمن الأشياء التى تضمن دخول الجنة الصدق .

٥- أنه مع البررة والأبرار فى الجنة قال تعالى : **﴿إن الأبرار * لفى نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف فى وجوهم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون﴾**[4] .

---

(١) سورة النساء الآية ٦٩ .

(٢) سورة الحديد الآية ١٩ .

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه فى كتاب : البر والإحسان . باب : الصدق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٢٤٥/١ .

(٤) سورة المطففين الآيات ٢٢-٤٧ .

٦- أيضاً من ثمراته الأخروية أن الصادق سيكون ممن سار على نهج رسول الله ﷺ وسوف يرد الحوض قال رسول الله ﷺ :" إنه سيكون بعدى أمراء فمن دخل عليهم بكذبهم - واعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منهم ولايرد على الحوض - ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعينهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه وسيرد على الحوض"[١]

٧- أن الله تعالى ذكر الصدق ضمن صفات الذين أعد لهم المغفرة والأجر العظيم فقال تعالى : ﴿**إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾[٢]

قال الزمخشرى[٣] : "الصادق : الذى يصدق فى نيته وقوله وعمله. فكأن معنى الآية إن الجامعين والجامعات لهذه الطاعات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً " .

هذا ... وأسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الصدق إنه نعم المولى ونعم المجيب .

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه كتاب : البر والإحسان . باب : الصدق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٢٩٠/١ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٥ .

(٣) الكشاف ٢٣٦/٣ .

الموضوع الثالث
الوفاء بالعهد

تمهيد :

فقد راعنى وأحزننى ما أراه اليوم من حيل خبيثة وغدر وخيانة الناس بعضهم لبعض ، وعدم التزامهم بالعهود والمواثيق التى ألزموا بها أنفسهم وعاهدوا الله تعالى على الوفاء بها ، وسرعان ما يحلون أنفسهم من هذه العهود ويخونون الله ويغدرون بالناس ، ونسوا أمر الله تعالى ﴿**وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا**﴾[١] ، وتحذير الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - من عدم الوفاء بالعهد يقول النبىﷺ : "آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان"[٢].

أيضا من الأسباب التى دفعتنى إلى الكتابة فى هذا الخُلق ما نشاهده ونسمعه ونقرأه فى وسائل الإعلام ما يقوم به اليهود الإسرائيليون من حيل خبيثة للتنصل ونقد العهود التى ألزموا بها أنفسهم فى مؤتمر "مدريد" واتفاقية "اوسلو" وعدم اذعانهم لكل الجهود التى تبذل الأن من أجل التوصل إلى السلام العادل . فعدت بذاكرتى إلى حديث القرآن عنهم فى قوله تعالى : ﴿**أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون**﴾[٣] فتأكدت بأن هذه ديدنتهم وطباعهم التى جبلوا عليها فى كل العصور ومع كل الأنبياء .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٤ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) سورة البقرة الآية ٣٤ .

فما يفعلـوه اليوم ليس بجديد عليهم بل جبلوا عليه وتوارثوه من أسلافهم فأين هذا من خلق الوفاء بالعهد الذى جاءنا به الإسلام وتخلّق به المسلمون ، وفى الذروة منهم رسول الله ﷺ .

لذا كان لزاماً علىَّ أن أتطرق إلى بيان المراد بالعهد ، وعهد اللَّه إلى رسله وعهده إلى بنى آدم ، والعهود بين الرسول ﷺ وبين اليهود والمشركين وخسةَ ودناءة اليهود .

أسأل الله تعالى أن يرد كيدهم فى نحرهم وأن ينصر الإسلام والمسلمين إنه نعم المولى ونعم النصير .

المراد بالعهد

العهد : اتفاق بين طرفين يلتزم بمقتضاه كل منهما تنفيذ ما اتفقا عليه كعقد البيع والزواج(1) .

وهو كل ما عُوهد الله عليه ، وكل ما بين العباد من المواثيق فهو عهد ، وكذلك كل ما أمر الله به ونهى عنه .

وفى حديث الدعاء : وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أى أنا مقيم على ما عاهدتك عليه من الإيمان بك والإقرار بوحدانيتك لا أزول عنه ، واستثنى بقوله : ما استطعت موضع القدر السابق فى أمره . أى إن كان قد جرى القضاء أن أنقض العهد يوما فإنى أخلد عند ذلك إلى التنصل والاعتذار ، لعدم الإستطاعة فى دفع ما قضيته علىَّ ، وقيل : معناه إنى متمسك بما عهدته إلىّ من أمرك ونهيك .

---

(1) مجمع اللغة ص٤٢٧ ط ١٩٩١م .

ويقال : عَهَدَ إليّ فى كذا أى أوصانى ، ومنه قوله عز وجل ﴿ألم أعهد إليكم يا بنى آدم﴾ يعنى الوصية والأمر .

والعهد : الموثق واليمين يحلف بها الرجل . تقول : علىَّ عهد الله وميثاقه ، وأخذت عليه عهد الله وميثاقه ، ومنه قوله تعالى : **﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾**(1) .

والعهد أيضا : الوفاء ، وفى التنزيل : **﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾**(2) أى من وفاء(3) .

والوفاء به : القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانون المرضى .

قال تعالى : **﴿إن العهد كان مسئولا﴾**(4) أى إن الله سائل ناقض العهد عن نقضه إياه،فيُقال للناكث له على سبيل التبكيت والتوبيخ لم نكثت عهدك ؟ وهلا وفيت به .

والهدنة ، والمعاهدة ، والصلح بمعنى واحد . فقد هادن ، وعاهد وصالح رسول الله ﷺ .

أ - الهدنة :

يجوز عقد الهدنة مع المحاربين ، إذا كان فى ذلك تحقيق مصلحة محققة للمسلمين . فقد هادن ﷺ فى حروبه كثيراً من المحاربين ، ومن ذلك مهادنته ليهود المدينة عند نزوله بها، حتى نقضوها وغدروا به ﷺ. فقاتلهم وأجلاهم عنها .

---

(1) سورة النحل الآية ٩١ .

(2) سورة الأعراف الآية ١٠٢ .

(3) لسان العرب لابن منظور ٣١١/٣ بتصرف .

(4) سورة الإسراء الآية ٣٤ .

ب - المعاهدة :

يجوز عقد معاهدة عدم اعتداء وحسن جوار بين المسلمين وأعدائهم ، إذا كان ذلك محققاً لمصلحة راجحة للمسلمين ، فقد عقد رسول الله ﷺ المعاهدات وكان يقول : "نفى لهم بعهدهم ، ونستعين الله عليهم"(١) قال تعالى : ﴿**إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين**﴾(٢) . وحرم رسول الله ﷺ قتل المعاهد فقال : "من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة"(٣) . وقال ﷺ : "إنى لا أخيس ولا أحبس البرد"(٤) .

ج - الصلح :

يجوز للمسلمين أن يصالحوا من أعدائهم من شاؤوا ، إذا اضطروا إلى ذلك ، وكان الصلح يحقق لهم فوائد لم يحصلوا عليها بدونه ، فقد صالح النبى ﷺ أهل مكة صلح الحديبية ، كما صالح أهل نجران على أموال يؤدونها ، وصالح أهل البحرين على أن يدفعوا له جزية معينة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه .

(٢) سورة التوبة الآية ٧ .

(٣) أخرجه البخارى . باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب ٧٩/٧ من الفتح .

(٤) أخرجه أبو داود ٨٣/٣ . ومعنى لا أخيس : أى لا أنقض العهد . والبُرُد : الرسل .

أولاً عهد الله إلى أنبيائه

تمهيد :

لقد أخذ اللّه تعالى الميثاق على النبيين عامة ، والنبى ﷺ وأولى العزم من الرسل خاصة ، أن يعبدوا اللّه ويحملوا أمانة هذا المنهج الربانى والإستقامة عليه وتبليغه للناس ، والقيام عليه فى الأمم التى أرسلوا إليها ؛ وذلك حتى يكون الناس مسؤولين عن هداهم وضلالهم وإيمانهم وكفرهم ، بعد إنقطاع الحجة بتبليغ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه قال تعالى : ﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ، ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً**﴾[1] .

إنه ميثاق واحد مطرد من لدن نوح –عليه السلام– إلى خاتم النبيين محمد ﷺ ميثاق واحد ، ومنهج واحد ، وأمانة واحدة يتسلمها كل منهم حتى يسلمها .

وقد عمم أولاً فقال : "وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم" من خصص صاحب القرآن الكريم وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين : (ومنك) وتقديم ذكر نبينا ﷺ مع تأخر زمانه لما فيه من التشريف له والتعظيم مالا يخفى ثم عاد إلى أولى العزم من الرسل ، وهم أصحاب أكبر الرسالات –قبل الرسالة الأخيرة– (ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٧ .

وقد وصف اللّه تعالى هذا الميثاق بأنه غليظ فقال : ﴿**وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً**﴾ ووصف الميثاق بأنه غليظ فقد استخدم الأصل اللغوى للفظ الميثاق – وهو الحبل المفتول – الذى أستعير للعهد والرابطة ، وفيه تجسيم للمعنوى .

قال الزجاج : "وأخذ الميثاق حيث أخرجوا من صلب آدم كالذر"[1].

لذا سأبدأ –بمشيئة الله– بعهد الله إلى آدم –عليه السلام– بإعتباره أبو الأنبياء ثم عهده تعالى إلى بنى آدم عامة وذلك فى قوله تعالى : ﴿**وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا**﴾[2] .

ثم عهده تعالى إلى أنبيائه نوح وإبراهيم وموسى وعيسى –عليهم السلام– وأختم بمسك الأنبياء وخاتم الرسل محمد ﷺ قال تعالى ﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً**﴾[3] .

١- عهد الله إلى آدم :

لقد عهد الله تعالى إلى آدم عليه السلام ووصاه بأن إبليس عدو له ولزوجه ، ولكن آدم ترك العهد الذى أمره به اللّه تعالى ، ولم يهتم بالعمل به قال تعالى : ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما**﴾[4] أى لقد أمرناه ووصيناه ، والمعهود محذوف ، وهو نهيه عن

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٤/٢٦٤ .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .
(٣) سورة الأحزاب الآية ٧ .
(٤) سورة طه الآية ١١٥ .

الأكل من الشجرة قال تعالى : ﴿**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾[1] .

قال الشوكانى[2] : "وقد كان آدم عليه السلام قد وطن نفسه على أن لا يأكل من الشجرة وصمم على ذلك . فلما وسوس إليه إبليس لانت عريكته وفتر عزمه وأدركه ضعف البشر" .

ماهو عهد الله إلى آدم ؟

١- أرشد الله تعالى آدم ونصحه بعدم طاعة إبليس فيما يأمره به . وبين لآدم عداوة إبليس له ولزوجه قال تعالى : ﴿**فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك**﴾[3] ، ومن ثم لم يسجد لك حين أمرته فلا تطيعاه فيما يأمركما به .

٢- بين لآدم أن ابليس سيكونن سببا لإخراجهما -آدم وحواء- من الجنة . قال تعالى : ﴿**فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى**﴾[4] .

٣- أمر سبحانه آدم وزوجته بسكنى الجنة والتمتع بما فيها قال تعالى: ﴿**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما**﴾ أى : كلا منها أكلا هنيئاً من أى مكان شئتما ولكن نهاهما أن يأكلا من شجرة معينة ، وأعلمهما أن القرب منها ظلم لأنفسهما .

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٥ .

(٢) فتح القدير ٣٨٩/٣ .

(٣) سورة طه الآية ١١٧ .

(٤) سورة طه الآية ١١٧ .

قال تعالى : ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾[1] . لم يبين لنا ربنا هذه الشجرة ، فلا نستطيع أن نعينها من تلقاء أنفسنا بلا دليل قاطع، ولكنا نقول إن النهى كان لحكمة كأن يكون فى أكلها ضرر أو يكون ذلك ابتلاء من الله لآدم واختباراً له ، ليظهر به ما فى استعداد الإنسان من الميل إلى معرفة الأشياء واختبارها ، ولو كان ذلك معصية يترتب عليها ضرر .

معصية آدم عليه السلام :

بعد أن بين سبحانه شدة عداوة إبليس لآدم بين أنه قبل نصحه وأكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها فقال : ﴿**فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى**﴾[2] .

كما وسوس لهما بقوله : ﴿**ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين**﴾[3] ثم أقسم لهما فقال : ﴿**إنى لكما لمن الناصحين**﴾[4] .

ولقد صدق آدم وحواء إبليس اللعين وخال عليهما كلامه وقسمه وضعفا عندما وسوس لهما فأكلا من الشجرة قال تعالى : ﴿**فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة**﴾[5] أى : فأكلا آدم وحواء من الشجرة التى نهيا عن الأكل منها وأطاعا ابليس

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٥ .

(٢) سورة طه الآية ١٢٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٢١ .

(٥) سورة طه الآية ١٢١ .

وخالفا أمر ربهمـا فانكشفت عورتهمـا وكـانت مستورة عن أعينهمـا . فشرعا يلزقان ورق التين عليهما ليغطيا جسمهما .

﴿وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾(١) .

شبهة حول عصمة الأنبياء

قد يقول قائل : كيف يكون الأنبياء معصومين ، مع أن القرآن الكريم قد أثبت لبعضهم بعض المخالفات ونسب إلى البعض الآخر منهم الذنب والمعصية فقال فى حق آدم : **﴿وعصى آدم به فغوى﴾** .

وللجواب على ذلك السؤال نقول

إن العصمـة للأنبيـاء ثابتـة كمـا دلـت علـى ذلـك النصـوص القرآنيـة الكريمة ، وكما قضى بذلك المنطق العلمى السليم . إذ كيف يأمر عز وجل البشر بإتباعهم والاقتداء بهم ، والسير على نهجهم إن لم يكونوا مثالا للكمال ، ونموذجا للفضل والنبل والطهر !! ولو لم تكن (العصمة) من صفاتهم لما كنا مكلفين بإتباعهم فى جميع الأعمال والأفعال !! .

أما ما ورد عن معصية آدم عليه السلام فالجواب عنها بطرق ثلاث.

١- أن المخالفة التى صدرت منه كانت قبل النبوة ، والعصمة إنما تكون عن مخالفة الأوامر بعدها .

٢- أن الذى وقع منه كان نسيانا ، فسمى عصيانا تعظيما لأمره . والنسيان والسهو لا ينافيان العصمة .

---

(١) سورة طه الآية ١٢٢ .

٣- أن ذلك من المتشابه كسائر ما جاء فى القصة ، مما لا يمكن حمله على ظاهره، ويجب تفويض أمره إلى الله كما هو رأى سلف الأمة.

وإنما كانت هذه المخالفة والمعصية قبل النبوة بدليل قوله تعالى ﴿**ثم اجتباه ربه**﴾ والاجتباه هو اصطفاء الله له بالرسالة ، فتكون المعصية قد وقعت من آدم عليه السلام قبل النبوة .

أما بالنسبة للقول الثانى وهو أن آدم عليه السلام إنما أكل من الشجرة ناسيا بدليل قوله تعالى : ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما**﴾ .

وقيل : إن آدم عليه السلام لما نهى عن الأكل من الشجرة بقوله تعالى ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة**﴾ ظن أن المراد عن هذه لا جنسها فأكل من شجرة أخرى من جنسها فخالف الأمر وكان ذلك باجتهاد منه ، لا عن سابق تعمد وإصرار على المخالفة .

وأقرب الأقوال فى هذا أن نقول : إن آدم أكل من الشجرة ناسيا ، والنسيان يرفع الإثم عن الفاعل كما قال -عليه الصلاة والسلام- : "رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"[١] .

وكما قال الله تعالى ﴿**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**﴾[٢] .. ولم يكن من آدم تعمد أو عزم منه على المعصية بدليل الآية التى ذكرناها ﴿**فنسى ولم نجد له عزما**﴾ ... وذلك ما اختاره القرطبى[٣] . أو نقول: إن المعصية وقعت منه قبل النبوة وذلك ما اختاره صاحب تفسير

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه . كتاب الطلاق .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٣) راجع تفسير القرطبى ١١/١٦٩ .

المنار[1] قال : "وأما مسألة عصمة آدم ، فالجرى على طريقة السلف يذهب بنا إلى أن العصيان والتوبة من المتشابه . كسائر ما ورد فى القصة . مما لا يركن العقل إلى ظاهره ، ولنا أن نقول : : إن تلك المخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة كما قال جل شأنه ﴿**فنسى ولم نجد له عزما**﴾ والإتفاق إنما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة ، وقد يكون الذى وقع من آدم نسيانا ، فسمى تفخيما لأمره عصيانا .. والنسيان والسهو مما لا ينافى العصمة .

إذ يتضح لنا من أقوال العلماء والمفسرين أن آدم عليه السلام لم يتعمد مخالفة أمر الله –عز وجل– ، وإنما أكل من الشجرة متأولا ، بطريق الاجتهاد ، أو ناسيا لأمر الله تبارك وتعالى ، فلا يجوز لنا أن نرميه بالعصيان ، مع أن ما وقع منه لم يكن إلا بسبب النسيان ، ولا أن نسيء الأدب ولا سيما بعد أن نزل القرآن بقوله تعالى ﴿**ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى**﴾ أى ثم اصطفاه ربه من بعد معصيته ، ورزقه التوبة والعمل بما يرضيه حين قال هو وزوجه : ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾[2] .

وأخيراً نقول : هذه حكمة الله تعالى وإرادته سبحانه كى يجعل الإنسان خليفة فى الأرض ويرسل الرسل والكتب فمن اتبع كتاب الله هداه الله تعالى من الضلالة فى الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة . ومن أعرض عن ذكر الله وتولى عنه أضله الله فى الدنيا وكان له عذاب جهنم فى الآخرة وبئس المصير .

---

(١) تفسير المنار ١/٣٨٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٣ .

٢- عهد الله على بنى آدم :

بعد أن أخذ الله تعالى العهد على آدم بعدم طاعة إبليس فيما يأمره به وما كان من آدم إلا أن نسى ما عهد الله به إليه وعصى ربه . لذا أمر سبحانه آدم وزوجه بالهبوط من الجنة **﴿قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو﴾**[١] بعد ذلك أخذ العهد على بنى آدم بأنه تعالى ربهم وأن لا إله غيره . فأقروا بذلك والتزموه قال تعالى **﴿وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾**[٢] .

قال ابن كثير[٣]: "يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى : **﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾**[٤] .

وفى الصحيحين عن ابى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة" وفى رواية : "على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء" .

---

(١) سورة طه الآية ١٢٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢ .

(٣) فى تفسير القرآن العظيم ٢/٢٥٠ .

(٤) سورة الروم من الآية ٣٠ .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ "يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم وحرمت عليه ما أحللت لهم" . أ.هـ .

وروى الترمذى وصححه عن أبى هريرة : إن رسول الله ﷺ قال : "لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا[(١)] من نور ، ثم عرضهم على آدم ، فقال : يا رب من هؤلاء قال: هؤلاء؟ ذريتك ، فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه ، فقال : أى رب من هذا ؟ فقال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود فقال : رب كم جعلت عمره ؟ قال : ستين سنة ، قال : أى رب زده من عمرى.أربعين سنة فلما قُضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال : أولم يبق من عمرى أربعون سنة ؟ قال : أولم تعطها ابنك داود؟ قال : فجحد آدم فجحدت ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته"[(٢)] .

موضع أخذ الميثاق :

قال القرطبى[(٣)] : "واختلف فى الموضع الذى أخذ فيه الميثاق حين أخرجوا على أربعة أقوال : فقال ابن عباس : ببطن نعمان ، واد إلى جنب عرفة . وروى عنه أن ذلك برهبا -أرض بالهند- الذى هبط فيه آدم عليه السلام . وقال يحى بن سلام قال ابن عباس فى هذه الآية :

---

(١) وبيصا : بريقا .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب تفسير القرآن . باب سورة الأعراف ٢٦٧/٥ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) تفسير القرطبى ٢٠٠/٧ - ٢٠١ .

اهبط الله آدم بالهند ، ثم مسح على ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، ثم قال : **﴿ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾** قال يحيى : قال الحسن : ثم أعادهم فى صلب آدم عليه السلام . وقال الكلبى : بين مكة والطائف . وقال السدى : فى السماء الدنيا حين أهبط من الجنة إليها مسح على ظهره فأخرج من صفحة ظهره اليمنى ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ ، فقال لهم ادخلوا الجنة برحمتى . وأخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرية سوداء وقال لهم ادخلوا النار ولا أبالى . قال ابن جريج : "خرجت كل نفس مخلوقة للجنة بيضاء ، وكل نفس مخلوقة للنار سوداء" أ.هـ .

٣- عهد الله إلى نوح عليه السلام :

يذكر المؤرخون أن نوحا عليه السلام هو أول الرسل إلى أهل الأرض ، ولكن ليس معنى ذلك أنه لم يسبقه بعثة أحد من الأنبياء قبله ، فشعيب وإدريس وآدم أنبياء وكلهم قد بعثوا قبله ، ولكنهم لم يكونوا رسلاً فهو بهذا الاعتبار أول رسول وليس أول نبى ، ومعلوم أن هناك فرقاً بين النبوة والرسالة ، فالرسول هو الذى أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، وأما النبى فهو الذى أوحى إليه بشرع ولكن لم يؤمر بتبليغه .

فكان أول رسول بعث بالإنذار والتخويف والدعوة إلى التوحيد ودين الإسلام وأصول الشرائع التى لم يختلف فيها الرسل وتوافقت عليها الكتب قال تعالى : **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ...﴾**[١] .

---

(١) سورة الشورى الآية ١٣ .

وقد أخذ نوح -عليه السلام- هذه الوصية وهذا العهد الذى عهد الله به إليه على أكمل ما يكون ، فقد مكث فى قومه تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى عبادة الله . فكان جهاده جهاد الأبطال ، ، وصبره صبر الجبال ، أوذى وعذب ، واضطهد وهو لم يكف عن تبليغ دعوة الله .

وقد استعمل المشركون معه صنوف الاستهزاء والبلاء ليصدوه عن دعوته فلم يجدوا منه إلا كل صبر وثبات . فكان من الأنبياء المقربين ومن أولى العزم الصابرين .

٤- عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام :

قال تعالى : ﴿**وعهدنا إلى إبراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود**﴾(١) أى : أمرنا أو أوحينا أو وصينا ابراهيم واسماعيل بتطهير البيت من كل رجس معنوى كالشرك بالله وعبادة الأصنام ، أو رجس حسى ، وهو التطهير من الأوثان . قال أبوحيان(٢) : "وذكروا أنه كان عامرا على عهد نوح ، وأنه كان فيه اصنام على أشكال صالحيهم ، وأنه طال العهد ، فعبدت من دون الله فأمر الله بتطهيره من تلك الأوثان ، قاله جبير ومجاهد وعطاء ومقاتل" أهـ .

وقيل المراد بالتطهير أى تطهيره من الآفات والريب ، وقيل من الكفارة ، وقيل من النجاسات وطواف الجنب والحائض وكل خبيث .

والظاهر أنه لا يختص بنوع من هذه الأنواع ، وأن كل ما يصدق على مسمى التطهير فهو يتناوله إما تناولا شموليا أو بدليا .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٥ .

(٢) فى البحر المحيط ٦١١/١ .

والإضافة فى قوله (بيتى) للتشريف والتكريم .

(والطائف) الذى يطوف به ، وقيل : الغريب الطارئ على مكة ، ويؤيده أنه ذكر بعده والعاكفين : هم أهل البلد الحرام المقيمون ، والمقيم مقابل المسافر . وأصل العكوف فى اللغة: اللزوم والإقبال على الشيء.

والمراد بقوله : **﴿الركع السجود﴾** المصلون ، وخص هذين الركنين بالذكر لأنهما أشرف أركان الصلاة .

وفى الآية إيماء إلى أن ابراهيم كان مأمورا هو ومن بعده بهذه العبادات .

وقد اختلف الناس فى أول من بنى الكعبة :

قال القرطبى : "قيل : الملائكة . روى هذا عن أبى جعفر الباقر محمد بن على بن الحسين قال : سئل أبى وأنا حاضر عن بدء خلق البيت فقال : إن الله عز وجل لما قال : **﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾**(1) قالت الملائكة : **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾**(2) فغضب ربهم عليه : فعاذوا بعرشه وطافوا حوله سبعة أشواط يسترضون ربهم حتى -رضى الله عنهم- ، وقال لهم : ابنوا لى بيتا فى الأرض يتعوذ به من سخطت عليه من بنى آدم ، ويطوف حوله كما طفتم حول عرشى ، فأرضى عنه كما رضيت عنكم ، فبنوا هذا البيت .

---

(1) سورة البقرة الآية ٣٠ .

(2) سورة البقرة الآية ٣٠ .

وذكر عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وابن المسيب وغيرهما : أن الله عز وجل أوحى إلى آدم : إذا هبطت ابن لى بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف بعرشى الذى فى السماء . قال قال عطاء : فزعم الناس أنه بناه من خمسة اجبل : حراء ، ومن طور سيناء ، ومن لبنان ، ومن الجودى ، ومن طور زيتا ؛ وكان رُبْضه من حراء . قال الخليل : والربض هاهنا الأساس المستدير بالبيت من الصخر .

وذكر الماوردى عن عطاء عن ابن عباس قال : لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض قال له : يا آدم ، اذهب فابن لى بيتا وطف به واذكرنى عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى ؛ فأقبل آدم يتخطى وطويت له الأرض ، وقبضت له المفازة ، فلا يقع قدمه على شيء من الأرض إلا صار عمرانا حتى انتهى إلى موضع البيت الحرام، وأن جبريل عليه السلام ضرب بجناحيه الأرض فأبرز عن أس ثابت على الأرض السابعة السفلى ، وقذفت إليه الملائكة بالصخر ، فما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلا ، وأنه بناه من خمسة أجبل كما ذكرنا. وفى رواية : أنه أهبط معه بيت فكان يطوف به والمؤمنون من ولده كذلك إلى زمان الغرق ، ثم رفعه الله فصار فى السماء ، وهو الذى يدعى البيت المعمور . روى هذا عن قتادة ذكره الحليمى فى كتاب "منهاج الدين" له ، وقال : يجوز أن يكون معنى ما قاله قتادة من أنه أهبط مع آدم بيت ، أى أهبط معه مقدار البيت المعمور طولا وعرضا وسمكا ، ثم قيل له : ابن بقدره ، وتحرى أن يكون بحياله ، فكان حياله موضع الكعبة ، فبناها فيه . فهذا بناء آدم عليه السلام ، ثم بناه إبراهيم عليه السلام . قال ابن جريج وقال ناس : أرسل الله سحابة

فيها رأس ؛ فقال الرأس : يا إبراهيم ، إن ربك يأمرك أن تأخذ بقدر هذه السحابة ؛ فجعل ينظر إليها ويخط قدرها ، ثم قال الرأس : إنه قد فعلت ، فحفر فأبرز عن أساس ثابت فى الأرض .

وروى عن على بن أبى طالب ﷺ : أن الله تعالى لما أمر إبراهيم بعمارة البيت خرج من الشام ومعه ابنه إسماعيل وأمه هاجر ، وبعث معه السكينة لها لسان تتكلم به يغدو معها إبراهيم إذا غدت ، ويروح معها إذا راحت ، حتى انتهت به إلى مكة ، فقالت لابراهيم : ابن على موضعى الأساس ، فرفع البيت هو وإسماعيل حتى انتهى إلى موضع الركن ، فقال لابنه : يا بنى ، ابغنى حجرا أجعله علما للناس ، فجاءه بحجر فلم يرضه ، وقال : ابغنى غيره فذهب يلتمس ، فجاءه وقد أتى بالركن فوضعه موضعه ، فقال : يا أبة ، من جاءك بهذا الحجر فقال : من لم يكلنى إليك .

وروى أن إبراهيم واسماعيل لما فرغا من بناء البيت أعطاهما الله الخيل جزاء عن رفع قواعد البيت . روى الترمذى الحكيم عن ابن عباس قال : كانت الخيل وحشا كسائر الوحش ، فلما أذن الله لابراهيم واسماعيل برفع القواعد قال الله تبارك اسمه : "**إنى معطيكما كنزا ادخرته لكما**" ثم أوحى إلى اسماعيل أن أخرج إلى أجياد فادع يأتك الكنز ، فخرج إلى أجياد - وكانت وطنا - ولا يدرى ما الدعاء ولا الكنز ، فألهمه ، فلم يبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا جاءته فأمكنته من نواصيها وذللها الله له ، فاركبوها واعلفوها فإنها ميامين وهى ميراث أبيكم اسماعيل ، فإنما سمى الفرس عربيا لأن اسماعيل أمر بالدعاء وإياه أتى .

وروى عن ابن عباس وكعب الأحبار وقتادة وعن وهب بن منبه أن أول من بناه شيث عليه السلام .

أما بالنسبة لبناء قريش له فمشهور . فعن معمر عن الزهرى قال : حتى إذا بنوها وبلغوا موضع الركن اختصمت قريش فى الركن ، أى القبائل تلى رفعه ؟ حتى شجر بينهم ؛ فقالوا : تعالوا نحكم أول من يطلع علينا من هذه السكة ، فاصطلحوا على ذلك . فأطلع عليه رسول الله ﷺ وهو غلام عليه وشاح نمرة ، فحكموه فأمر بالركن فوضع فى ثوب ، ثم أمر سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب . ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن ، فكان هو يضعه صلى الله عليه وسلم(١) . أ.هـ .

وغالبا ما ذكر من روايات فى هذا المقام أخذت من كتب أهل الكتاب وهى مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها ، وأما إذا صح حديث فى ذلك فعلى العين والرأس .

٥- عهد الله إلى موسى عليه السلام :

قال تعالى : ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إنى رسول رب العاملين فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون . وما نريهم من آية إلا وهى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون**﴾(٢) أى : ولقد بعثنا موسى ومعه الآيات والحجج الدالة على صدقه إلى فرعون وأشراف قومه فطالبوه بإحضار البينة الدالة على صدق دعواه كما فى قوله

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٢/٨٢-٨٤ بتصرف .

(٢) سورة الزخرف الآيات ٤٦-٥٠ .

تعالى: ﴿**فلما جاءهم بآياتنا إذا هم يضحكون**﴾ أى فلما جاءهم بالأدلة على صدق قوله فيما يدعوهم إليه من توحيد الله وترك عبادة الآلهة - إذا فرعون وقومه يضحكون من تلك المعجزات .

ثم قال تعالى : ﴿**وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها**﴾ أى كل واحدة من آيات موسى أكبر مما قبلها ، وأعظم قدراً مع كون التى قبلها عظيمة فى نفسها ، فما كان منهم إلا الكفر والعناد فكان عقابهم العذاب. ﴿**وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون**﴾ أى بسبب تكذيبهم بتلك الآيات أخذهم الله بالعذاب . وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿**ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات**﴾[1] و ﴿**فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون**﴾[2] .

ولما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات والدلالات الواضحات ظنوا أن ذلك من قبيل السحر (وقالوا ايها الساحر) .

قال القرطبى[3] : "نادوه بما كانوا ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم . وقيل : كانوا يسمون العلماء سحرة فنادوه بذلك على سبيل التعظيم . قال ابن عباس : "يا أيها الساحر" يا أيها العالم ، وكان

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٠ .

(٢) سورة الأعراف الايات من ١٣٣ - ١٣٥ .

(٣) تفسير القرطبى ٩٥/١٦ .

الساحر فيهم عظيما يوقرونه ؛ ولم يكن السحر صفة ذم . وقيل : يا أيها الذى غلبنا بسحره ؛ يقال : ساحرته فسحرته ؛ أى غلبته بالسحر ؛ كقول العرب : خاصمته فخصمته أى غلبته بالخصومة ، وفاضلته ففضلته ، ونحوها . ويحتمل أن يكون أرادوا به الساحر على الحقيقة على معنى الاستفهام ، فلم يلمهم على ذلك رجاء أن يؤمنوا .

خاطبوه بما تقدم له عندهم من التسمية بالساحر (ادع لنا ربك بما عهد عندك) وهنا يطالعنا سؤال ، ماهو عهد الله إلى موسى ؟

قيل : إن الله تعالى عهد إلى موسى كشف العذاب عن بنى اسرائيل إن هم آمنوا .

وقيل : أى بما استودعك من العلم .

وقيل : هذا قسم ، أى بعهده عندك أن تدعوا لنا[1] .

وقيل : المراد بالعهد النبوة ، وقيل : استجابة الدعوة على العموم[2] ويحتمل أن يكون المراد بالعهد كل هذه الأقوال .

ثم حكى القرآن قولهم ﴿**إنا لمهتدون**﴾ أى إذا كشف عنا العذاب الذى نزل بنا فنحن مهتدون فيما يستقبل من الزمان ، ومؤمنون بما جئت به .

ولكن ماذا حدث بعدما دعا موسى ربه فكشف عنهم العذاب ؟ كما هو معروف دائماً من نكث ونقض اليهود للعهود . فهذه دينتهم قال تعالى : ﴿**إذا هم ينكثون**﴾ أى ينقضون العهد الذى جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنون .

---

(١) انظر هذه الأقوال فى تفسير القرطبى ١٧٣/٧ ، ٩٥/١٦ .

(٢) فتح القدير للشوكانى ٥٥٩/٤ .

٦- عهد الله إلى عيسى عليه السلام :

لقد قام عيسى بن مريم عليه السلام بدعوة الناس إلى دين الحق الذى أوحاه الله إليه ، وقد أجرى الله على يد عيسى بن مريم المعجزات الباهرات تصديقا لنبوته وتأييدا لرسالته .

ولكن : فقد لقى السيد المسيح من اليهود تعنتا واستكباراً ، ولاقى أثناء دعوته أهوالاً وشدائد وخاصة من الكهنة فأجمعوا على قتله ، فطلبوه ليقتلوه فدلهم على مكانه رجل خائن يدعى (يهوذا الاسخربوطى)، فلما دخلوا المكان الذى فيه المسيح ألقى الله شبهه على ذلك الخائن فأخذوه وهم يظنونه عيسى عليه السلام فقتلوه وصلبوه ، ورفع الله سيدنا عيسى عليه السلام إليه قال تعالى : ﴿**وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك**﴾[1] . فهو الآن حى فى السماء عهد الله بأن يرفعه إليه بروحه وجسده ، وسينزل إلى الأرض ليتمم رسالته ويبلغ دعوته ، وقد أخبر الصادق المصدوق عن ذلك ونحن نؤمن بما أخبر عنه القرآن وبما حدثً عنه الرسول المعصوم فقد جاء فى الحديث الشريف : "والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد"[2] فسيحكم المسيح عليه السلام بشريعة القرآن فلا يقبل من أحد إلا الإسلام .

فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ بل يكون عيسى حاكما من حكام هذه الأمة . وسيبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقة ويبطل ماتزعمه النصارى من تعظيمه .

---

(١) سورة النساء الآية ١٥٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب البيوع . باب قتل الخنزير ٣١٨/٥ ، ٣١٩ من الفتح ، وفى كتاب الأنبياء باب نزول عيسى بن مريم عليهما السلام ٣٠٢/٦، ٣٠٣ .

٧- عهد الله إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ :

لقد أعطى الله تعالى نبينا محمداً ﷺ الكثير من الخير ووعده بأن يعلى قدره قال تعالى : ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾[١] .

ذكر المفسرون فى الكوثر الذى أعطيه النبى ﷺ أقوالا كثيرة :

قيل : هو نهر فى الجنة . روى عن أنس ؓ قال : لما عرج بالنبى ﷺ إلى السماء قال : "أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوف، فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر" وزاد الترمذى "الذى أعطاكه الله"[٢] .

وروى عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج[٣] .

وقيل : إنه حوض النبى ﷺ فى الموقف ؛ قاله عطاء[٤] .

أخرج أبو داود فى سننه[٥] عن أنس ؓ قال : أغفى رسول الله ﷺ اغفاءة ، فرفع رأسه مبتسما ، فإما قال لهم ، وإما قالوا له : يا رسول الله لم ضحكت ؟ فقال : "أنزلت على آنفا سورة فقرأ ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر**﴾ حتى ختمها ، فلما قرأها قال :

---

(١) سورة الكوثر الآية ١ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب التفسير ٣٦٢/١٠ والترمذى فى سننه كتاب التفسير ٤٤٩/٥ قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب التفسير ٤٥٠/٥ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) تفسير القرطبى ١٤٧/٢٠ .

(٥) كتاب السنة . باب : فى الحوض ٢٢٧/٤ .

"هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : "فإنه نهر وعدنيه ربى عز وجل فى الجنة ، وعليه خير كثير ، عليه حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب" .

وقيل : الكوثر : النبوة والكتاب ؛ قاله عكرمة .

وقيل : القرآن ؛ قاله الحسن ، وقيل : الإسلام ؛ حكاه المغيرة .

وقيل : تفسير القرآن وتخفيف الشرائع ؛ قاله الحسين بن الفضل .

وقيل : هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياع ؛ قاله أبو بكر بن عياش.

وقيل : هو الإيثار ؛ قاله ابن كيسان .

وقيل : هو الشفاعة .

وقيل : هو لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وقيل : الفقه فى الدين .

وقيل : الصلوات الخمس[١] .

وقال الشيخ المراغى : "إنا أعطيناك من المواهب الشىء الكثير الذى يعجز عن بلوغه العد ومنحناك من الفضائل مالا سبيل للوصول إلى حقيقته ؛ وإن استخف به أعداؤك واستقلوه ؛ فإنما ذلك من فساد عقولهم، وضعف إدراكهم"[٢] .

---

(١) انظر هذه الأقوال فى تفسير القرطبى ١٤٧/٢٠ ، ١٤٨ ، وفتح القدير للشوكانى ٥٠٢/٥ .

(٢) تفسير المراغى ٢٥٣/٣٠ .

وأرى : أن أصح هذه الأقوال الأول والثانى ؛ لأنه ثابت عن النبىﷺ نص فى الكوثر . وجميع ما قيل بعد ذلك فى تفسيره قد أعطيه رسول الله ﷺ زيادة على حوضه ، ﷺ .

كما أخذ الله على النبى ﷺ عهداً بأن فضله على كثير من العالمين وخصه بخصائص لا تتبغى لغيره . فقد نصر بالرعب مسيرة شهر . وجعلت الأرض له مسجداً وطهوراً . وأحلت الغنائم له ولم تحل لأحد قبله ، وأعطى الشفاعة ، وبعث إلى الناس عامة .

أخرج البخارى عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً . فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة . وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة . وبعثت إلى الناس عامة[١] .

---

(١) صحيح البخارى . كتاب التيمم ١/٤٥٣-٤٥٥ .

ثانيا : العهد بين المرء وربه

ينقسم الناس الذين يعاهدون الله تعالى إلى قسمين : فمنهم من يعاهد الله تعالى وفى نيته الخلف وعدم الوفاء بالعهد وهو المنافق الذى أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين . فما وفى بما قال ، ولا صدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿**ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما أتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب**﴾[١] .

قال ابن كثير[٢] : "وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى أن هذه الآية الكريمة نزلت فى ثعلبه بن حاطب الأنصارى . أنه قال لرسول الله ﷺ : أدع الله أن يرزقنى مالا . قال : فقال رسول الله ﷺ : "ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه" قال : ثم قال مرة أخرى فقال : "أما ترضى أن تكون مثل نبى الله ؟ فوالذى نفسى بيده لو شئت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت" قال والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ "اللهم ارزق ثعلبة مالا" : قال

---

(١) سورة التوبة الآيات ٧٥-٧٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٥٧/٢ - ٣٥٨ .

فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهى تنمى كما ينمى الدود حتى ترك الجمعة ، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار فقال رسول الله ﷺ "مافعل ثعلبة؟" فقالوا يا رسول الله ﷺ اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال : "يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة" وأنزل الله جل ثناؤه ﴿**خذ من أموالهم صدقة**﴾ الآية.

ونزلت فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلا من جهينة ورجلا من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين ، وقال لهما "مرا بثعلبة وبفلان - رجل من بنى سليم- فخذا صدقاتهما" فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فقال : ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية ما أدرى ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلىّ، فانطلقا وسمع بها السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا ما يجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك فقال بلى فخذوها فإن نفسى بذلك طيبة وإنما هى له ، فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال "أرونى كتابكما فقرأه ، فقال : ماهذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رايى فانطلقا حتى أتيا النبى ﷺ فلما رآهما قال : "يا ويح ثعلبة" قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى فانزل الله عز وجل ﴿**ومنهم من عاهد الله لئن أتانا من فضله لنصدقن**﴾ الآية . قال وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع

ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : "إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك" فجعل يحثو على رأسه التراب . فقال له رسول الله ﷺ "هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى" فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبض صدقته رجع إلى منزله فقُبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً ، ثم أتى أبا بكر ﷺ حين استخلف فقال قد علمت منزلتى من رسول الله ﷺ وموضعى من الأنصار فأقبل صدقتى فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وابى أن يقبلها فقُبض أبو بكر ولم يقبلها . فلما وُلى عمر ﷺ أتاه فقال : يا أمير المؤمنين اقبل صدقتى فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك ؟ فقُبض ولم يقبلها ، فلما وُلى عثمان ﷺ أتاه فقال : "أقبل صدقتى فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه فهلك ثعلبة فى خلافة عثمان" .

ونتيجة عدم الوفاء بالعهد مع الله تعالى أعقبهم نفاقا فى قلوبهم قال تعالى : ﴿**فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون**﴾[1] أى بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم كما فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ : "آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان" .

وأخرج البخارى عن النبى ﷺ قال : اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر".

---

(١) سورة التوبة الآية ٧٧ .

ومن صور عدم الوفاء بالعهد مع الله تعالى قوله تعالى ﴿**ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا**﴾[1] .

حكى الله تعالى ما وقع من المنافقين من معاهدة الله ورسوله بالثبات في الحرب وعدم الفرار وكان هذا العهد قبل غزوة الخندق وبعد غزوة بدر .

قال قتادة : "وذلك أنهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر فقالوا : لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن ، وهم بنو حارثة ، وبنو سلمة"[2] ونسوا أن الله تعالى سيسألهم عن ذلك العهد ﴿**وكان عهد الله مسئولا**﴾ أى مسئولا عنه ، ومطلوبا صاحبه بالوفاء به ، ومجازى على ترك الوفاء به .

أما القسم الثانى : فهم المؤمنون الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه قال تعالى : ﴿**ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**﴾[3] .

لما ذكر الله تعالى حال المنافقين الذين نقضوا العهد -مع الله ورسوله- ذكر حال المؤمنين حين لقاء الأحزاب ؛ بأنهم استمروا على العهد والميثاق .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ١٥ .

(٢) انظر فتح القدير للشوكانى ٤/٢٦٧ .

(٣) سورة الأحزاب الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

والمعنى : أن من المؤمنين رجـالا أدركـوا أمنيتهـم وقضـوا حـاجتهم ووفوا بنذرهم فقاتلوا حتى قتلوا ، وذلك يوم أحـد كحمـزة ومصعـب بـن عمير وأنس بن النضر (ومنهم من ينتظر) قضاء نحبه حتى حضر أجله كعثمان بن عفان ، وطلحـة بـن الزبـير وأمثـالهم فـإنهم مسـتمرون علـى الوفاء بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله ﷺ والقتال لعدوه، ومنتظرين لقضاء حاجتهم وحصول أمنيتهم بالقتل وإدراك الشهادة .

"**عن أنس قال** : قال عمى أنس بن النضر –سميت به– لم يشهد بـدرا مع رسول الله ﷺ فكبُر علـيَّ ، فقـال : أول مشـهد شـهده رسـول اللـه ﷺ غبت عنه أما والله لئن أرانى الله مشهدا مع رسـول اللـه ﷺ فيمـا بعـد ليرين اللـه مـا أصنـع . قـال : فهاب أن يقـول غيرهـا ، فشـهد مـع رسول الله ﷺ يوم أحد من العام القابل فاستقبله سعد بـن معـاذ فقـال يا أبا عمرو: أين ؟ قال : واهـا[1] لريـح الجنـة أجدهـا دون أحـد ، فقـاتل حتى قتل، فوجد فى جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورميـة فقالت عمتى الربيع بنت النضر : فما عرفت أخى إلا ببنانه ونزلت هـذه الايـة ﴿**رجـالا صدقـوا مـا عـاهدوا اللـه عليـه فمنهـم مـن قضـى نحبـه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**﴾[2] .

---

(١) واها : كلمة تعجب وتلهف من طيب الشىء .

(٢) أخرج الحديث الترمذى فى سننه . كتاب تفسير القرآن ٣٤٨/٥ - ٣٤٩ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

بيعة الرضوان

أيضا من صور العهد بين الله تعالى وبين المؤمنين "بيعة الرضوان" وفيها بايع المؤمنون رسولهم على الموت فى سبيل الله ، والتى هى الغاية العليا من الإيمان فقال جل شأنه : ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً**﴾[1] .

المبايعة أو البيعة : أخذ الميثاق والعهد على بذل الطاعة .

وهذه البيعة بيعة الفداء عقدها المؤمنون مع الرسول ﷺ على حرب قريش وذلك حين نزل النبى ﷺ الحديبية أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه ليُعلم قريش بحقيقة قصد النبى ﷺ وهو أداء العمرة ، ولكن لما طال احتباس عثمان وترامى إلى المسلمين أن عثمان قد قتل قلق المسلمون أشد القلق وتمثل أمامهم غدر قريش برسول سلام ، وموادعة فى الشهر الحرام عند البيت الحرام ، ووضع كل منهم يده على قبضة سيفه سمة البطش والغضب .

هنالك وقفت آمال النبى ﷺ من السلم على شفا اليأس ورأى أن الأمر قد خرج عن طوق الصفح والحلم وأن قريشا قد اقترفت أمراً تتكره العرب ويأباه الشرف . فدعا عليه السلام إلى البيعة ونادى منادى رسول الله ﷺ البيعة البيعة فأقبل المؤمنون من كل فج صوب الصوت مسرعين يجيبون داعى الله ورسوله فوجدوا الرسول عليه السلام قد استند إلى جذع شجرة من شجر السمر فبايعوه على الثبات فى وجه قريش وعلى عدم الفرار من الزحف حتى يأتى نصر الله أو يموتوا دون مطلبهم[2] .

---

(١) سورة الفتح الآية ١٠ .

(٢) راجع تفسير القرطبى ١٨٢/١٦ ، والبحر المحيط لأبى حيان ٤٩٢/٩ .

ولقد شرفهم الله تعالى وقربهم منه حيث جعل بيعتهم مع الرسول ﷺ بيعة معه جلاً وعلا بل قصرها على نفسه تكرمة لهم وتوثيقا لروابط البيعة بينهم وبينه جل ثناؤه . وهذا يشر بعلو قدره وشرف منزلته ﷺ عند ذى الجلال والإكرام حيث جعلت البيعة التى عقدت معه عليه السلام بيعة مع الله عز وجل كما أن طاعته عليه السلام طاعة لله تعالى ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾[1] .

ولعظم هذه البيعة زادها الله تأكيدا وتوثيقا فجعل يده فوق يد كل مؤمن مبايع . والأمر فى هذا على سبيل التمثيل والتصوير .

الوفاء بالبيعة :

ولما كانت هذه البيعة عقداً مبرماً ورباطا محكما مع الله فقد جعل الله جزاء من نقضها الطرد والإبعاد من رحمته وجعل جزاء من أوفى بهذا العهد الأجر العظيم ﴿**فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما**﴾[2] .

ولما فى بيعة الرضوان من فضل وثواب عظيم قال تعالى : ﴿**لقد رضى الله عن المؤمنين إذا يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما**﴾[3] فى هاتين الآيتين أعظم ما منح الله قوما من خيرى الجزاء فى الدنيا والآخرة فقد ذكر سبحانه وتعالى رضوانه على

---

(١) سورة النساء من الآية ٨٠ .

(٢) سورة الفتح الآية ١٠ .

(٣) سورة الفتح الآيتان ١٨ ، ١٩ .

هؤلاء المبايعين ووصفهم بالإيمان الكامل وأنزل عليهم السكينة ومنحهم فتحا قريبا كثير المغانم .

ولما كانت بيعة الرضوان هذه من أعظم مشاهد الإسلام وأحفلها برضوان الله فقد صار للشجرة[1] التى عقدت تحتها هذه البيعة مكانة فى النفوس فسميت شجرة الرضوان كما سميت بيعة الرضوان لما استوجبته من رضوانه تعالى على المؤمنين المبايعين .

---

(١) شجرة الرضوان هى شجرة من شجر السمر ، وهو شجر عظيم من شجرة العضاة – والعضاة كل شجر يعظم وله شوك – وقد أم المسلمون شجرة الرضوان من كل مكان ليسألوا الله حاجتهم عندها ويتبركوا بها وتهافت الناس عليها مدة من الزمن يقيموا الصلوات عندها حتى كادت تكون مسجداً . فلما كانت خلافة عمر خاف على الناس أن يفتنوا بها وأن يحسبوا بها قوة نفع أو ضر تغنى عنهم من الله شيئاً فتوعدهم ثم ارسل إليها من قطعها بليل فلما أصبح الناس لم يجدوا لها من أثر . ولله در عمر فقد كان حكيما موفقا بعيد النظر خبيرا بما يستهوى النفوس ويجتذب أفئدة العامة وضعفاء الإيمان ، فأراد بهذا العمل أن يصرف الناس إلى عبادة الله وحده ، وخشى إن طال بالناس الزمان أن تعبد هذه الشجرة من دون الله .. وقد كان العرب يعبدون شجرة تسمى "ذات أنواط" وفى الحديث أن العرب كانت لهم فى الجاهلية شجرة تسمى ذات أنواط كانوا يعلقون بها سلاحهم ويعكفون حولها ويعظمونها فسأل بعض المسلمين رسول الله ﷺ أن يجعل لهم كذلك ذات أنواط فنهاهم عن ذلك ولقد أيدت الأيام رأى عمر ﷺ فى استئصال الشجرة وأثبت أن خفاءها كان رحمة من الله لعباده ، فإنا نرى العامة فى عصرنا هذا يكادون يفتنون بما هو دون الشجرة فكيف بالعرب وقد كان الكثير منهم حديث عهد بجاهلية وما كانت عبادتهم للأوثان إلا جريا وراء معتقدات باطلة سيطرت على عقولهم فوقعوا فى حمأة الشرك حتى أنقذهم الله منه بالإسلام . راجع تفسير البحر المحيط لأبى حيان ٤٩٢/٩ ، وروح المعانى للألوسى ١٠٧/٢٦ .

ثالثا : العهد بين العباد بعضهم وبعض

نزل القرآن الكريم على قلب رسول الله ﷺ لينشىء به أمة ، وليقيم به دولة ولينظم به مجتمعا ، وليربى به ضمائر وأخلاقا وعقولا ، وليحدد به علاقات وسلوكيات الأفراد فيما بينهم ، وليضع قواعد وضوابط للحياة . حياة المرء مع نفسه ، وحياته مع غيره من الناس الأقربين والأبعدين ، من الأهل والعشيرة ، ومن الجماعة والأمة ، ومن الأصدقاء والأعداء .

والإسلام يقيم هذه الضوابط ويحددها بدقة ووضوح ، ويربطها كلها بالله سبحانه قال تعالى ﴿**يا ايها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**﴾ وعلى هذا فالمقصود بالعقود هو كل ضوابط الحياة التى قررها الله تعالى .

ويستعمل العقد فى الأجسام والمعانى ، يقال عقدت الحبل والعهد ، وإذا استعمل فى المعانى أفاد أنه شديد الإحكام ، قوى التوثيق ، وقيل : المراد بالعقود هى التى يعقدها عباد الله فيما بينهم من عقود المعاملات.

وقال الزجاج[1] : (المعنى : أوفوا بعقد الله عليكم وبعقدكم بعضكم على بعض . قال ﷺ "المؤمنون عند شروطهم ، وقال : كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط" فبين أن الشرط أو العقد الذى يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله أى دين الله ، فإن ظهر فيها ما يخالف رد ، كما قال ﷺ : "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد").

وقد فسر ابن عباس ﷺ العقود بالعهود وقال[2] : "يعنى ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد فى القرآن كله ولا تغدروا ولا تنكثوا

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٦/٢٤ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/٤ ، وتفسير الطبرى ٦/٣٣ .

ثم شدد فى ذلك فقال تعالى : ﴿**الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل**﴾[1] .

وقال الشيخ المراغى[2] : "وأساس العقود فى الإسلام هو هذه الجملة ﴿**أوفوا بالعقود**﴾ أى إنه يجب على كل مؤمن أن يفى بما عقده وارتبط به من قول أو فعل كما أمر الله مالم يحرم حلالا أو يحلل حراما كالعقد فى أكل شيء من أموال الناس بالباطل كالربا والميسر والقمار والرشوة ونحو ذلك" .

قوله تعالى : ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم**﴾[3] .

إن لفظ "العهد" فى هذه الآية عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان

والمعنى : وأوفوا بميثاق الله إذا واثقتموه ، وعقده إذا عاقدتموه ، فأوجبتم به على أنفسكم حقا لمن عاقدتموه وواثقتموه عليه . قال ميمون بن مهران : "الوفاء لمن عاهدته مسلماً كان أو كافراً ، فإنما العهد لله تعالى"[4] .

كذلك أمر الله تعالى بالوفاء بالعهد فى سورة الإسراء قال تعالى : ﴿**وأوفوا بالعهد**﴾[5] .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٧ .

(٢) تفسير المراغى ٤٣/٦ .

(٣) سورة النحل الآية ٩١ .

(٤) انظر البحر المحيط ٥٨٨/٦ .

(٥) سورة الإسراء الآية ٣٤ .

ثم أكد سبحانه على وجوب الوفاء بالعهد وتحريم النقض فقال : ﴿**ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا**﴾[1] .

أى لا تكونوا فيما تصنعون من النقض بعد التوكيد كالمرأة الحمقاء التى تبرم فتل غزلها ثم تنقضه نكثا . قال الكلبى ومقاتل : "هى امرأة من قريش خرقاء اسمها رابطة بنت سعد ، اتخذت مغزلا قدر ذراع ، وصنارة مثل اصبع ، فكانت تغزل هى وجواريها من الغداة إلى الظهر ، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن"[2] .

قال ابن قتيبة : "هذه الاية متعلقة بما قبلها ﴿**وأوفوا بعهد الله**﴾ والتقدير : وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأيمان ، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلا وأحكمته ثم جعلته أنكاثا"[3] .

ثم وبخ الله تعالى ناقض العهد ، وسيسأله عن نقضه إياه ، قال تعالى: ﴿**إن العهد كان مسئولا**﴾[4] أى مسئولا عنه ، فالمسئول عنه هو صاحبه ، فيقال للناكث له على سبيل التبكيت والتوبيخ لم نكثت عهدك؟ وهلا وفيت به . وقيل : "إن المسئول هو العهد ، يُسأل تبكيتا لناقضه" .

وهناك تقريع وتوبيخ آخر للذى يقول الخير ولا يفعله قال تعالى : ﴿**لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون**﴾[5] كما أن هذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملا فيه طاعة أن يفى بها.

---

(١) سورة النحل الآية ٩٢ .
(٢) البحر المحيط ٥٨٨/٦ .
(٣) فتح القدير ١٩٠/٣ .
(٤) سورة الإسراء الآية ٣٤ .
(٥) سورة الصف الآيتان ٢ ، ٣ .

كما حذر النبى ﷺ من الخلف ونقض العهد ، وجعل ناقض العهد من المنافقين . قال ﷺ : "آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان"(١) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : "أربع من كن فيه كان منافقا خالصا . ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ؛ إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر"(٢) .

وإنما عنى الإسلام بالوفاء بالعهد على هذه الصورة ، لأن الوفاء بالعهد يعطى للحياة صمامات الأمن ، يحفظها من الإنهيار ، فلو حرمت أمة من شرف الكلمة حرمت الخير كله ، من ثقة الناس بعضهم ببعض، ويصبح كل إنسان خائفا من أخيه ، ومتربصا بأخيه ، إن زال خلق الوفاء بالعهد من الأمة ، وفقدت الكلمة صدقها وشرفها ، وأصبحت (لا) تعنى (نعم) و (نعم) تعنى (لا) ، وبعبارة أخرى أصبحت الكلمة لا تؤدى مدلولها ، فمن وعدك بخير فهو كاذبك ، وإن صدقك فهو شىء خارج عن طبيعة الأشياء(٣) .

إن عهد المؤمن دين عليه . وسيسأل عنه بين يدى الله .

لذا يجب على كل إنسان يؤمن بالله وباليوم الآخر أن يفكر طويلاً قبل أن يعطى عهداً حتى لا يعطى إلا ما يستطيع الوفاء به ، وليعلم أنه يتعامل بذلك مع الله أولا .

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) انظر أخلاق إسلامية من القرآن والسنة للدكتور : الحسينى أبو فرحة ص٨٩ .

رابعا : العهد بين المسلمين وأعدائهم من اليهود والمشركين

لقد أضمر اليهود العداء للدعوة الإسلامية منذ وصول الرسول ﷺ إلى المدينة ، ومع ذلك فإن النبى ﷺ قد تغاضى عن عداوة اليهود ، وعمل على نشر روح التعاون والمودة مع اليهود ، فتحدث إلى رؤسائهم وتحدثوا إليه ، وتقرب منهم وتقربوا منه ، وأباح للمسلمين أن يؤاكلوهم وأن يتزوجوا من نسائهم ، وفرح اليهود عندما رأوا النبى ﷺ والمسلمين يستقبلون فى صلاتهم بيت المقدس الذى هو قبلة بنى إسرائيل فى صلاتهم .

وقد أراد النبى ﷺ حسن معاملته لهم ، أن يزيد فى أسباب التعاون وتبادل المنافع معهم ، فعقد بينه وبينهم معاهدة عادلة ، أمنهم فيها على أنفسهم وأموالهم وعقائدهم وضمنها ما فيها خيرهم وخير المسلمين(١) .

قال ابن كثير(٢) : قال محمد بن إسحاق . وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم واقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم وشرط لهم وقد جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبى رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

---

(١) بنو اسرائيل فى القرآن والسنة . للدكتور : محمد سيد طنطاوى- شيخ الأزهر- ص١٣٥ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٢٢٤/٣ .

أنهم أمة واحدة من دون الناس .

المهاجرون من قريش على ربعتهم[1] يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون ، معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الحارث على (من الخزرج) ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وأنه من تبعنا من يهود ، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم .

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ وأن الله على أتقى مافى هذه الصحيفة وأبره .

وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ .

---

(١) ربعتهم : أمرهم الذى كانوا عليه .
(٢) عانيهم : أسيرهم .

وقد علق الأستاذ عبد الرحمن عزام على هذه الصحيفة بقوله:[١] "هذه المعاهدة من أنفس العقود الدولية وأمنعها وأحقها بالنظر والتقدير من كافة الناس ، وما أولاها بأن تكون نبراسا للمسلمين فى أصول العلاقات الدولية بينهم وبين مخالفيهم من أهل الأديان الأخرى ، هذا فضلا عن أن عقدها ابتدأت به الدولة الإسلامية حياتها وابتدأ الإعتراف بالمسلمين كدولة .

هذه المعاهدة تعاقد فيها المسلمون مع غيرهم من أهل الديانات الأخرى فنشأ عن ذلك أول ميثاق (لجمعية أمم) أساسه النصر للمظلوم ، والنصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وحرمة الأوطان المشتركة ، وحرمة من يدخل فى الميثاق ويقبل جواره ، على أن تصان عقائد المتعاقدين وشعائرهم وحريتهم .

ولقد سبق الإسلام بهذه المعاهدة عهد (عصبة الأمم) الحديثة ، بأكثر من ثلاثة عشر قرنا ، وهكذا وضع الرسول ﷺ الأساس المتين للدولة العالمية ، والمعاملات الدولية ، فى هذا الميثاق على اساس الحرية للمشتركين فيه وعلى مبدأ الاستقلال" .

١- نقض يهود بنى النضير لعهودهم :

لم يلتزم بنو النضير بعهودهم التى عاهدهم عليها رسول الله ﷺ والتى تحتم عليهم ألا يؤوا عدوا للمسلمين ولم يكتفوا بهذا النقض بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف فى المدينة ، وقد حصل ذلك فى غزوة السويق التى تتلخص أحداثها فى أن أبا سفيان بن حرب حاول بعد هزيمته فى بدر بشهرين أن ينتقم من المسلمين ، فسار إلى المدينة

---

(١) الرسالة الخالدة للأستاذ عبد الرحمن عزام ص٦٥ .

فى مائتى راكب حتى وصل إلى ديار بنى النضير تحت جنح الظلام ، فطرق باب سيدهم (سلام بن مشكه) فاستقبله (سلام) استقبالا حسنا وسقاه خمرا ، وعرفه أخبار المسلمين ، وبعد أن تدارس معه أصلح الطرق لإيذائهم والإفلات من عقوباتهم ، هجم برجاله على ناحية يقال لها (العريض) فأحرقوا بيتين ونخيلا بها وقتلوا رجلا من الأنصار وحليفا له فى حرث لهما ، ثم انكفئوا هاربين إلى مكة ، وشعر المسلمون بما حدث ، فانطلقوا فى أثرهم ، وأحس أبو سفيان ومن معه بالطلب ، فأسرعوا فى الهرب ، والقوا الزاد الذى معهم - وكان أغلبه من السويق - لكى لا يثقلهم فى فرارهم ، وعاد المسلمون إلى المدينة بعد أن أمعن أبو سفيان ومن معه فى الفرار[1] .

أيضا لما ذهب النبى ﷺ إلى اليهود فى عدد من الصحابة لكى يطلب معاونتهم فى دية القتيلين اللذين قتلهما (عمرو بن أمية) خطأ غداة مرجعه من بئر معونة ، لأن القتيلين من بنى عامر كانا حلفاء بنى النضير ، وتظاهر اليهود بتلبية الطلب وجلس النبى ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا ، ولكن اليهود خلا بعضهم إلى بعض وبرزت فيهم روح الغدر والخيانة فقالوا : إنكم لن تجدوا محمدا ﷺ على مثل هذه الحال ، منفردا ليس معه من أصحابه إلا نحو العشرة، فمن منكم يعلوا هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيقتله ويريحنا منه ؟ وتطوع عمرو بن جحاسن اليهودى للقيام بهذه المهمة ، وحين أوشك اليهود على إنفاذ مكيدتهم ألهم الله -عز وجل- رسوله ﷺ مكر اليهود به ، فنهض من مكانه مظهرا أنه يريد قضاء حاجة ، وقفل عائدا إلى المدينة مسرعا.

---

(١) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة . للدكتور : محمد سيد طنطاوى ص٢٧٢ .

وشعر الصحابة بمغيب الرسول ﷺ فقاموا فى طلبه وصادفوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عن النبى ﷺ فأخبرهم أنه رآه يدخلها وأنه قصد توا إلى المسجد فلما لحقوا به قالوا يا رسول الله قمت : ولم نشعر فأخبرهم بما اعتزمه اليهود من الغدر به ، ومحاولتهم قتله[1] .

ونزل القرآن الكريم بعد ذلك ، يذكر المؤمنين بنعمة الله عليهم ، حيث نجى نبيهم ﷺ مما بيته له يهود بنى النضير من غدر ومكر فقال تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾[2] .

وهكذا ظهر غدر يهود بنى النضير ، وتعدد أذاهم ، وصار من العسير جعل المدينة قاعدة أمينة للدعوة الإسلامية واليهود بجوارها ، ورأى عليه الصلاة والسلام أن يجليهم عن المدينة .

وأدرك بنو النضير أنه لا مفر من جلائهم ، وطفقوا يجمعون ما يشاءون من مال أو طعام ويخربون بيوتهم لكى لا ينتفع بها المسلمون من بعدهم .

ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها ، يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته ، وما سلط عليهم به رسوله ﷺ فقال تعالى : ﴿**هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار**﴾[3] .

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن هشام ١٩٩/٣ - ٢٠٠ .

(٢) سورة المائدة الآية ١١ .

(٣) سورة الحشر الآية ٢ .

٢- نقض يهود بنى قريظة لعهودهم :

لقد قوى سلطان المسلمين بعد إجلائهم لبنى النضير وشعروا بالأمان والإطمئنان ، ولكنهم فى الوقت نفسه التزموا الحذر حينئذ أدركت قريش، وقبائل الأعراب أنهم أعجز من أن ينالوا من المسلمين شيئاً لو قاتلوهم متفرقين ، لأن المسلمين أصبح لهم من القوة – فى سنوات قليلة – ما يجعلهم يخيفون أشد قبائل العرب وأعظمها .

وكان اليهود أكثر الناس إدراكا لهذه الحقيقة ، فأخذوا يفكرون فى وسيلة للقضاء على الإسلام والمسلمين ، وهداهم تفكيرهم فى النهاية إلى أن خير وسيلة ، هى أن يكتلوا أعداء الإسلام فى جيش واحد لينازلوا المسلمين فى معركة حاسمة يكون فيها القضاء الأخير على الإسلام وجنده .

وتنفيذاً لهذه الفكرة الخبيثة ، أسرع (حيى بن أخطب النضرى) ومعه نفر من اليهود ، إلى أهل مكة يستنفرونهم لحرب المسلمين ، وقالوا لهم فيما قالوا : إنا سنكون معكم على محمد ﷺ وصحبه ، حتى نستأصلهم ، وتناسوا أنهم أهل كتاب فسجدوا لأصنام المشركين ، وصدروا لهم فتوى مضمونها : إن قتال محمد ﷺ حق واستئصاله واجب ، لأن دينكم خير من دينه ، وتقاليدكم أفضل من تعاليمه .

وننزل قوله تعالى : **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾**[١] .

---

(١) سورة النساء الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

وعاهد أهل مكة اليهود على أن يكونوا معهم في حرب المسلمين ، ولم يكف حيي بن أخطب ومن معه من اليهود ما قالوه لقريش ، بل ذهبوا إلى أعراب غطفان فعقدوا معهم حلفا مشابها لحلف قريش ، ووعدوهم بأن يعطوهم ثمار سنة كاملة من ثمار مزارع خيبر إذا تم لهم النصر ، ثم تركوهم وذهبوا إلى قبيلة بني مرة ، وقبيلة فزارة ، وأشجع وسليم وأسد ، وإلى كل من له ثأر عند المسلمين ، فأخذوا يزكون لهم وثنيتهم ويحرضونهم على قتال المسلمين ، فاستجاب الجميع لهم ، وخرجوا يبغون القضاء على الإسلام وأهله .

وبذلك نجح اليهود في تأليب أحزاب الكفر لمحاربة الإسلام ، ولما علم النبي ﷺ بما بيته الأحزاب من كيد ، فاستشار أصحابه ماذا سيفعلون لمقابلة تلك الألوف المؤلفة من رجال وخيل وإبل وأسلحة وذخيرة ؟ فأشار سيدنا سلمان الفارسي ﷺ بحفر خندق في الجهة الشمالية من المدينة ، لأنها منطقة مكشوفة يستطيع العدو أن يدخلها دون بقية الجهات لأنها محاطة بالبساتين الكثيفة وبالموانع الطبيعية الأخرى ، وأعجب النبي ﷺ والمسلمون بالفكرة ، فنفذوها في أيام قليلة، ثم حصنوا المدينة تحصينا قويا حكيما يصعب معه وصول الأعداء إليها[1] .

وأقبلت جيوش الأحزاب حتى بلغت مشارف المدينة فاغتاظوا لحصانتها حين رأوا الخندق يحول بينهم وبين اقتحامها ، ومضت أيام تبادل المسلمون فيها مع اعدائهم التراشق بالنبال ودب اليأس من النصر في قلوب قادة الأحزاب ، لأن المدينة محصنة بقوة وحكمة ، والخندق

---

(١) راجع السيرة النبوية . لابن هشام ٣/٢٢٤ - ٢٢٧ .

يحول بينهم وبين الوصول إليها ، والطقس قارس البرودة ، عاصف الرياح ، وخيامهم لا تحميهم من أذاه ، والأعراب لم يتعودوا المكث في مكان واحد لفترة طويلة، وبنى قريظة مازالوا على عهدهم مع النبى ﷺ

وشعر حيى بن أخطب وبطانته بعزم الأحزاب على العودة إلى ديارهم فجن جنونهم ، لأن عودتهم إلى ديارهم معناها تمكين المسلمين من رقاب اليهود ، فحاول حيى بن أخطب أن يغريهم بالبقاء ، وأن يبشرهم بأنه مقنع بنى قريظة بنقض عهودهم مع المسلمين ، حتى ينقطع عنهم المدد ، وبالتالى ينفتح الطريق أمام الأحزاب لدخول المدينة من الجهة الجنوبية التى يسكنها بنو قريظة ، وفرحت قريش بفكرة حيى، وسارع حيى بن أخطب بالذهاب إلى كعب بن أسد ليغريه بنقض عهده مع المسلمين ، وسمع الأخير بما يريد حيى بن أخطب فأغلق دونه حصنه ، فقال له حيى ويحك يا كعب افتح لى ، فقال كعب : ويحك يا حيى إنك امرؤ مشئوم ، وإنى قد عاهدت محمداً ﷺ فلست بناقض ما بينى وبينه ؛ ولم أر منه إلا وفاء وصدقا .

إلا أن (حييا) لزم بابه وقال له : والله ما أغلقت الحصن دونى إلا خوفا على جشيشتك[1] أن آكل منها فغضب كعب بن أسد وفتح له ، فقال حيى : يا كعب لقد جئتك بعز الدهر ، وببحر طام[2] جئتك بقريش على قادتها وبغطفان وسادتها ؛ قد عاهدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه ، فقال له كعب : يا حيى لقد جئتنى بذل

---

(١) الجشيشة : طعام يصنع من الجشيش ، وهو البر يطحن غليظا ، وهو الذى تقول له العامة : "دشيش" بالدال .

(٢) البحر الطامى : المرتفع الكثير الماء ، وأراد تشبيه عدد القوم فى كثرته بالبحر لأنه يغطى جوانبه كلها .

الدهر ، ويحك يا حيى دعنى وما أنا فيه ، لم أر من محمد ﷺ إلا صدقا ووفاء ، فلم يزل حيى بكعب حتى نقض كعب بن أسد عهده مع النبى ﷺ ، وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين ومزق الصحيفة التى كانت بينه وبينهم[1] .

وهكذا استطاع حيى بن أخطب أن يقنع سائر اليهود بوجهة نظره ، وأن يزين لهم الخيانة والغدر ، وأن يضمهم إلى صفوف الأحزاب .

وسرت الشائعات بين المسلمين بأن قريظة قد نقضت عهدها معهم وأراد الرسول ﷺ أن يتثبت مما بلغه ، فأرسل (سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة ، وخوات بن جبير) ﷺ وقال لهم : "انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فألحنوا لى لحنا أعرفه[2] ، ولا تفتوا فى أعضاء الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس" فلما أتى هؤلاء الصحابة إلى بنى قريظة ألفوهم على أخبث ما بلغهم عنهم .

وحاول سعد بن معاذ ﷺ أن يذكرهم بعهودهم مع النبى ﷺ وأن يحذرهم من سوء المصير إذا استمروا على نقضهم بالعهد ، فاستهزؤوا به وبالنبى ﷺ ، وقال كعب بن سعد : من رسول الله !! لا عهد بيننا وبينه ولا عقد ، فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ، وعاد الصحابة الأربعة إلى الرسول ﷺ فسلموا عليه ثم قالوا : (عضل والقارة) أى قد غدرت قريظة بالمسلمين كما غدرت عضل والقارة بخبيب وأصحابه .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٢٣١ ، ٢٣٣ بتصرف .

(٢) أى كلمونى بكلام يخالف ظاهره معناه ولا يفهمه أحد سواى .

بهذا حزن المسلمون وزلزلوا زلـزالا شـديداً فقد اصبح عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم وامتلأت قلوب المؤمنين بالغيظ على بنى قريظـة الذين نقضوا عهودهم فى سـاعة العسـرة متعمدين ومتحـالفين مـع الأحزاب الذين قدموا للإجهاز على الإسلام وأهله .

أما الرسول ﷺ فإنه استقبل غدر بنى قريظة بالثبات والحـزم ، واستخدم كل الوسائل التى من شأنها أن تقوى روح المؤمنين .

وأرسل فى الوقت نفسه (سلمة بن أسلم) فى مائتى رجل ، (وزيد بـن حارثة) فى ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ، ويظهروا التكبير ليرهبوا بنى قريظة ، وفكر النبى ﷺ فى تفريق كلمة الأحزاب ، فتفاوض سرا مع قواد غطفان على اعطائهم ثلث ثمار المدينـة علـى أن يرجعوا بمن معهم إلى ديارهم .. إلا أن هذا الإعطاء لم يتم لعدم رضا سعد بن معـاذ وسعد بن عبادة .

واستعمل ﷺ أيضا سلاح التشكيك لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة كل ممزق فلقد حدث فى هذه الساعات الحرجة أن أسلم سراً (نعيم بن مسعود الغطفانى) وأتى النبى ﷺ يعلن إسلامه وقال له : يا رسول الله إن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت ، فقال له رسول الله ﷺ: "إنما أنت فينا رجل واحد فخزّل عنـا إن استطعت فإن الحرب خدعة" أى: ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضا فلا يستمروا على حربنا.

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة ، وقال لهم : يابنى قريظة ، قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم ، قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم ، فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم ونساؤكم وأبناؤكم ، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى

غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم بغيره ، فليسوا كأنتم فإن رأو نهزة[1] أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدتكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً ، حتى تناجزوه فقالوا له لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج إلى قريش فقال لهم : قد عرفتم ودى لكم .. وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت علىَّ حقا أن أبلغكم إياه ، نصحا لكم . فاكتموه عنى ، قالوا نفعل ، قال اعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالا لنضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ فوافقهم على ذلك ، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلا واحدا منكم .

ثم خرج إلى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش ، وحذرهم مثل ما حذرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس أرسل أبو سفيان إلى بنى قريظة من يقول لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر[2] ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ، فأرسلوا إليه أن اليوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً .. ومع ذلك فلن نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً فلما علمت قريش

---

(١) النهزه : انتهاز الشىء واختلاسه .

(٢) يريد بالخف الابل ، وبالحافر الخيل .

وغطفان بما قالته قريظة قالوا : والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق .. ثم امتنعوا عن أن يعطوهم رهنا منهم ، فلما فعلوا ذلك قالت قريظة : إن الذى ذكره لكم نعيم بن مسعود حق .. وخذل الله – تعالى– بينهم(١) .

ونجحت دعاية نعيم ﷺ كل النجاح فى غرس روح التشكك وعدم الثقة بين قادة الأحزاب ، لأنها جاءت فى الوقت المناسب وبالأسلوب المناسب .

وأخيراً – وبعد أن بلغت القلوب الحناجر – جاء نصر الله ، إذ أرسل على جنود الكفر ريحا وجنودا من عنده ، فتصاعدت جبهات الأحزاب ، وملأ الرعب قلوبهم ، وخيل إليهم أن المسلمين قد أحاطوا بهم ليقطعوا دابرهم .

وقال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما اصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا منهم ما نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، فاستخف القوم ما خف حمله من متاع ، وفروا هاربين **﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا﴾**(٢) .

أما بنو قريظة فقد جلسوا فى حصونهم تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت بسبب غدرتهم الشنيعة ونقضهم لعهدهم مع رسول الله ﷺ .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٢٤٠ – ٢٤٢ بتصرف .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢٥ .

وشاء الله -عز وجل- أن يكون القصاص العادل منهم سريعا وحاسما . فقد أخرج الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت : "لما رجع النبى ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال : قد وضعت السلاح ، والله ما وضعناه فاخرج إليهم ، قال النبى ﷺ فإلى أين ؟ هاهنا وأشار إلى بنى قريظة فخرج النبى ﷺ إليهم"[1] .

ثم أمر النبى ﷺ أن يسرعوا فى الخروج لقتال بنى قريظة ، وألا يشغلهم أى شاغل عن هذا الخروج فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ يوم الأحزاب : "لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم لا نصلى حتى نأتيها وقال بعضهم : بل نصلى لم يرد منا ذلك ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فلم يعنف أحداً[2] .

لقد خرج الرسول ﷺ والمسلمون إلى بنى قريظة بأقصى سرعة ، ويحمل رايتهم على بن أبى طالب -كرم الله وجهه- فلما اقترب من منازلهم وجدهم مصرين على غوايتهم وغرورهم ، ثم سبوا النبى ﷺ ونساءه سبا قبيحاً ، ولكى يصرف الإمام على -كرم الله وجهه- الرسول ﷺ بعيدا عن منازل أولئك السفهاء حتى لا يسمع سبهم له ، أعطى الراية لأبى قتادة ، ثم ذهب إلى النبى ﷺ فاعترض طريقه وهو

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ١٤٢/٥ ، ومسلم فى صحيحه . باب جواز قتال من نقض العهد ١٣٨٩/٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ١٤٣/٥ ، ومسلم فى صحيحه . باب المبادرة بالغزو ١٣٩١/٣ .

مقبل إليهم ، فقال له يا رسول الله : "لا عليك أن لا تدنوا من هؤلاء الأخابث ! فقال لم ؟ أظنك سمعت لى منهم أذى ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا ثم دنا من حصونهم فقال لهم : يا إخوان القردة والخنازير ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولا[1] .

ويعلق فضيلة الدكتور / سيد طنطاوى شيخ الأزهر الشريف على ذلك قائلا : "وهكذا اليهود فى كل زمان ومكان عندما يظنون أنفسهم فى أمان يسبون ويتطاولون وعندما تواتيهم الفرصة يقتلون ويفجرون ، فإذا ما ضاق الخناق حول رقابهم يتباكون ويتذللون ، فهم يتلونون لكل حالة بالشكل الذى يظنونه نافعا لهم ، أما العهود والمواثيق ، والقيم الخلقية ، والمعانى الإنسانية ، فلا حساب لها فى ميزانهم"[2] .

حاول بنو قريظة بعد ذلك أن يظفروا بصلح يضمنون معه حياتهم فأرسلوا (شاش بن قيس) ليعرض على النبى ﷺ أنهم يريدون أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من أن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح ، فأبى عليهم الرسول ﷺ ذلك ، فأرسلوا ثانيا يعلنون تنازلهم عن الأموال بشرط أن تحقن دماؤهم وتسلم لهم نساؤهم وذرياتهم ولكن الله خيب سعيهم فقد أبى الرسول ﷺ أن يقبل منهم إلا النزول على حكمه بدون شرط .

وأخيراً لجئوا إلى وسيلة يستدرون بها عطف حلفائهم من الأوس فأرسلوا إليهم من يقول لهم : "ألا تأخذون لإخوانكم مثل ما أخذت

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٢٤٥ .

(٢) بنو اسرائيل فى القرآن والسنة ص٢٩٥ .

الخزرج لاخوانهم" ؟ يريدون أن الخزرج قد وقف واحد منهم هو عبد الله بن أبى سلول بجانب حلفائه بنى قينقاع ، حتى نجو من القتل واكتفى النبى ﷺ منهم بالجلاء عن المدينة ، فعلى الأوس أن يفعلوا مع حلافئهم بنى قريظة مثل ما فعل واحد من الخزرج مع حلفائه من بنى قينقاع .

ومشى رجال من الأوس إلى النبى ﷺ فقالوا : يا رسول الله : ألا تقبل من حلفائنا مثل الذى قبلت من حلفاء الخزرج " فقال لهم : يا معشر الأوس ألا ترضون أن أجعل بينى وبين حلفائكم رجلا منكم ؟ قالوا بلى ، قال : فقولوا لهم فليختاروا من يريدون ، واختار بنو قريظة (سعد بن معاذ) رضي الله عنه ليحكم فيهم .

لكن سعدا رضي الله عنه لم يغب عن باله نقض بنى قريظة لعهودهم فى ساعة العسرة وأنهم قد تطاولوا على الرسول ﷺ فسبوه سبا قبيحا ، وأن المسلمين قد أحيط بهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، فزاغت أبصارهم وبلغت قلوبهم الحناجر وأن المدينة وثمارها وحرثها ونسلها ، وأن بنى قريظة ما استداروا بأسلحتهم منضمين إلى جيوش الكفر -عن تعمد وإصرار- إلا ليشاركوا فى قتل المسلمين واسترقاقهم .

فلما انتهى رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ والمسلمين ، قال الرسول ﷺ قوموا إلى سيدكم فقاموا فى صفين ، كل رجل منهم يحيى سعدا حتى وصل إلى النبى ﷺ فقال له : (احكم يا سعد) فقال : (الله ورسوله أحق بالحكم) فقال رسول الله ﷺ (قد أمرك الله أن تحكم فيهم) .

فالتفت سعد إلى الجهة التى فيها بنو قريظة وقال : أترضون بحكمى؟ قالوا نعم ، فأخذ عليهم العهد بذلك ، ثم قال : ومن هاهنا -

يريد النبى ﷺ ولم يستطع أن يلتفت إليه حياء منه وإجلالا له - فقال النبى ﷺ نعم ، فقال سعد "فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء" .

فقال النبى ﷺ لسعد "لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات"(١) .

وهكذا فإن الغدر والخيانة ونقض العهود طبع فى اليهود جبلوا عليه وتوارثوه من أسلافهم منذ نشأتهم وفى عهد موسى عليه السلام حتى الآن .

فما نراه اليوم بالنسبة لقضية فلسطين وبناء المستوطنات اليهودية ، وتهويد القدس ونقضهم لإتفاقية "أوسلو" ومؤتمر مدريد وعدم إذعان "نتنياهو" رئيس وزراء اسرائيل لكل المساعى والجهود التى تبذل من أجل السلام دليل على أنهم شعب لا خلاق ولا عهد لهم .

فقد نسفت اسرائيل اتفاقيات السلام بالكلمات تارة وبالاستفزازات تارة أخرى وبالمستوطنات تارة ثالثة ، وبالعنف المسلح تارة رابعة ، وبالمراوغة والمناورة حول تنفيذ الاتفاقيات تارة خامسة .

وقد أصبحت هذه المخالفات معروفة للقاصى والدانى وأبرزها استمرار حصار وإغلاق المناطق الفلسطينية ، ومصادرة الأراضى ، وعدم اطلاق سراح السجناء والمعتلقين الفلسطينيين ، وادعاءات اسرائيل أن القدس عاصمة لها لمدة ثلاثة آلاف عام .

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ٢٥٠/٣ م وتفسير ابن كثير ٤٦٠/٣ وحياة محمد ﷺ للأستاذ / محمد حسين هيكل ص٣٧٧ - ٣٣٩ .

لذلك قال الله تعالى فيهم ﴿**إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون**﴾[1] .

وقد لقبهم الله تعالى بالدواب وهو اللفظ الذى غلب استعماله فى ذوات الأربع ، لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط ، بل هم أضل من العجماوات ، لأن لها منافع وهؤلاء لا خير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم .

---

(١) سورة الأنفال الاية ٥٦ .

حكم ناقض العهد

بعد أن بين سبحانه أنهم قد تكرر منهم نقض العهد - أردف ذلك ذكر ما يجب أن يعاملوا به فقال : ﴿**فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم**﴾(١) أى إن تدرك هؤلاء الناقضين لعهدهم وتظفر بهم فى الحرب - فنكل بهم أشد التنكيل حتى يكون ذلك سببا لشرود من وراءهم من الأعداء وتفرقهم ، فيكون مثلهم مثل الإبل الشاردة عن أمكنتها .

وفى ذلك إيماء إلى أن استعمال القسوة مع الناقضين للعهد ، والتنكيل بهم لتشريد من ورائهم - أمر لابد منه للعظة والاعتبار حتى لا يعودوا إلى مثلها هم ولا غيرهم .

وبعد أن ذكر حكم ناقض العهد حين سنوح الفرصة - قفى على ذلك بحكم من لا ثقة بعهودهم فقال : ﴿**وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء**﴾(٢) أى وإن توقعت من قوم معاهدين خيانة ونكثا للعهد بوجود أمارات ظاهرة وقرائن تنذر بها ، فاقطع عليهم طريق الخيانة قبل وقوعها بأن تنبذ إليهم عهدهم وتنذرهم بأنك غير مقيد به ولا مهتم بأمرهم ، بطريق واضح لا خداع فيه ولا استخفاء .

والحكمة فى هذا أن الإسلام لا يبيح الخيانة مطلقا .

وخلاصة ذلك : لا تحاربهم قبل أن تعلمهم أنك قد فسخت العهد الذى بينك وبينهم ، حتى تكون أنت وهم فى العلم بنقض العهد سواء ، فلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب عليهم .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٥٧ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٥٨ .

وقد حدث هذا بالفعل ، فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بنبذ عهوده مع المشركين .

أمر الله لنبيه بنبذ عهود المشركين :

قد بينا فيما سبق أن النبى ﷺ عاهد المشركين فى الحديبية على السلم والأمان عشر سنين بشروط كانت منتهى السخاء عن قوة وعزة ، لا عن ضعف وقلة ، حبا للسلم ونشر الدعوة بالإقناع والحجة ، فدخلت خزاعة فى عهده ﷺ كما دخلت بكر فى عهد قريش ، وكان لبنى الديل من بنى بكر دم عند خزاعة فاغتنموا الفرصة وغفلة خزاعة ، فخرج نوفل بن معاوية الديلى فيمن أطاعه من بنى بكر وبيتوا خزاعة فاقتتلوا، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقوم من قريش أعانوهم بأنفسهم ، فانهزمت خزاعة إلى الحرم ، فكان ذلك نقضا للصلح الواقع يوم الحديبية ، فخرج عمرو بن سالم الخزاعى وبديل بن ورقاء الخزاعى وقوم من خزاعة ، فقدموا على رسول الله ﷺ مستغيثين به فيما أصابهم به بنو بكر وقريش ، فقال رسول الله ﷺ : "لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب" فكان ذلك سبب عودة الحرب بينه وبينهم إلى أن كان فتح مكة ، وذلك فى سنة ثمان من الهجرة[1] .

من جراء هذا أمر الله تعالى نبيه بنقض عهوده مع المشركين فحاربهم النبى ﷺ وتم له الغلب عليهم ومحا الشرك من جزيرة العرب.

ولما كان سنة تسع أراد رسول الله ﷺ أن يحج ، فكره أن يرى المشركين يطوفون عراة ، فبعث أبا بكر أميراً على الموسم ، ثم أتبعه عليا ليقرأ قوله تعالى : ﴿**براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من**

---

(١) تفسير القرطبى ٤٢/٨-٤٣ بتصرف .

المشركين...﴾ –من صدر سورة براءة– على أهل الموسم راكبا ناقته العضباء ، فقيل له : لو بعثت بها إلى أبى بكر فقال : "لا يؤدى عنى إلا رجل منى فلما اجتمعا قال : أبو بكر أمير أو مأمور ، قال: مأمور .

فلما كان يوم التروية خطب أبو بكر وقام عليٌّ يوم النحر بعد جمرة العقبة فقال : "يا أيها الناس إنى رسول رسول الله إليكم" فقالوا : بماذا ؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين ، وعن مجاهد : ثلاث عشرة ثم قال : "أمرت بأربع أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، وأن لا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة ، وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده" فقالوا عند ذلك : يا على أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا ، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف[1] .

وقيل : عادة العرب فى نقض عهودها أن يتولى رجل من القبيلة ، فلو تولاه أبو بكر لقالوا هذا خلاف ما يعرف منا فى نقض العهود ، فلذلك جعل عليا يتولاه ، وكان أبو هريرة مع على فإن صحل صوت على نادى أبو هريرة[2] .

وفى ذلك إيماء إلى أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام ما دام العهد معقوداً ، وإلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته ، وإلى أن من شروط وجوب الوفاء به محافظة العدو المعاهد لنا على ذلك العهد بحذافيره بنصه وفحواه قال تعالى : **﴿إلا الذين عاهدتم من**

---

(١) البحر المحيط فى التفسير ٣٦٨/٥ .

(٢) المرجع السابق .

المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾[١] .

وبهذه المحافظة على العهود والمواثيق سرا وجهرا امتازت الشريعة الإسلامية على الشرائع الوضعية ، فشعار أهلها الوفاء بالعهود والبعد عن الخيانة والغدر .

وإن أعظم دول المدنية فى العصر الحاضر تنقض عهودها جهرة متى وجدت الفرصة سانحة ، ولا سيما عهودها للضعفاء ، وتتخذها خداعا مع الأقوياء ، وما أكثر ما تنقضها بالتأويل والتحايل فى التفسير إذا رأت فى ذلك مصلحتها ، حتى قال رئيس الدولة الألمانية : ما المعاهدات إلا قصاصات ورق ، وقال بسمارك أكبر ساسة هذه الدولة : المعاهدات حجة القوى على الضعيف ، وأبرع الساسة فى بالتخلى عنها بالتأويل هم الإنجليز .

وأقول : إن التجارب دلت على أن اليهود والمشركين لا عهد لهم ولا يؤمن غدرهم فى حالى القوة والضعف قال تعالى **﴿يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾**[٢] فهم يخادعون المؤمنين حال الضعف بما يفوهون به من كلام معسول سواء أكان عهدا أم وعدا أم أيمانا مؤكدة وقلوبهم مملوءة ضغنا وحقدا **﴿يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم﴾**[٣] .

---

(١) سورة التوبة الاية ٤ .

(٢) سورة التوبة الآية ٨ .

(٣) سورة الفتح الآية ١١ .

وإنما يفعلون ذلك لأن أكثرهم خارجون من قيود العهود والمواثيق متجاوزون لحدود الصدق والوفاء ، فليس لهم مروءة رادعة ، ولا عقيدة وازعة ، لا يتعففون عن الغدر والخيانة .

والله أسأل أن يجنبنا الغدر والخيانة ، وأن نلتزم بالوفاء بالعهد ، وأن نكون ممن وصفهم الله فى كتابه العزيز ﴿**والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

الموضوع الرابع

التواضع

التواضع هو أن تضع نفسك حيث يجب لها أن توضع ، دون تكبر وافتخار ، ودون ذلة وهوان ... فالتواضع وسط بين الكبر وبين المذلة... فالمؤمن ليس متكبرا ، وليس ذليلا والتواضع من خلق المرسلين . يقول النبى ﷺ " من تواضع لله درجة رفعه الله درجة"[1]، ويقول : " ما نقص مال من صدقه ، ومازاد الله رجلا بعفو إلا عزا ، وما من أحد تواضع لله إلا رفعه الله"[2] .

ويأمر ربنا تبارك وتعالى حبيبه المصطفى ﷺ بالتواضع فيقول له : **﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾**[3] ، ويؤكد عليه ثانيا فيقول له : **﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾**[4] .

وكان النبى ﷺ مثلا يحتذى به فى التواضع ، فقد كان يجالس فقراء المسلمين من أهل الصفة أمثال : بلال ، وصهيب ، وخباب ﷺ جميعاً ويأكل معهم ويحادثهم ، ويسمع منهم ، ويأذن لهم ، ولايحتجب عنهم ، كما علمه ربه تبارك وتعالى بقوله:**﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة**

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه . كتاب البر .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

(٣) سورة الحجر الآية ٨٨ .

(٤) سورة الشعراء الآية ٢١٥ .

الحياة الدنيا ولاتطلع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا﴾[1] .

وكذلك حين بنى مسجده كان ينقل الحجارة معهم ، وكذلك أثناء حفر الخندق فى غزوة الأحزاب كان يحفر معهم يدا بيد ، ولما كان فى سفر مرة وأراد الطعام ، وأتى بشاه قال بعض الأصحاب: علىَّ ذبحها وسلخها ، وقال آخر وأنا على تقطيعها وشيها ، فقال النبى ﷺ وأنا على جمع الحطب فاختار ﷺ أشق الأعمال ، وكان من الممكن أن يجلس ، ويخدمه الجميع بحب وإخلاص ، وتحكى السيدة عائشة -رضى الله عنها- فتقول عنه : كان فى مهنة أهله - أى يساعد زوجاته ، وكان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ويعلف فرسه .

وقد وصف الله تعالى عباده بالتواضع ولين الجانب عمن سفه عليهم والعفو عنه فقال تعالى :**﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾**[2] .

بعد أن وصف الله سبحانه وتعالى الكفار فى الآيات السابقة بما وصفهم من الفظاظة والغلظة على النبى ﷺ وعداوتهم له ومظاهرتهم على خالقهم وأعراضهم عن عبادته متجاهلين اسم الرحمن حينما دعاهم للسجود فى قوله تعالى:**﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا﴾**[3] .

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٣ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٦٠ .

تأتى هذه الآيات لتوضيح الصفات الكريمة التى يتصف بها أولئك الذين استحقوا أن يضافوا إلى الرحمن حيث أن اضافتهم اليه للتشريف والتكريم .

والسر فى اضافتهم إلى الرحمن مع أن لله أسماءا أخرى ، لبيان أن اتصافهم بتلك الصفات انما هو أثر رحمة الله بهم وتبشيرا لهم برضوانه عليهم وتفضيلهم على من سواهم وأيضا تعريض بمن قالوا وما الرحمن ؟ وأول الصفات التى يصفهم بها سبحانه وتعالى التواضع ولين الجانب والحلم عمن سفه عليهم والعفو عنه .

فاذا عدنا إلى صفة المشى بالنسبة لعباد الرحمن تبينا أنها تدل على تواضع هؤلاء العباد واستقامتهم . فالمشية تعبير عن شخصية المسلم وعما بداخله من مشاعر ، فالنفس المستقيمة تخلع صفاتها على مشية صاحبها . وليس معنى يمشون على الأرض هونا أنهم يمشون متماوتين منكسى الرؤوس ، كما يفهم بعض الناس ممن يريدون إظهار الصلاح فهذا رسول الله ﷺ كان أسرع الناس مشية، وأحسنها وأسكنها ، كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له[1].

لهذا كره بعض السلف المشى بتضعف وبتصنع حتى روى أن عمر ابن الخطاب ﷺ رأى شابا يمشى رويدا فقال ما بالك ؟ أنت مريض ؟ قال : لايا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وأمره أن يمشى بقوة[2]

فالاسلام لايحب الضعف والخنوع ، بل يحب القوة والعزة والأنفة . فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

---

(١) فتح القدير للشوكانى ٨٥/٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لإبن كثير ٣٢٤/٣ .

مما سبق ندرك أن اتصاف عباد الرحمن بالتواضع لأنه صفة جليلة وخلة عظيمة اتصف بها المرسلون وخلص عباد الله الصالحين وقد أمرنا الله بالتواضع وبين لنا منزلة المتواضعين فقال تعالى:﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولافسادا والعاقبة للمتقين**﴾[1] ، فالتواضع يزيد الشريف شرفا ويرفع الوضيع حتى يصل إلى مقامات الأولياء والأصفياء .

فقال سبحانه وتعالى:﴿**يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾[2] وذلك فى الثناء على أوليائه ووصف التواضع فيهم .

ومما يدلنا على أهمية التواضع أن الله أمر رسوله الكريم محمدا بن عبد الله ﷺ فقال تعالى:﴿**واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**﴾[3] فهذا الأمر فى حقيقته موجه إلى الأمة الإسلامية . وإن كان فى ظاهره موجها للرسول ﷺ لأن الرسول قد بلغ الغاية فى التواضع ، حيث كان نموذجا حيا لهذه الصفة الحميدة فالمتتبع للسيرة النبوية يجد أن الرسول ﷺ طبق تلك الصفة الحميدة فى حياته الشريفة، فعلى الرغم من أن الرسول كان أجمع الناس لدواعى الترفع ، إلا أنه كان أدناهم إلى التواضع ويتضح ذلك من خلال بعض الأمثلة التى سأسردها :

أن رسول الله ﷺ لم يكن يحب التميز فى شيء ولا أن يقوم له الناس أو أن يبالغوا فى مدحه فيطروه ، كما أطرت الأمم السابقة

---

(١) سورة القصص الآية ٨٣ .

(٢) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٢١٥ .

أنبياءها، أو أن يرفعوه من منزلة العبودية والرسالة . قال أنس ﷺ " لم يكن شخص أحب اليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك"(١)

كما روى عن أنس بن مالك أنه قال : " جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: ياخير البرية فقال رسول الله ﷺ ذاك ابراهيم عليه السلام"(٢)

كما كان ﷺ يمشى مع العبد والأرملة حتى يفرغ لهما من حاجتهما ، وعن أنس بن مالك قال : " كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد الرسول ﷺ فتنطلق به حيث شاءت"(٣) .

والمقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الرفق والانقياد وقد اشتمل على أنواع من المبالغة فى التواضع .

ومما يدلنا على تواضعه ، مساعدة أهله على الرغم من مكانته العالية ومنزلته السامية يدلنا ذلك ما رواه ابراهيم عن الأسود قال : سألت عائشة ما كان النبى ﷺ يصنع فى أهله ؟ قالت : كان فى مهنة أهله فاذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة(٤) .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه أبواب الاستئذان وللآداب . باب كراهية قيام الرجل للرجل ١٨٣/٤ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الفضائل . باب فضائل ابراهيم الخليل ٩٧/٧.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب . باب الكبر ٦١/٤ .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الأدب باب كيف يكون الرجل فى أهله ٥٦/٤ .

كما كان ﷺ يعود المريض ويشهد الجنـازة ويركـب الحمـار ويجيب دعوة العبد ويقم البيت ، ويعقل البعير ، ويأكل مـع الخـادم ، ويحمل بضاعته مـن السوق ويحلب الشاه ، ويخصف النعل ، ويرقـع الثوب ويصافح الغنى والفقير ، والكبير والصغير .

ومما سبق يتضـح لنـا مدى تواضـع النبـى ﷺ علـى الرغم من منزلته العالية حيث أنه سيد ولد آدم . وصاحب المقام المحمود ، واللواء المعقود ، والحوض المورود والشفاعة العظمـى ، والمكانـة الكبرى ، فتواضعه ﷺ لم ينقص من ذلك شيئا بل زاده رفعه ومكانة وإجلالا لدى الخلق أجمعين .

فما أحرانا بالأقتداء به تحقيقا لقوله تعالى:﴿**لقد كـان لكـم فـى رسـول الله أسوة حسنة**﴾[1] فنتواضع من غير مذلة ولا مهانة ، فمن تواضـع لله رفعه .

فسنته جارية فى رفع المتواضعين كما قال رسول الله ﷺ ، عن أبى هريرة : "مانقصت صدقة من مال ، ومازاد اللـه عبدا بعفـو إلا عـزا ، وماتواضع أحد إلا رفعه الله"[2] .

لهذا أمرنا النبى ﷺ بالتواضع فقال :"إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعـوا حتى لايفخر أحد على أحد ولايبغى أحد على أحد"[3] .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب البر والصلة . باب استحباب العفو والتواضع ٢١/٨ .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الأدب . باب فى التواضع ٢٧٤/٤ .

فالتواضع سبب فى كسب الأصحاب والأحباب فمن تخلق به كثر محبوه ، وقل معادوه ، وقضيت حوائجه ولوازمه فيعيش بذلك فى راحة بال واطمئنان حال ، فيسعد فى دنياه وأخراه .

وترغيبا فى التواضع سأذكر بعض مظاهره لمن أراد أن يتصف به :

١- إذا كان جالسا فى مجلس ودخل رجل فاضل ذو علم ودين فقام من مكانه وأجلسه فيه وسوى له نعله عند خروجه وخرج معه ليشيعه فان ذلك دليل على تواضعه .

٢- ان زار غيره ممن هو دونه فى الفضل ، أو مثله وحمل معه متاعه ، أو مشى معه فى حاجته فهو متواضع ، فقد روى أن أحد الأئمة قال : عندما زاره صديق له " إن زارنى فلفضله وإن زرته فلفضله ". فهذا يدلنا على تواضعه وعدم اعتداده بنفسه .

٣- ومما يدل على التواضع أيضا قبول الحق من أى شخص كان ، والانقياد له وعدم احتقار من هو اقل منه مرتبة ، ومنزلة . والسلام على الصغير والكبير ، والوضيع والشريف اقتداء بسيد المرسلين محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

٤- الاهتمام بشأن الفقراء وقضاء حوائجهم وعدم الترفع عن ذلك .

ولقد كان السلف رضوان الله عليهم متصفين بالتواضع ولين الجانب، ويظهر لنا ذلك من قراءة التاريخ الاسلامى ، لأنه يحتوى على أمثلة كثيرة تصور لنا تواضعهم على اختلاف طبقاتهن سواء كانوا خلفاء أو علماء أو غير ذلك ... فقد روى أن عمر بن عبد العزيز ﷺ أتاه ليلة ضيف وكان يكتب ، فكاد السراج يطفأ فقال الضيف : "أقوم إلى

المصباح فأصلحه ؟ فقال عمر : ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه، فقال الضيف : إذاً أنبه الغلام ؟ فقال عمر : انها أول نومة نامها فلا تنبهه . وذهب إلى البطة وملأ المصباح زيتا ، ولما قال له الضيف: قمت أنت بنفسك ياأمير المؤمنين ؟ أجاب قائلا: ذهبت وأنا عمر ، ورجعت وانا عمر ، مانقص منى شيء ، وخير الناس من كان عند الله متواضعا .

فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز قام بنفسه إلى المصباح ليصلحه فلم يمنعه من ذلك منزلته العالية ، حيث أنه خليفة المسلمين بل منع ضيفه من إصلاحه عندما طلب ذلك ، كما منعه من ايقاظ الغلام لأجل ذلك ، فهذا أكبر دليل على تواضع هذا الخليفة وعدم تكبره . لهذا قال قولته المشهورة : ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر . لأنه يعلم أن ماقام به لم ينقص من قدره بل على العكس زادت منزلته ومحبته لدى رعيته ، وهذا هو شأن الفضلاء الذين يعلمون أن سيد القوم هو خادمهم .

ومما يدلنا على تواضع السلف الصالح ما روى أن أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ واليا بالمدينة لمروان ويقول: " أوسعوا للأمير وهو يحمل حزمة الحطب فنحن نعرف من هو أبو هريرة؟ إنه الصحابى الجليل الذى أصبح فيما بعد واليا على المدينة، ومع ذلك فإنه يقضى حوائجه بنفسه لأنه يعلم أن صاحب الحاجة أولى بان يحملها كما أنه يقتدى فى ذلك بسيد المرسلين محمد ﷺ إلى جانب مافى ذلك من الأجر والثواب فأين نحن منهم ؟ لقد أصبح المرء فى هذا العصر ، يتأفف من حمل أى شىء مهما قل ، ويعتمد فى ذلك على الخدم والحشم . فلماذا لايعتمد المرء على نفسه ؟ ويحاول جهده أن يقضى لوازمه بنفسه مقتديا بالسلف الصالح .

لهذا يجدر بنا أن نحتذى حذوهم ونترسم خطاهم ، فنتخلق بتلك الصفة الكريمة والخلة الجميلة ، علنا نبلغ منزلتهم أو نقرب على الأقل منها فنحظى بما نالوه من شرف وعزة ومكانه فوجود هذه الصفة بين أفراد المجتمع تجعلهم متعاونين متقاربين فلا شقاق بينهم أو خصام بل وئام وسلام ومحبة وأمان .

وبعد عرضنا للآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى ترغب فى التواضع وتبين مزاياه وفضائله وأثره على الفرد والمجتمع ، نجد فى مقابل ذلك العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تذم الكبر وتمقته وتنفر الناس عنه وتبين عاقبة المتكبرين ، ويجدر بى قبل أن أتناول ذلك أن أوضح ممعنى الكبر فى اللغة ثم فى الاصطلاح .

أولا : معناه فى اللغة:

الكبر :

الكبر بالكسر اسم من كبر الأمر والذنب كبرا اذا عظم . والكبر العظمة والكبرياء .

أما معناه فى الاصطلاح :

فلقد عرف الرسول ﷺ الكبر بأنه : "بطر الحق وغمط الناس"[1] . ومعنى بطر الحق : جحوده والاستهانة به ، والاستعلاء عن قبوله ، فمن استكبر عن الحق وضعه الله ومن تواضع لله رفعه الله ، فقد جاء عن النبى ﷺ أنه قال : " مانقصت صدقة من مال ومازاد الله عبد بعفو إلا عزا وماتواضع أحد إلا رفعه الله"[2] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الايمان . باب تحريم الكبر ٨٩/٢ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الايمان . باب تحريم الكبر ٨٩/٢ .

ان المجد الذى نالــه عمـر بـن الخطـاب بقبولـه الحـق ورجوعـه إليـه وعدم استكباره فى نفسه كخليفة للمسلمين لم يكن يظفـر بعشـر معشـاره لو كان مستكبرا عنيدا مغرورا بنفسه معجبا برأيه . فقد كان عمر وقافـا عنـد كتـاب اللـه . فقد خطـب يومـا فـى النـاس ليحـدد المهـر ، ولكـن اعترضت عليه امرأة فقالت :" أين أنت من قوله تعالى:﴿**وآتيتم أحداهن قنطارا**﴾[1] فقال عمر أصـابت امـرأة وأخطـأ عمـر . فعلـى الرغـم مـن كونه خليفة المسلمين إلا أنه لما رأى الحق مع المـرأة حيـن ردت عليـه بآية قرآنية تراجع عما قاله . واعترف بخطئه ، وبصـواب المـرأة فهل يوجد فى عصرنا هذا من يفعل ذلك ؟ أو يطبقه ؟ أرجو ذلك .

ومعنى "غمـط النـاس" أى : احتقـارهم والاسـتهانة بـأقدارهم والـترفع عليهم ، وعدم الاعتراف بحقوقهم الأدبية ، وصفـاتهم الفاضلـة ، وعلـى مقدار ما يكون فى نفس المستكبر من كبر وحرمان وعدم تقدير لعواقب الأمور ، يكون غمطه للناس ، ويخـف ذلـك متـى تنـاقص الكـبر ومتـى عظمت الخشية من الله ، واستقام العقل فى تقديره للعواقب . صلح حال الانسان ، وشفى من مرض الاستكبار بغير حـق ، فـالمجد الـذى يحققـه بطاعة الله وتواضعـه وابتغـاء مرضـاة اللـه ، أجل وأعظـم بكثـير مـن المجد الذى يصبو إليه ويسعى إليه عن طريق الاستكبار .

فليس المراد من الكبر ما يشمل رغبة الانسان بان يكون مظهره أنيقا ولباسه حسنا ، بل المراد منه كما فسره الرسول ﷺ "بطر الحق وغمـط النـاس" يدل ذلك على ماروا‌ه عبد الله بن مسعود عن النبـى ﷺ قـال : " لايدخل الجنة من كان فـى قلبـه مثقـال ذرة مـن كـبر " قـال رجـل : ان

---

(١) سورة النساء الآية ٢٠ .

الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا . قال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس" فبين ﷺ فى هذا الحديث أن المتكبر لايدخل الجنة . وكان أحد الحضور يحب ارتداء الملابس الحسنة والجميلة لتكون هيئته حسنه شأنه شأن أغلب الناس ، فخاف أن يكون هذا من الكبر الذى يمقته الله ، ويدخل صاحبه النار . لذا سأل الرسول ﷺ ليستفسر عن ذلك فأجابه الرسول بأن ذلك ليس من الكبر فى شىء .ثم وضح له حقيقة الكبر الذى يدخل النار . وهو رد الحق وعدم قبوله والإنصياع له . وأيضا احتقار الناس ، والتقليل من قدرهم ومنزلتهم ، لذلك كان الكبر من أقبح الانحرافات الخلقية وأسوأها وإنه يدفع بصاحبه إلى جحود خالقه ، والاستكبار عن طاعته ، لهذا شدد الإسلام فى تحريمه والتحذير منه .

وشدد الأئمة علىالمستكبرين وأوعدهم بالعقاب الشديد لأنهم ينازعون الله فى أخص صفاته حيث لايشاركه أحد فى هذه الصفة فمن اتصف بها قصمه الله وأدخله النار حيث قال فى حديث قدسى :" الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما قذفته فى النار"(١) ، فالعقوبة الأخروية المقررة لمن ينازع الله تبارك وتعالى فى صفتيه الكبرياء والعظمة ، أن يقذف فى النار ثم إن فى اتصافه بهذه الصفة اتباعا لابليس اللعين الذى منعه الكبر من السجود لآدم عليه السلام لاعتقاده أنه أفضل منه فكان جزاؤه اللعن والطرد من رحمة الله يؤيد ذلك قوله تعالى:﴿**إذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين . فإذا**

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب البر والصلة . باب تحريم الكبر ١٦/١٧٣ بشرح النووى .

سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لم خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾[1] فاستحق بذلك اللعن والطرد من رحمة الله كما قال تعالى:**﴿إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين . قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون قال فاخرج منها فانك رجيم. وأن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾**[2] .

فالله سبحانه عندما أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام تكريما له، حيث نفخ فيه من روحه استجاب جميع الملائكة لأمر ربهم وسجدوا لآدم عليه السلام . إلا ابليس منعه الكبر من السجود لآدم ، لاعتقاده أنه خير من آدم ، مع أن اعتقاده هذا خاطىء فالطين كما هو معروف اقوى من النار ، يدل ذلك الواقع المشهود . فاستحق بذلك اللعن والطرد من رحمة الله . واذا كان هذا مصير ابليس ، لأنه استكبر عن السجود لآدم، وهو بشر مخلوق ، فما هو مصير الذين يتكبرون عن عبادة الله وحده .

لاشك أن مصيرهم الخزى فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة ، يتضح لنا ذلك من خلال قراءة القرآن الكريم والسنة الشريفة . لأنهما وضحا ذلك أكمل توضيح .

---

(١) سورة ص الآيات من ٧١-٧٦ .

(٢) سورة الحجر الآيات من ٣١-٣٥ .

لذا سأقتصر على ذكر بعضها :

١- فهذا (قارون) أنعم الله عليه بالمال والجاه فلم يشكر الله على نعمه بل تكبر وجحدها ونسب كل ذلك إلى قوته وجهده الشخصى فكانت عاقبته وخيمة ، حيث خسف الله به وبداره الأرض نتيجة تكبره عن عبادة الله ، وعدم الاعتراف بفضله وإحسانه ، يدل على ذلك قوله تعالى:**﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لاتفرح ان الله لايحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولاتبغ الفساد فى الأرض ان الله لايحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولايلقاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾**(١)

٢- ايضا قوم (عاد) استكبروا عن عبادة ربهم وعاثوا فى الأرض الفساد كما أدى بهم التكبر إلى اعتقاد أنهم أقوى من فى الأرض ناسين أن الله هو القوى العزيز الذى خلقهم ووهبهم ما يتمتعون

---

(١) سورة القصص الآيات من ٧٦-٨١ .

به من نعم وخير كثير فكانت عاقبة أمرهم أن ارسل الله عليهم ريحا صرصرا أهلكتهم حتى لم يبق منهم أثر ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى قال تعالى:﴿**فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون**﴾(١)

٣- كما أن مشركى مكة منعهم الكبر من الدخول فى الاسلام مع اعتقادهم فى قرارة أنفسهم بصدق محمد ﷺ فى كل مايدعوا إليه وأنه رسول رب العالمين ولكنهم حسدوه عندما اصطفاه الله من بينهم فكانوا يتمنون لو نزل الوحى على غيره من أمثال الوليد بن المغيرة بمكة أو عروة الثقفى بالطائف .

واعتقادهم بأنهما أحق بالنبوة من الرسول لما يتمتعان به من ثراء ونفوذ فى قومهما قال تعالى:﴿**وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾(٢) . ولقد غاب عن ادراكهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده فاصطفاء النبوة من اختصاص الله دون سواه كما يخلق بمشيئته يصطفى بمشيئته فهو وحده العالم باستعداد خلقه وصلاحيتهم لما يريد قال تعالى:﴿**وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة**﴾(٣) .

---

(١) سورة فصلت الآيتان ١٥،١٦.

(٢) سورة الزخرف الآية ٣١ .

(٣) سورة القصص الآية ٦٨ .

لهذا حرم الله عليهم الجنة فقال تعالى: **﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين﴾**[1] ، وقال تعالى: **﴿وقال ربكم أدعونى استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين﴾**[2] ، فالجزاء من جنس العمل .

حيث كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها فكان جزاؤهم النار وبئس القرار .

٤- ولايقتصر التكبر على ذلك ، بل أنه قد يدفع بعض الناس إلى ادعاء الربوبية كما حصل ذلك مع فرعون حينما أرسل الله له موسى عليه السلام ليدعوه لعبادة ربه ، لكنه كذب وعصى ولم يكتف بذلك ، بل ادعى الربوبية من دون الله فكان عاقبته الغرق فى اليم فأصبح عبرة للآخرين على مدى الأزمان قال تعالى: **﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى﴾**[3] .

ولم يقتصر تكبر بعض الناس عن طاعة الله وعبادته ، بل أن هناك فئات أخرى يتكبرون على أمثالهم من الخلق ، ويعاملونهم بكل فظاظة وغلظة فلا غرابة إذا حرم الله عليهم الجنة كما جاء عن النبى ﷺ قال:

---

(١) سورة الأعراف الآية ٤٠ .

(٢) سورة غافر الآية ٦٠ .

(٣) سورة النازعات الآيات من ١٧-٢٦ .

"لايدخل النار أحد فى قلبه مثقال حبة خردل من ايمان ، ولايدخل الجنة أحد فى قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء"(١) كما قال عليه الصلاة والسلام :" ألا أخبركم بأهل النار كل عتل(٢) جواز(٣) مستكبر"(٤) ففى هذين الحديثين يخبرنا النبى ﷺ أن أصحاب الجنة هم الضعفاء المتواضعون وأن أهل النار المتكبرون الجبارون فكيف يدخل المتكبر الجنة وقد قالت النار أوثرت بالمتكبرين الجبارين .

كما جاء فى صحيح البخارى(٥) عن أبى هريرة ﷺ قال ، قال رسول الله ﷺ تحاجت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين ، والمتجبرين وقالت الجنة : مالى لايدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ قال الله تعالى للجنة: "أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى ، وقال للنار : إنما أنت عذاب أعذب بك من أشاء من عبادى ، ولكل واحدة منهما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله فتقول قط قط فهنالك تمتلىء ويزوى بعضها إلى بعض ولايظلم الله عزوجل من خلقه أحدا ، وأما الجنة فان الله عزوجل ينشىء لها خلقاً" ومعنى قول الجنة " لايدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم " أى المحتقرون بينهم الساقطون من أعينهم ، هذا بالنسبة إلى ماعند الأكثر من الناس .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الايمان باب تحريم الكبر ٨٩/٢ بشرح النووى.

(٢) العتل : الغليظ الجافى .

(٣) الجواظ : بفتح الجيم وتشديد الواو هو الضخم المختال فى مشيته .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الأدب باب تحريم الكبر ٦١/٤ .

(٥) فى صحيحه . كتاب تفسير سورة ق ١٩٢/٣ .

وبالنسبة إلى ماعند الله هم عظماء رفعاء الدرجات لكنهم بالنسبة إلى ماعند أنفسهم لعظمة الله عندهم وخضوعهم له فى غاية التواضع لله والذلة فى العبادة فوصفهم بالضعف والسقط .

كما بين النبى ﷺ أن الكبر من الأسباب التى توجب غضب الله على المتكبر وعدم النظر إليه أو تزكيته يوم القيامة فقال النبى ﷺ فيما يرويه عنه أبو هريرة : "ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولايزكيهم ولاينظر إليهم ولهم عذاب أليم شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر"[١] . وكذلك فإن النبى ﷺ يبغض المتكبرين ولايحبهم ، فهم أبعد الناس منزلة يوم القيامة منه ﷺ يدلنا على ذلك مارواه جابر أن رسول الله ﷺ قال : "إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن من أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون[٢] والمتفيهقون[٣] قالوا : يارسول الله قد علمنا الثرثاريين والمتشدقين فما المتفيقهون ؟ قال : المتكبرون[٤] .

فعلى المسلم أن يتجنب هذه الرذيلة حتى لايحرم الجنة ويستحق الدخول فى النار . لهذا فإن لقمان عليه السلام نهى ابنه عن الكبر والاختيال حيث دفعه حبه الأبوى لابنه أن وجه إليه النصيحة قائلاً:

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه كتاب الايمان باب بيان غلظ تحريم سبل الازار ٧٢/١.

(٢) المتشدق :؛ المتطاول على الناس بكلامه ويتكلم بملء فيه تفاصحا .

(٣) المتفيهق : أصله من الفهق وهو الامتلاء ، وهو الذى يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه ويقرب به تكبرا .

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه ابواب البروالصلة ، باب ماجاء فى معالى الأخلاق ٣٧٠/٤ .

"ولاتسعر خدك للناس ولاتمشى فى الأرض مرحا إن الله لايحب كل مختال فخور"[1] . فها هو لقمان عليه السلام أدرك عاقبة الكبر السيئة ونهايته القبيحة لهذا نهى ابنه عنه وبين له علة ذلك وهو أن الله لايحب المتكبرين المختالين الفخورين بأنفسهم ، فالمختال : هو المتكبر الذى يظهر على بدنه أثر من كبره ، فى الحركات ، والأعمال فيرى فى نفسه أنها أعلى من نفوس الناس .

فالمختال من تمكنت فى نفسه ملكة الكبر وظهر أثرها فى عمله وشمائله فهو شر من المتكبر غير المختال ، والفخور هو المتكبر الذى يظهر الكبر فى قوله كما يظهر فى فعل المختال فهو يذكر ما يرى أنه ممتاز به على الناس . تبجحا بنفسه وتعريضا باحتقار غيره ، فالمختال الفخور مبغوض عند الله تعالى لأنه احتقر جميع الحقوق التى وضعها الله عز وجل وأوجبها للناس . وتعامى عن نعمه تعالى عليهم وعنايته بهم . فالمختال لايقوم بحقوق الوالدين ولاحقوق ذوى القربى لأنه لايشعر بما عليه من الحق لغيره وإذا كان لايقوم بحقوق هؤلاء فإنه من باب أولى لايقوم بحقوق اليتيم الضعيف أو المسكين الضائع أو الجار القريب لأنه مفتون بنفسه لهذا لايرجى منه البر والإحسان . فلماذا يتكبر الإنسان على إخوانه فى الإنسانية وهو يعلم أن الناس سواسية . كلهم لآدم وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . وكيف يتكبر الإنسان وأوله نطفه قذرة وآخره جيفة نتنه ، وهو بينهما يحمل العزرة ... وعلى من يتكبر ؟ هل يتكبر على إخوانه الذين اتحدوا معه

---

(١) سورة لقمان الآية ١٨ .

فى المنشأ؟ فكلهم خلقوا من طين ، كما أن نهايتهم واحدة وهى الموت كما قال تعالى:﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾[1] ، أم يتكبر بما يملك من مال أو جاه وهو يعرف أن كل ما على التراب تراب ، حيث أن هذه الدنيا زائلة قال تعالى:﴿**وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾[2] فكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده حيث أن العبد خليفة الله فى الأرض لوقت محدد ثم يرثها سبحانه وتعالى كما قال تعالى:﴿**إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون**﴾[3] ثم أنه مهما أعجب المرء بنفسه وأعتد بقوته وصورته ، فهو لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولا كما قال تعالى:﴿ **ولاتمشى فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا**﴾[4] فللمتكبر المختال عقوبة فى الدنيا وأخرى فى الآخرة .

أما التى فى الدنيا :

فإنه يعاقب بنقيض قصده ويخسف به الأرض كما خسف سبحانه وتعالى بقارون عندما خرج على قومه فى زينته متبخترا متعاليا ، فقال تعالى:﴿**فخسفنا به وبداره الأرض**﴾[5] .

---

(١) سورة طه الآية ٥٥ .

(٢) سورة الحديد الآية ٢٠ .

(٣) سورة مريم الآية ٤٠ .

(٤) سورة الإسراء الآية ٣٧ .

(٥) سورة القصص الآية ٨١ .

كما ثبت فى الصحيح عند مسلم[1] أن رسول الله ﷺ قال :" بينما رجل يجر ازاره إذ خسف بـه فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة" .

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد قال ، قال رسول الله ﷺ " بينما رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين أخضرين يختال فيهما ، أمر الله الأرض فأخذته فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة" وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبى الله – عليه السلام – ، وقيل : إن قارون لما خرج على قومه فى زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة ، فمر فى محفله ذلك على مجلس نبى الله موسى – عليه السلام – وهو يذكرهم بأيام الله ، فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ماهو فيه، فدعاه موسى – عليه السلام– وقال : ماحملك على ماصنعت ؟ فقال : ياموسى أما لئن كنت فضلت علىّ بالنبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا ، فاستوت بهم الأرض ، وعن ابن عباس قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة .

أما العقوبة الأخروية فهى :

أن يلقى الله وهو عليه غضبان . ويحرم من دخول الجنة . فعلى المسلم أن يتجنب الكبر ويحاول جهده أن يبتعد عنه وأن لايسلك أى طريق يؤدى إليه حتى لايستحق غضب الله وعقابه وأن يتعظ ويعتبر بعاقبة المتكبرين الذين عاقبهم الله على تكبرهم وتجبرهم فكانت نهايتهم سيئة فى الدنيا والآخرة ، فمن جنب نفسه هذه الرزيلة سلم وغنم ونال رضى الله وفاز برحمته ورعايته .

---

(١) فى صحيحه كتاب اللباس والزينة باب تحريم التبختر فى المشى مع اعجابه بثيابه ١٤٩/٦ .

الموضوع الخامس
خلق الحلم واحتمال الأذى

من محاسن أخلاق المسلم التي يجب أن يتحلى بها : الحلم واحتمال الأذى ، والحلم : عبارة عن كظم الغيظ وكسر شوكة الغضب من غير ذل أو هوان . وعلى هذا فالحلم له معنيان :

المعنى الأول :

يأتي الحلم بمعنى العقل واللب والفهم كما في قوله تعالى:﴿**أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون**﴾[1] .

والمعنى الثاني :

أن الحلم يأتي بمعنى العفو عن السيئة والتجوز عن الخطيئة وهذا المراد من قوله تعالى:﴿**وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما**﴾[2] وكما في قوله تعالى:﴿**وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغي الجاهلين**﴾[3] .

فالحلم من مزايا الإسلام الحميدة ؛ لأنه يزين صاحبه حتى يصبح محبوبا من جميع الخلق ، وحد الحلم هو ضبط النفس عند هيجان الغضب ، وقد يحتاج صاحب الحلم إلى مجاهدة حتى يستطيع اعتياد

---

(١) سورة الطور الآية ٣٢ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٣ .

(٣) سورة القصص الآية ٥٥ .

الحلم ..فيصبح بذلك أمرا اعتياديا فلا يهيج غيظه بسرعة . فالحلم يدفع صاحبه إلى أسمى الدرجات وهو من صفات الأنبياء والمرسلين والأئمة الأطهار وغيرهم من الرجال العظام قال تعالى فى وصف خليله ابراهيم -عليه السلام- بالحلم:﴿**إن إبراهيم لحليم اواه منيب**﴾(١) وقال تعالى فى وصف إسماعيل:﴿**فبشرناه بغلام حليم**﴾(٢) لأنه لا أحلم ممن ضحى بنفسه فى سبيل استجابة أمر ربه وطاعة والده .

كما بلغ سيدنا محمد ﷺ فى الحلم شأوا عظيما ودرجة عالية لايستطيع أن يصلها انسان ولايحيط بوصفها قلم أو لسان يدلنا على ذلك آيات كثيرة منها قوله تعالى:﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾(٣) وقال تعالى:﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾(٤) ، فلقد كان رسول الله ﷺ الرحمة المهداه للعالمين . وبفضل هذه الرحمة تحمل الكثير من المشاق من أجل نشر دعوته ، فلو كان عليه - الصلاة والسلام - جافا فى معاملته لقومه أو كان غليظا - وحاشاه من ذلك - لنفر الناس من دعوته ولما دخلوا فى دينه ولكن الواقع أنه رحيم بقومه رؤوف بهم يحرص أشد الحرص على دخولهم فى الإسلام فكان كلما ازدادوا فى الفساد وتمادوا فى الطغيان يشتد حزنه وألمه لعدم استجابتهم لدعوته وخوفا عليهم من عاقبة كفرهم حتى قال الله تعالى فيه:﴿**فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا**

---

(١) سورة هود الآية ٧٥ .

(٢) سورة الصافات الآية ١٠١ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .

الحديث أسفا﴾[1] أى لاتهلك نفسك من بعد توليهم عن الإيمان وإعراضهم عنه ، أسفا وحسرة عليهم فليس من حقك أن تفعل ذلك إن عليك إلا البلاغ وليس عليك الهداية:﴿**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء**﴾[2] ولكن الرسول ﷺ لم ييأس من رحمة الله ، بل استمر فى دعوتهم وتحمل الكثير من آذاهم فى سبيل الله طمعا فى هدايتهم فكان يقول :" اللهم أهدى قومى فإنهم لايعلمون "، بل بلغ من عطفه عليهم وحبه لهم أن الله عندما أرسل إليه ملك الجبال ، ليأمره بما يشاء عفا عنهم ﷺ وقال : أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لاشريك له . يدلنا على ذلك ما رواه عروة بن الزبير أن عائشة-رضى الله عنها- حدثته أنها قالت لرسول الله ﷺ : يارسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ، فقال : " لقد لقيت من قومك مالقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال فنادانى ملك الجبال وسلم علىَّ ثم قال يامحمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فما شئت إن شئت ان أطبق عليهم الأخشبين فقال له رسول الله ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لايشرك به شيئاً[3].

---

(١) سورة الكهف الآية ٦ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٢ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الجهاد باب مالقى النبى ص من أذى المشركين ١٨١/٥ .

فمازال يعالجهم حتى كان منهم الصديقون والأبرار الذين بذلوا النفس والنفيس لهداية الخلق وماذلك إلا نتيجة تخلقه بالحلم عمن جهل والعفو عمن أساء فى حقه حيث كان لايغضب إلا أن تنتهك حرمات الله تعالى فكان صدره الشريف يتسع لكل صنوف الأذى ، تقول السيدة عائشة – رضى الله عنها– : "ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ومانيل منه شىء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شىء من محارم الله فينتقم لله عز وجل"(١)

فلم يكن الرسول ﷺ فاحشا ولايجزى السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح فلا غرابة إذا كان الرسول ﷺ دائم البشر ، حسن الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ أو غليظ ، ولاصخاب ولا فحاش ، ولاعتاب ولامداح ، يتغافل عما لايشتهى فلا يطلب عورة أحد ، ولايذم ، ولايتكلم إلا حينما يرجو ثوابه ونفعه .

فقد كان حلمه ﷺ يتسع مالا يتسع حلم أصحابه وهم أصحاب حلم وأناة ، وكان فى كل ذلك معلما رفيقا وحليما من ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : إن أعرابيا بال فى المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به فقال لهم رسول الله ﷺ :" دعوه وأهريقوا على بوله ذنوبا من ماء أو سجلا من ماء فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"(٢) .

فبهذه المعاملة الطيبة والخلق الفاضل كسب الرسول ﷺ محبة الناس ومودتهم ، وأيضا محبة الله ، حيث أن الحلم والأناة صفة يحبها الله .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الفضائل باب مباعدته للأثام وانتقامه لله عند انتهاك حرماته ٨٠/٧ بشرح النووى .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الأدب ٦٩/٤ فتح البارى .

لهذا اتسع حلم النبى ﷺ حتى يشمل قومه الذين تآمروا عليه ليلة الهجرة فلما مكنه الله منهم قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء . وكأنهم لم يرتكبوا معه شيء مع أنهم بالغوا فى أذاه والنيل منه ، فالعفو عند المقدرة من شيم الكرام .

ولم يقتصر حلم الرسول ﷺ على أهله وصحبه فقط بل كان يمتد إلى خدمه . فهذا أنس رضي الله عنه يقول :"خدمت النبى ﷺ عشر سنين ، فما قال لى أف ولا لم صنعت ولا ألا صنعت"(١) .

فليتنا نقتدى برسولنا الكريم فنحسن معاملة من جعلهم الله تحت أيدينا فلا نحملهم مالا طاقة لهم به فهم بشر مثلنا ألجأتهم الفاقة إلى خدمتنا لقاء مبلغ زهيد من المال ليسدوا به رمقهم ويغنيهم عن سؤال الناس الحافا ، فعلينا أن نتق الله فيهم ونتجاوز عن هفواتهم وذلاتهم ونعفو ، ونصفح عن جهلهم لننال رضى الله وثناءه لأن الله مدح الحلماء وسماهم بالمتقين ووعدهم جنات عرضها السموات والأرض فقال تعالى:﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾(٢)

ولقد طبق صحابة رسول الله هذه الآية : فكظموا غيظهم عمن أساء إليهم ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل أحسنوا إليهم ، وعلى رأس هؤلاء أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ ، ويظهر ذلك جليا فى موقف

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الأدب ، باب حسن الخلق والسخاء ٥٦/٤ من الفتح .

(٢) سورة آل عمران الآيتان ١٣٣،١٣٤ .

الصديق من حادثة الإفك التى روجها المنافقون وخاض فيها بعض المسلمين منهم مسطح بن أثاثة ابن خالة أبى بكر . فغضب أبو بكر من تلك الفرية أشد الغضب ، وكيف لا وقد اتهموا فلذة كبده بشىء هى بريئة منه براءة الذئب من دم يوسف ، ونشروا تلك الفرية بين مجتمع المدينة ، فتأثر أبو بكر من ذلك وحلف أن يقطع نفقته عن مسطح جزاء اشتراكه فى تلك الحادثة فنزل قوله تعالى:﴿**ولايأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم**﴾[(١)] فالله سبحانه وتعالى يأمر أبا بكر فى هذه الآية بان يعفو عمن أساء إليه ويطلب منه أن يعيد العلاقة مع ابن خالته ويجرى عليه النفقة كما كانت من قبل لاعتبار إنسانى هو الرحمة بأصحاب الحاجة فى المجتمع وفى ذلك مصلحة الأمة كلها لذا كان التعقيب فى الآية هو لفت أنظار من وجه إليهم طلب العفو إلى أنهم من غير شك إذا أخطأوا وهم من بنى الإنسان يودون أن يغفر الله لهم . ثم من جهة ثانية يشمل هذا التعقيب لفت أنظارهم لما عليه الله من صفتى المغفرة والرحمة والله غفور رحيم ، فاستجاب أبو بكر لذلك قائلا:"بلى ياربنا" واستمر فى اعطاء النفقة لابن خالته وقال:"والله لاأقطعها عنه ابداً" فلا غرابة إذا صدر هذا من صحابة رسول الله ﷺ لأنهم تربوا فى مدرسته ذات النهج الربانى. لهذا صاروا مشاعل نور تضىء للناس طريقهم إذا ادلهمت الظلمات فتقودهم إلى طريق الصلاح والفلاح ولئن كان سبب نزول هذه الآية موقف أبى بكر مع قريبه حيث قطع النفقة فإن سلفنا الصالح أدرك أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب . فكانوا نموذجا فريدا فى التحلى

---

(١) سورة النور الآية ٢٢.

بالعفو والصفح عمن أساء إليهم . يدلنا على ذلك تاريخهم المجيد الملىء بالقصص المعبرة عن أخلاقهم وتسامحهم ، فقد روى أن أحدهم أمر جاريته أن تحضر ماء ساخنا لكى يتوضأ فلما أحضرت الماء سقط الإناء من يدها فوقع الماء على سيدها فقالت الجارية : والكاظمين الغيظ، فقال لها سيدها : كظمت غيظى ، فقالت : والعافين عن الناس . فقال لها : عفوت عنك ، فقالت : والله يحب المحسنين .فقال : اذهبى فأنت حرة لوجه الله ، ياله من موقف عظيم يستحق الإعجاب والثناء ، قل من يصبر فيه ويكظم غيظه ، فضلا عن أن يتعداه إلى الإحسان كما فى هذه الحادثة ، وغيرها كثير ، إنها العقيدة الإسلامية التى صاغت هذه النفوس الطيبة فأخرجت جيلا ضرب أروع المثل فى الأخلاق الحميدة وحسن المعاملة يشهد بذلك الأعداء قبل الأصدقاء ، فليت مسلمى العصر الحاضر يقتدون بأسلافهم فيتخلقوا بأخلاقهم وينهجوا نهجهم ، ليسعدوا دنيا وأخرى ، وما ذلك على الله ببعيد إنه على مايشاء قدير .

الموضوع السادس

الصبر

تعريف الصبر لغة :

هو نقيض الجزع . يقال: صبر يصبر صبرا ، فهو صابر وصبرته أى حبسته[1] . قال تعالى:﴿**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه**﴾[2]

والصبر شرعا :

هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسهما عنه[3] أى حبسها على طاعة الله تعالى بالمحافظة عليها دواما، ورعايتها إخلاصا وتحسينها علما .

وهو قوة إيجابية تدفع النفس إلى أداء الواجب ، وقوة سلبية تحول بين المرء وعمل الشر .

وهو كف النفس عن المعاصى ، وثباتها فى مقابلة الشهوات ومقاومة الهوى .

وهو الرضى بقضاء الله وقدره دون شكوى فيه ولا معه ، فالصبر من الفضائل الخلقية التى يحتاج إليها المسلم فى دينه ودنياه ، ولابد أن

---

(١) لسان العرب ٤/٤٣٨-٤٣٩ .

(٢) سورة الكهف الآية ٢٨ .

(٣) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٢٧٣.

يبنى عليها أعماله فهو من محاسن أخلاق المسلم التى يتحلى بها العبد حيث يحث نفسه على ماتكرهه من عبادة الله وطاعته ، ويلزمها كذلك إلزاما ويحسبها دون معاصى الله فلا يسمح لها باقترافها ولايأذن لها فى فعلها فأقدار الله جارية ، وأن حكمه نافذ صبر العبد أو جزع ، غير أنه مع الصبر الأجر ، ومع الجزع الوزر .

حكم الصبر

إن الصبر واجب بالكتاب والسنة وإجماع الأمة وهو كذلك بالضرورة العقلية .

وقد ذكر الله تعالى الصبر فى كتابه العزيز فى حوالى نيف وسبعين مرة ولم يذكر فضيلة أخرى بهذا المقدار فهذا يدل على عظم أمره وسمو مكانته لأنه أساس كثير من الفضائل بل هو أهمها .

فما من فضيلة إلا وهى محتاجة إليه ، لهذا أمر الله تعالى بالصبر ووعد الصابرين بالفلاح فقال تعالى:﴿**ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾(١) .

وقال سبحانه:﴿**واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور**﴾(٢) .

كما أمر سبحانه بالاستعانة بالصبر كما فى قوله تعالى:﴿**ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين**﴾(٣) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٠٠ .

(٢) سورة لقمان الآية ١٧ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٥٣ .

وأثنى على الصابرين فقال جل ذكره: ﴿والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾[1]

وأما السنة النبوية فهى زاخرة بالأحاديث الدالة على وجوبه منها: قال ﷺ :" عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له"[2] .

وأما الإجماع فقد قال ابن قيم الجوزية[3] :"وهو واجب بإجماع الأمة" .

قال الفخر الرازى[4] :"اعلم أن الصبر واجب إذا كان من قبله تعالى لأنه يعلم أن ذلك عدل وحكمة فأما من لم يكن محققا فى الإيمان كان كمن قال فيه " ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والأخرة﴾[5] .

فأما مايكون من جانب الظلمة فلا يجب الصبر عليه مثاله : أن المراهق يلزمه أن يصبر على مايفعله به أبوه من التأديب ، ولو فعل به غيره لكان له أن يمانع بل يحارب "أ.هـ

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الزهد .باب فى أحاديث متفرقة ١٢٥/١٨ شرح النووى .

(٣) مدارج السالكين ١٥٢/٢ .

(٤) التفسير الكبير . مفاتيح الغيب ١٥١/٤ .

(٥) سورة الحج الآية ١١ .

فالصبر ضرورة دنيوية وفريضة شرعية ، وحاجة الإنسان إلى التخلق بخلق الصبر ماسة وملحة ، فلا يستطيع إنسان أن يعايش الناس مالم يتخلق بالصبر.

وهو ضرورى للإنسان ليبلغ آماله ، وتنجح مقاصده ، فمن صبر ظفر ولولا الصبر لما حصد الزارع بذرة ... وهكذا كل الناجحين فى الدنيا إنما حققوا آمالهم بالصبر .

هكذا أمر الدنيا . فكيف بمن أراد الفلاح فى الآخرة ؟

لاشك أن حاجته للصبر أوكد ، وضرورته إليه أشد وألزم خاصة وقد حمل الأمانة التى تنوء بحملها السموات والأرض والجبال .

فمن تأمل أقدار الله الجارية يرى العناية الإلهية تسوق الينا الشدائد لحكمة عالية . والجاهل هو الذى يحزن ويتبرم ويظهر الجزع والسخط عندما يصاب بمكروه أما العاقل فيتلمس وجوه الخير فيما يبتليه الله به من الشدائد ولولا الصبر لانهارت نفس الإنسان من البلايا التى تنزل عليه، ولأصبح عاجزا عن السير فى ركب الحياة فالصبر نصف الإيمان . فهو النعمة الروحية .

منزلة الصبر

إن المتتبع للآيات التى ذكر الله تعالى فيها الصبر ولحديث رسول الله ﷺ يتبين بجلاء اقتران الصبر بالقيم العليا فى الإسلام اقترانه باليقين . قال تعالى:﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾[١] .

اقترانه بالشكر . قال جل ذكره:﴿**ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور**﴾[٢]

وكذلك جمع رسول الله ﷺ بين الشكر والصبر فقال:" عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له"[٣] .

أيضا قرنه الله تعالى بالتوكل ، فقال سبحانه:﴿**الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون**﴾[٤] وقال:﴿**نعم أجر العاملين * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون**﴾[٥] .

وقرنه بالصلاة فى قوله تعالى:﴿**ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين**﴾[٦] .

---

(١) سورة السجدة الآية ٢٤ .

(٢) سورة لقمان الآية ٣١ .

(٣) سبق تخريجه ص١٥٠ .

(٤) سورة النحل الآية ٤٢ .

(٥) سورة العنكبوت من الآيتين ٥٨،٥٩ .

(٦) سورة البقرة الآية ١٥٣ .

وقرنه بالتسبيح والاستغفار قال تعالى:﴿**واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم**﴾[1] .

وقرنه بالجهاد فقال جل ذكره:﴿**ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم**﴾[2]

وقرنه بالتقوى فى قوله:﴿**وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور**﴾[3] .

وقرنه بالحق فى قوله تعالى:﴿**وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾[4].

وقرنه بالرحمة فى قوله سبحانه:﴿**وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة**﴾[5] .

هذا بالإضافة إلى اشتمال الصبر على أخلاق الإسلام .

فالعفة صبر على شهوة البطن والفرج .

والشجاعة صبر فى ساحات الوغى .

والقناعة صبر على الكفاف واليسير .

والحلم صبر على دواعى الانتقام عند ثورة الغضب .

وسعة الصدر صبر عند الضجر .

---

(١) سورة الطور الآية ٤٨ .

(٢) سورة النحل الآية ١١٠ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٦ .

(٤) سورة العصر الآية ٣ .

(٥) سورة البلد الآية ١٧ .

والرضى بالقضاء صبر على المصيبة .

وكتمان السر صبر على إخفاء أمره .

وضبط النفس صبر على دواعى شهوات النفس .

والزهد صبر على فضول العيش .

وبذلك فإن المسلم لايمكن أن يستغنى عن الصبر فى كل حال من أحواله .

أقسام الصبر

الصبر ثلاثة أقسام :

١- الصبر على الطاعة :

وذلك بالامتثال لأوامر الله تعالى ، مهما تكلف العبد فيها من مشقة أو جهد . كالصبر على الصلاة والصيام وغيرهما .

فالصبر على الطاعة شديد وشاق لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهى الربوبية . فمن العبودية مايكره بسبب الكسل كالصلاة. ومنها مايكره بسبب البخل كالزكاة . ومنها مايكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد .

فالعبادات المختلفة فى جميع صورها ، وإن كانت فى الحقيقة ألوانا من المتع لمن شرح الله صدره ، كما قال ﷺ "..... وجعلت قرة عينى فى الصلاة"[1] . وكما يصرح بذلك أيضا قوله ﷺ لبلال إذا حان وقت الصلاة :" أرحنا بها يابلال " .

---

(١) اخرجه النسائى فى سننه ، واحمد فى مسنده ١٢٨/٣ .

ولكن ليس كل الناس يدرك هذه السعادة فى العبادة ، فلابد مع الأمر بالعبادة من الأمر بالصبر على التزامها وأدائها . قال تعالى:﴿**فاعبده واصطبر لعبادته**﴾[1] . كما قال جل ذكره:﴿**وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها**﴾[2] . والخطاب هنا وإن كان لرسول الله ﷺ فهو خطاب لأمته فى شخصه .

وعبر عن الصبر على أداء العبادات بقوله ﴿**واصطبر**﴾ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، فهى تشير إلى حاجتنا إلى صبر صابر لتؤدى فرائض الله التى افترضها علينا .

فالانسان يشق طريقه إلى الله بين أشواك كثيرة ، فهو بين نفس ترديه وشيطان يستهويه .

وفى الحديث الشريف:" حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات"[3] .

وبسبب هذه المكاره التى حفت بها الجنة كانت حاجتنا إلى الصبر لأداء فرائض الله .

٢- الصبر عن المعاصي :

وذلك باجتناب كل مانهى الله تعالى عنه ، وكل مايعرض الإنسان لغضب الله وسخطه كما جاء فى الآية الجامعة:﴿**إن الله يأمر بالعدل**

---

(١) سورة مريم الآية ٦٥ .

(٢) سورة طه الآية ١٣٢ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الجنة وصفه نعيمها وأهلها ١٦٥/١٧ شرح النووى .

والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾[1] .

وقال ﷺ :" المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه"[2]

إن معاصى اللسان كالغيبة والكذب والاستحقار أصبحت مألوفة لدى الناس ، فنرى الإنسان يطلق لسانه طول النهار فى أعراض الناس ولايستنكر ذلك ، والعاقل من يترك المعاقبة والمكافأة بالمثل ، بل يصبر على أذاهم . قال تعالى:**﴿واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾**[3] ، وقال سبحانه:**﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾**[4] أى تصبروا عن المكافأة .

عن أبى هريرة أن رجلا قال يارسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى وأحسن اليهم ويسيئون إلىّ وأحلم عنهم ويجهلون علىّ فقال: لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ولايزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك[5] فلا نقابل الشر بالشر ، ولكن علينا بالصبر الجميل ونستعين بالله على مايفعلون قال تعالى:**﴿فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون﴾**[6] .

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠ .

(٢) أخرجه ابن ماجه والنسائى .

(٣) سورة المزمل الآية ١٠ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨٦ .

(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب البر والصله . باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ١١٥/١٦شرح النووى .

(٦) سورة يوسف الآية ١٨ .

والصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر . وأنبياء الله جميعا يمثلون هذا النوع من الصبر حيث قالوا ردا على أذى أقوامهم : **﴿ولنصبرن على ماآذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾**(١)

ومن ثم لم يكن بين البشر أئمة يقتدى بهم فى الصبر أعظم من الأنبياء والصالحين إذ لم يبتلى أحد من الناس كما ابتلوا ، ولم يصبر أحد كما صبروا فمنذ آدم أبو البشر ، ونوح أول الرسل إلى سيدنا محمد ﷺ خاتم النبيين والأنبياء جميعا يخوضون جبالا من المشاق والمصائب والأهوال كل ذلك فى سبيل تبليغ ما أمروا به فكانوا يصبرون على ذلك .

وقد ضرب النبى ﷺ المثل الأعلى فى الصبر على كل ما واجهه فى سبيل تبليغ رسالته السماوية فكان يتحمل أذى قومه وتعذيبهم له ولأتباعه حتى اضطروه إلى الهجرة إلى المدينة ليستطيع نشر رسالته فى سلام وأمان ، ومع ذلك لحقوه بشرهم وأذاهم فالتقى الجيشان أولا فى غزوة بدر فكان النصر للمسلمين ثم عادوا ثانيا فتقابلوا فى غزوة أحد حيث انهزم المسلمون . فضربوا الرسول وأدموه وكسروا رباعيته فشق ذلك على أصحابه فقالوا لو دعوت عليهم فقال:" إنى لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعيا ورحمة ، اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون".

كما كان النبى ﷺ يحث صحابته على الصبر فى سبيل الدين ، يدل على ذلك مارواه خباب قال أتيت النبى ﷺ وهو متوسد برده وهو فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلت :ألاتدعو الله ، فقعد وهو محمر وجهه فقال:" لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مادون

---

(١) سورة إبراهيم الآية ١٢ .

عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين مايصرفه ذلك عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضر موت ما يخاف إلا الله"[1] .

٣- الصبر على البلاء :

لا أحد يسلم من آلام النفس ، وأمراض البدن ، وفقدان الأحباء ، وخسران المال .

وهذا مالايخلو منه بر ولا فاجر ، ولامؤمن ولاكافر ، فالمؤمن يتلقى هذه المصائب برضى وطمأنينة ، ويعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وماأخطأه لم يكن ليصيبه .

قال تعالى:﴿**ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين**﴾[2]

ومن لطف الله ورحمته بعباده أنه جعل البلاء:(بشيء من الخوف..) الآية ليدل على التقليل مراعاة لضعف العباد وتخفيفا عليهم ورحمة بهم.

روى أنس بن مالك ﷺ قال: مر النبى ﷺ بإمرأة تبكى عند قبر فقال:اتق الله واصبرى . قالت :إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى ،ولم تعرفه، فقيل لها : إنه النبى ﷺ ، فأتت باب النبى فلم تجد عنده بوابين فقالت : لم أعرفك ، فقال:"إنما الصبر عند الصدمة الأولى"[3] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه .كتاب المناقب . باب مالقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١٦٥/٨ من الفتح .

(٢) سورة البقرة الآية ١٥٥ .

(٣) أخرجه البخارى . كتاب الجنائز باب زيارة القبور ٣٩١/٣-٣٩٢ من الفتح .

وإنما أمرنا النبى ﷺ بالصبر لأن المؤمن معرض دائما للبلاء . كما قال النبى ﷺ: "مايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وماعليه خطيئة"[1]

كما قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة عنه حيث قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمن كمثل الزرع لاتزال الريح تميله ولايزال المؤمن يصيبه البلاء ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لاتهتز حتى تستحصد"[2] .

لذلك وعد النبى ﷺ الصابرين على البلاء بمحو الخطايا وتكفير الذنوب فقال:" مايصيب المسلم من نصب ولاوصب ولاهم ولاحزن ولاأذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه"[3] فكل مايصيب المسلم من نصب أومرض أو حزن أو أى شىء يسىء إليه أو يضايقه فإنه تكفير لذنوبه وخطاياه وتنقية لنفسه من الأدران ، وذلك طبعا للصابر المحتسب الراضى بقضاء الله الراجى عفوه وغفرانه ، لهذا وصف الله المؤمنين بخلال طيبة وكثيرة وفى مقدمتها الصبر قال تعالى:﴿**إنما يتذكر أولوا الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق . والذين يصلون مأمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم**

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه أبواب الزهد ، باب فى الصبر على البلاء .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز١٣٦/٨ .

(٣) أخرجه البخارى كتاب المرضى باب ماجاء فى كفارة المرضى٢٠٨/١٢- ٢٠٩، من الفتح .

وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾[1] .

وفى هذا المجال كان صبر أنبياء الله مثلا يقتدى فأيوب صبر على مرضه وفقد أهله ، ويعقوب صبر على فراق ولده ، وكيد أبنائه ، ويوسف صبر على السجن والافتراء والتشويه الذى مارسته امرأة العزيز قبل أن يظهر الحق .

ولهذا قال ﷺ : "أشد الناس بلاء : الأنبياء ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل"[2] فالصبر على بلاء الدنيا لايقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين ولذلك قال ﷺ:" أسألك من اليقين ماتهون على به مصائب الدنيا"[3] فهذا صبر مستنده حسن اليقين .

وقال عليه الصلاة والسلام : "مامن عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى:**﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾** اللهم اؤجرنى بمصيبتى وأعقبنى خيرا منها إلا فعل الله به ذلك"[4] .

فالصبر اذن عنصر من عناصر الرجولة الناضجة والبطولة الكاملة، والصابر هو الذى يتلقى المكاره بالقبول ويراها من عند الله ويبذل كل مجهوده فى مقاومة الصعاب دون يأس أو هلع .

---

(١) سورة الرعد الآيات من ١٩-٢٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب المرض . باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ٢١٥/١٢ فتح البارى .

والترمذى فى سننه . كتاب الزهد . باب ماجاء فى الصبر على البلاء ٦٠٢/٤ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) أخرجه الترمذى .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه .

ومن ثم كان نصيب القادة من العناء والبلاء أكثر من غيرهم لما أوتوا من قوة تحمل ولما كلفوا به من أعمال ويؤيد هذا جواب النبى ﷺ حينما سئل أى الناس أشد بلاء ؟ فقال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وماعليه خطيئة[1] .

فضل الصبر

للصبر فضائل وخيرات فى الدنيا والآخرة منها :

١- معية الله مع الصابرين قال سبحانه:﴿**إن الله مع الصابرين**﴾[2] والمراد بالمعية هنا : الولاية والنصرة وإجابة الدعوة .

وقال تعالى:﴿**واصبروا إن الله مع الصابرين**﴾[3] وقد ذكرت هذه المعية فى عدة مواطن فى كتاب الله . وكفى بالصبر شرفا أن الله مع الصابرين بالمعونة والتأييد .

٢- محبة الله للصابرين لقوله تعالى:﴿**والله يحب الصابرين**﴾[4] .

٣- صلوات من الله ورحمة على الصابرين ، لقوله جل ذكره:﴿**وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله**

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب الزهد . باب ماجاء فى الصبر على البلاء ٢٨/٤ قال أبو عيسى : حديث حسن صحيح .

(٢) سورة البقرة من الآية ١٥٣ .

(٣) سورة الأنفال من الآية ٤٦ .

(٤) سورة آل عمران من الآية ١٤٦ .

وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[1]

ففى هذه الآية الكريمة جمع الله للصابرين الصلوات من الله والرحمة وضمن لهم الاهتداء وزف لهم البشرى .

عن ابن عباس قال : أخبر الله تعالى أن المؤمن إذا سلم لأمر الله ورجع واسترجع عند مصيبته كتب الله تعالى له ثلاث خصال : الصلاة من الله ، والرحمة وتحقيق سبيل الهدى.[2]

٤- النصر والمدد للصابرين ، كما فى قوله تعالى:**﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وماجعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾**[3] وقال ﷺ :"النصر مع الصبر والفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسرا"[4] .

٥- الوصول إلى منزلة الإمامة فى الدين :

قال ابن قيم الجوزية[5]:" سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين .

---

(١) سورة البقرة الآيات من ١٥٥-١٥٧ .

(٢) انظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان على مصحف التهجد للنيسابورى ٣٨٦/١.

(٣) سورة آل عمران الآيتان ١٢٥-١٢٦.

(٤) كشف الخفاء للعجلونى ، وقال : هذا الحديث من الأحاديث التى عليها مدار الإسلام ٣٤٨/٢.

(٥) مدارج السالكين ١٥٤/٢ .

ثم تلا قوله تعالى : ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾[1] .

والمعنى : وجعلنا من بنى إسرائيل أئمة وقادة ، وهم أنبياء بنى إسرائيل يهدون الناس بأمرنا ، ويدعونهم ويعظونهم ، وكانوا بآياتنا يوقنون ، كل ذلك لما صبروا على أحكام الدين وتكاليفه وصبروا على البلاء وعلى متاع الدنيا الزائل[2] .

٦- الحفظ من كيد الأعداء : قال تعالى:﴿**إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط**﴾[3] .

فى هذه الآية إرشاد من الله تعالى إلى أن يستعان على دفع مكايد الأعداء بالصبر والتقوى ، فمن كان لله كان الله له[4] .

٧- دخول الجنة : قال تعالى:﴿**أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما**﴾[5] .

قال القرطبى[6] :" الغرفة : الدرجة الرفيعة وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا . حكاه ابن شجره وقال الضحاك : الغرفة : الجنة" أ.هـ

---

(١) التفسير الواضح . د. محمد محمود حجازى ٦٩/٢١ .
(٢) التفسير الواضح .
(٣) سورة آل عمران الآية ١٢٠ .
(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٢٠/١ .
(٥) سورة الفرقان الآية ٧٥ .
(٦) فى تفسير القرطبى ٥٦/١٣ .

وقال تعالى:﴿**والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾[1] .

المراد بقوله ﴿**عقبى الدار**﴾ عاقبة الدنيا وهى الجنة ، لأنها التى أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها ... عن النبى ﷺ أنه كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار[2] .

عن أنس ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :"إن الله عزوجل قال : إذا ابتليت عبد بحبيبتيه فصبر عوضته عنهما الجنة . يريد عينيه" أى صبر على فقدهما محتسبا لأجرهما مدخرا له عند الله تعالى .

هذه الفضائل يسير من كثير . ولله در القائل :

الصبر مثل اسمه مذاقته : لكن عواقبه أحلى من العسل

---

(١) سورة الرعد الآيتان ٢٣-٢٤ .

(٢) تفسير الكشاف ٢/٢٨٦

الأمور التى تعين على الصبر

إن الصبر مر المذاق ، صعب على النفس البشرية ، ولابد من تعويدها عليه حتى تستسيغه عند المصائب والفتن ، ومن جملة الأمور التى تعين على الصبر وتهونه على النفس مايلى :

١- معرفة حقيقة الحياة الدنيا :

إذا عرف الإنسان حقيقة الحياة الدنيا ، اصطبر على مصائبها وبلائها.

فهى ليست جنة نعيم ، ولادار مقامة ، إنما هى ممر ابتلاء وتكليف . قال تعالى: ﴿**وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾[١] أى : تغر المؤمن وتخدعه فيظن طول البقاء وهى فانية . والمتاع : مايتمتع به .. ثم يزول ولايبقى ملكه .

قال قتادة : "هى متاع متروك توشك أن تضمحل بأهلها ، فينبغى للإنسان أن يأخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع"[٢]

ولقد أحسن من قال[٣] :

هى الدار دار الأذى والقذى : ودار الفناء ودار الغير

فلو نلتها بحذا فيرها : لمت ولم تقض منها الوطر

أيا من يؤمل طول الخلود : وطول الخلود عليه ضرر

إذا أنت شبت وبان الشباب : فلا خير فى العيش بعد الكبر

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٥ .

(٢) تفسير القرطبى ١٩٢/٤ بتصرف .

(٣) المرجع السابق .

فها هى الدنيا لاتدوم لأحد ، ولاتستقيم على حال ، ولا يقر لها قرار، فيوم لك وآخر عليك ، قال تعالى :﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾[1]. أى نداولها بين الناس من فرح وغم وصحة وسقم وغنى وفقر . والدولة: الكرة .

قال الشاعر :

فيوم لنا ويوم علينا ويوم نُساءُ ويومٌ نُسَرُ

وقد أحسن أبا البقاء الرندى القائل :

لكل شىء إذا ماتم نقصا فلا يغر بطيب العيش إنسان

هى الأيام كما شاهدتها دول فمن سره زمن ساءته أزمان

فسرور الدنيا أحلام نائم ، وظل زائل ، وسحابة صيف فلنأخذ حذرنا منها ولانغتر بها فمتاعها قليل وزائل مهما كثر قال تعالى : ﴿**قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى**﴾[2] وقال :﴿**فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل**﴾[3] .

٢- معرفة الإنسان نفسه :

لقد خلق الله تعالى الإنسان من عدم ، ومنحه الحياة ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنه ، فهو ملك لله ، فإذا نزل بالعبد نازل سلبه شيئا مما عنده ، فإنما استرد صاحب الملك بعض ماوهب ، ولاينبغى للمودّع أن يسخط على صاحب العارية إذا استردها .

---

(١) سورة آل عمران من الآية ١٤٠ .

(٢) سورة النساء من الآية ٧٧ .

(٣) سورة التوبة من الآية ٣٨ .

عن أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وحبة وابن حبه -رضى الله عنهما- قال : " أرسلت بنت النبى ﷺ أن ابنى قد احتضر فاشهدنا، فأرسل يقرىء السلام : ويقول: إن لله ماأخذ وله ما أعطى ، وكل شىء عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب .."الحديث[1] .

قوله : "إن لله ماأخذ " أى لاينبغى الجزع من أخذه لأن صاحب الحق إذا أخذ حقه لايجزع منه ، وقدم ذكر الأخذ على الإعطاء وإن كان متأخرا فى الواقع اهتماما بما يقتضيه المقام .

وقوله : "وله ما أعطى " يعنى أن الله تعالى إذا أعطى عباده شيئا فلا يخرج بذلك الإعطاء عن ملكه بل هو باق عليه ، بخلاف إعطاء المخلوق لمثله[2] .

عن أنس ﷺ قال : مات ابن لأبى طلحة من أم سليم فقالت لأهلها : لاتحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه ، فجاء فقربت عشاء فأكل وشرب ، ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها ، فلما أن رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت : ياأبا طلحة، أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ! قال : لا ، فقالت : فاحتسب ابنك ، قال : فغضب ثم قال: تركتنى حتى إذا تلطخت ثم أخبرتنى بابنى ، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ ، فأخبره بما كان ، فقال رسول الله ﷺ : بارك الله لكما فى ليلتكما قال : فحملت ، قال : وكان رسول الله ﷺ فى سفر وهى معه ، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الجنائز باب البكاء على الميت ٢٢٥،٢٢٤/٦ شرح النووى .

(٢) دليل الفالحين ١٥١/١.

المدينة من سفر لايطرقها طروقا ، فدنوا من المدينة فضربها المخاض، فاحتبس عليها أبو طلحة : وانطلق رسول الله ﷺ ، قال : يقول أبو طلحة : إنك لتعلم يارب أنه يعجبني أن أخرج مع رسول الله ﷺ إذا خرج وأدخل معه إذا دخل ، وقد احتبست بما ترى ، تقول أم سليم : ياأبا طلحة ماأجد الذى كنت أجد ، انطلق فانطلقنا وضربها المخاض حين قدما فولدت غلاما ، فقالت لى أمى : ياأنس لايرضعه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ ، فلما أصبح احتملته فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ ... الحديث"[1] .

ففى قصة أم سليم مع زوجها أبى طلحة دليل واضح على فهم السلف الصالح -رضوان الله عليهم- لهذه الحقيقة حيث عرفوا أنفسهم فعرفوا مقام ربهم .

٣- اليقين بالفرج القريب :

واليقين : هو العلم الذى لاشك معه ، وقال أهل الحقيقة هو رؤية العيان بقوة الإيمان لابالحجة والبيان ، وقيل : هو مشاهدة الغيوب بصفاء القلوب وملاحظة الأسرار بمحافظة الأفكار[2] .

هذا اليقين جدير بأن يضىء نفس المؤمن بنور الصبر ، ويقرب الفرج وأن وعد الله حق وآت لامحال .

قال تعالى : **﴿فاصبر إن وعد الله حق ولايستخفنك الذين لايوقنون﴾**[3] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الجنائز باب من لم يظهر حزنه عند المصيبة ٣/٤١٢-٤١٥ من الفتح .

(٢) دليل الفالحين ١/٢٥٦ .

(٣) سورة غافر الآية ٥٥ .

وقال سبحانه :﴿**فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا**﴾[1] أى إن مع الضيقة والشدة يسرا ، أى سعة وفرج ، وفى التكرار تأكيد للكلام ومن عادة العرب إذا ذكروا اسما معرفا ثم كرروه ، فهو هو أى لايتعدد، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره أى يتعدد .

قال ابن عباس : يقول الله تعالى خلقت عسرا واحدا ، وخلقت يسرين ، ولن يغلب عسر يسرين[2] . وجاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال :" لن يغلب عسر يسرين"[3] . وقال ابن مسعود : والذى نفس بيده لو كان العسر فى جحر ، لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، ولن يغلب عسر يسرين[4] .

٤- اليقين بحسن الجزاء :

لقد صرح الله تعالى فى مواضع كثيرة فى كتابه العزيز أن أجر الصابرين غير محدود ، ورزقهم غير معدود ، وأن الله تعالى يعوضهم على صبرهم خيرا ، ويمنحهم أجرا عظيما . فإذا عرف العبد ذلك رضى بما قدره الله له ،ولم يشك فى حسن الجزاء .

قال سبحانه : ﴿**نعم أجر العاملين . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون**﴾[5] .

---

(١) سورة الشرح الآيتان ٥،٦ .

(٢) تفسير القرطبى ٢٠/٧٣ .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب التفسير . سورة ألم نشرح ١٠/٣٤١ من الفتح .

(٤) تفسير القرطبى ٢٠/٧٣ .

(٥) سورة النحل الآية ٩٦ .

وقال جل ذكره : ﴿**ماعندكم ينفد وماعند اللـه بـاق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون**﴾[(١)]

وقال عز من قائل : ﴿**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾[(٢)]

٥- الاستعانة بالله :

إن من استعان بربه شعر بالطمأنينة فى قلبه قال تعالى:﴿**استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾[(٣)] .

ففى هذه الآية أمر الله تعالى بشيئين وبشر بشيئين .

أما اللذان أمر بهما :

الأول : الاستعانة بالله تعالى .

الثانى : الصبر على بلاء الله .

وإنما أمرهم أولا بالاستعانة بالله وذلك لأن من عرف أنه لامدبر فى العالم إلا الله تعالى انشرح صدره بنور معرفة الله تعالى وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء ، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء الله تعالى وتقديره . واستعداده بمشاهدة قضاء الله ، خفف عليه أنواع البلاء .

وأما اللذان بشر بهما :

فالأول : قوله :﴿**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده**﴾ وهذا معنى الإرث ، وهو جعل الشىء للخلف بعد السلف .

---

(١) سورة الزمر الآية ١٠ .

(٢) سورة الزمر الآية ١٠ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٢٨ .

والثانى : قوله :﴿**والعاقبة للمتقين**﴾ فقيل : المراد أمر الآخرة فقط، وقيل : المراد أمر الدنيا فقط وهو : الفتح ، والظفر، والنصر على الأعداء ، وقيل : المراد مجموع الأمرين[١] .

ولكن وصفهم بالمتقين إشارة إلى أن كل من اتقى الله تعالى وخافه فالله يعينه فى الدنيا والآخرة .

٦- التأسى بأهل الصبر :

إن التأمل فى سير الصابرين ، وماذاقوه من صنوف البلاء يعين على الصبر ، ويطفىء نار المصيبة ببرد التأسى . ومن هنا كان مواساة الناس بعضهم لبعض عند البلاء لها أثر عظيم فى تخفيف الأحزان ، وتثبيت القلوب.

ولذلك حرص القرآن الكريم على ذكر قصص الأنبياء السابقين ، تسلية للنبى ﷺ والمؤمنين ، وتثبيتا لقلوبهم ، ليتحملوا البلاء والفتن التى كانت تواجههم .

قال تعالى : ﴿**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك**﴾[٢] .

قال الألوسى[٣] : " وفائدة ذلك التنبيه على أن المقصود من الاقتصاص زيادة يقينه ﷺ ، وطمأنينة قلبه ، وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذى الكفار".

وفى موضع آخر يقول الله تعالى لحبيبه ﷺ : ﴿**فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولاتستعجل لهم**﴾[٤] .

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى ٢١٢/١٤ بتصرف .
(٢) سورة هود الآية ١٢٠ .
(٣) فى روح المعانى ١٦٧/١٢ .
(٤) سورة الأحقاف الآية ٣٥ .

قال مقاتل : "نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ يوم أحد ، فأمره الله عزوجل أن يصبر على ما أصابه كما صبر أولوا العزم من الرسل، تسهيلا عليه وتثبيتا له"(١) .

وفى الآية تصريح بوجوب الصبر على هذا الإيذاء بقوله (فاصبر) . أيضا فى قوله تعالى : ﴿**واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا**﴾(٢) .

فإذا ضاق صدره بما يفعلون ، وأدركه الحزن عليهم مما يمكرون وجد فى صبر إخوانه من الرسل مايشد أزره ، ويمضى عزمه ، ويذهب همه ، فهو ليس بدعا مما أصاب الرسل من قبله يقول تعالى:﴿**ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولامبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإى المرسلين**﴾(٣) .
أى إن الرسل الذين أرسلوا قبلك قد كذبتهم أقوامهم فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم لهم إلى أن نصر الله الرسل بالانتقام من أعدائهم المكذبين لهم(٤) .

وفى الآية إيماء إلى حسن عاقبة الصبر ، فمن كان أصبر كان حقيقا بالنصر إذا تساوت بين الخصمين وسائل الغلب والقهر .

وقد دلت التجارب على أن التأسى يهون المصاب ، ويفيد شيئا من السلوى .

---

(١) تفسير القرطبى ١٤٦/١٦ .

(٢) سورة المزمل الآية ١٠ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٣٤ .

(٤) تفسير المراغى ١١١/٧ .

٧- الإيمان بالقضاء والقدر :

على المسلم أن يعلم علم اليقين أن قضاء الله نافذ لامحالة ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

قال تعالى: **﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما أتاكم والله لايحب كل مختال فخور﴾**(١) .

وقوله تعالى: **﴿ماأصاب من مصيبة فى الأرض ولافى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها﴾** أى : ماأصابكم أيها الناس من مصائب فى الأرض كجدب وقحط وفساد زرع ، أو فى أنفسكم كمرض وموت أو ضيق فى المعاش إلا مكتوبة فى اللوح المحفوظ .

قال ابن عباس : "لما خلق الله القلم قال له أكتب ، فكتب ماهو كائن إلى يوم القيامة"(٢) .

ومعنى قوله : **﴿من قبل أن نبرأها﴾** أى نخلقها .

والخلاصة : إن كل شىء قدر فى الكتاب ، فكيف نفرح أو نحزن ؟

روى عكرمة عن ابن عباس قال : "ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً ، وغنيمته شكراً"(٣) .

فالحزن المذموم هو مايخرج بصاحبه إلى مايذهب عنه الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب ، والفرح المنهى عنه هو الذى يطغى على صاحبه ويلهيه عن الشكر .

---

(١) سورة الحديد الآيتان ٢٢،٢٣ .

(٢) انظر تفسير القرطبى ١٧/١٨٧ .

(٣) المرجع السابق .

وقال جعفر بن محمد الصادق : "يا ابن آدم مالك تأسى على مفقود لايرده عليك الفوت ، أو تفرح بموجود لايتركه فى يديك الموت"(١) .

قال الألوسى : "من علم أن الكل مقدر ، يفوت ماقدر فواته ، ويأتى ماقدر إتيانه لامحالة ، لايعظم جزعة على مافات ولافرحه بما هو آت ، وعلم كون الكل مقدرا"(٢) .

وقال الفضيل بن عياض فى هذا المعنى : "الدنيا مبيد ومفيد ، فما أباد فلا رجعة له ، وما أفاد آذن بالرحيل"(٣) .

فالركون للصبر عند المصايب أمر محمود بل واجب لأن مقادير الله نافذة سواء أرضى العبد أم سخط ، صبر أم جزع ، والعاقل هو الذى يتحلى بالصبر ويؤمن بالقضاء والقدر حتى لايحرم المثوبة .

إن التسليم بالقدر هو مقتضى العقل والدين معا ، وإلا فليفعل مايشاء فلن يغير من الواقع شيئا ، ولن يبدل سنن الله فى الكون ، وإنما يزيد العبد نفسه كمدا وغما وحسرة .

قال تعالى مخاطبا لرسوله ﷺ حين أذاه موقف قريش وتكذيبها له:**﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولامبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإى**

---

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر روح المعانى للألوسى ١٨٧/٢٧ .

(٣) تفسير القرطبى ١٨٧/١٧ .

المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولوشاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾[١] .

وقال تعالى لليائسين من نصر الله تعالى القانطين من رحمته : **﴿من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ﴾**[٢] .

قال النحاس[٣] : "من أحسن ماقيل فى هذه الآية أن المعنى من كان يظن أن لن ينصر الله محمدا ﷺ ، وأنه يتهيأ له أن يقطع النصر الذى أوتيه فليمدد بسبب إلىالسماء أى فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ثم ليقطع أى ثم ليقطع النصر إن تهيأ له فلينظر هل يذهبن كيده وحيلته مايغيظ من نصر النبى ﷺ " أ. هـ.

وقال أبو السعود[٤] :" وقد فسر النصر بالرزق فالمعنى : أن الأرزاق بيد الله تعالى لاتنال إلا بمشيئته تعالى فلابد للعبد من الرضا بقسمته فمن ظن أن الله تعالى غير رازقه ولم يصبر ولم يستسلم فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فإن ذلك لايغلب القسمة ولايرده مرزوقا"

وسئل فضيل عن الصبر فقال : هو الرضا بقضاء الله ، قيل : وكيف ذلك؟

قال :الراضى لايتمنى فوق منزلته[٥] .

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٣٣-٣٥ .

(٢) سورة الحج الآية ١٥ .

(٣) انظر فتح القدير للشوكانى ٤٤١/٣ .

(٤) فى تفسيره ٩٩/٥ .

(٥) احياء علوم الدين للإمام الغزالى ٧٦/٤ .

٨- أن يهون المصيبة فيخف وقعها :

إذا أصيب الإنسان بمصيبة فليذكر مصائب الآخرين ويحمد الله تعالى ، إذا لم تكن مصيبته أكبر منها .

قال الإمام الغزالى : "أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون أكبر منها ، إذ مقدورات الله تعالى لاتتناهى فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه ، فليشكر إذ لم تكن أعظم منها فى الدنيا ... وقال : قال رجل لسهل -رضى الله تعالى عنه- : دخل اللص بيتى وأخذ متاعى !فقال : اشكر الله تعالى ، لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ ولذلك استعاذ عيسى -عليه السلام- فى دعائه إذ قال : اللهم لاتجعل مصيبتى فى دينى . وقال عمر بن الخطاب -رضى الله تعالى عنه- : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم : إذ لم يكن فى دينى ، وإذ لم يكن أعظم منه، وإذ لم أحرم الرضا به ، وإذ أرجو الثواب عليه ... فإذن مامن إنسان أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل فى سوء أدبه ظاهرا وباطنا فى حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا . ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر ، ومن استحق أن يقطع يديك فترك إحداهما فهو مستحق للشكر . ولذلك مر بعض الشيوخ فى شارع فصب على رأسه طشت من رماد ، فسجد لله تعالى سجدة الشكر ، فقيل له : ماهذه السجدة ؟ فقال كنت انتظر أن تصب على النار ، فالاقتصار على الرماد نعمة"[١] .

---

(١) احياء علوم الدين ٤/١٣٤-١٣٥ بتصرف .

شروط الصبر

هذا والصبر فى كل الأحوال بجميع أقسامه - يحتاج إلى محاولة وتكلف من الإنسان حتى يصل إلى أرقى أنواع الصبر ألا وهو الصبر المحمود الجميل الذى ورد على لسان يعقوب - عليه السلام - كما ورد فى القرآن الكريم حين جاءه أبناؤه يزعمون أن الذئب قد أكل أخاهم يوسف بقوله: ﴿**قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون**﴾[١] .. وقد قالها مرة أخرى حين جاءوه يخبرونه بأن ابنه "بنيامين" سرق، وأخذ رقيقا جزاء سرقته: ﴿**قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم**﴾[٢] .

والصبر الجميل هو الذى لاشكوى معه، وفى الحديث " الصبر الجميل الذى لاشكوى فيه"[٣] أى إلى الخلق ولذلك قال يعقوب عليه السلام ﴿**إنما اشكوا بثى وحزنى إلى الله**﴾[٤] .

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه :

" قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدى المؤمن فلم يشكنى إلى عواده أطلقته من إسارى ثم أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه ثم يستأنف العمل"[٥] .

---

(١) سورة يوسف الآية ١٨ .

(٢) سورة يوسف الآية ٨٣ .

(٣) انظر تفسير أبى السعود ٢٦٠/٥ .

(٤) سورة يوسف الآية ٨٦ .

(٥) أخرجه الحاكم ٣٤٩/١ ، والبيهقى ٣٧٥/٣ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

فمن كمال الصبر كتمان المرض والفقر وسائر المصائب . فمن شكى همومه وأوجاعه للناس فكأنه يشكو الخالق للخلق .

قال الإمام الغزالى : "من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة"[1].

أيضاً من شروط الصبر أن يحتسب الأجر والثواب عند الله تعالى، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه تعالى ، قال جل وعلا : **﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾**[2] .

وأن يكون صبرهم ابتغاء مرضاة الله تعالى ، خالصا من شوائب الرياء قال سبحانه :**﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾**[3] .

كما أن الصبر المطلوب حال البلاء هو الصبر عند الصدمة الأولى ، وليس بعد فتور حر المصيبة .. فقد ورد أن النبى ﷺ مر على قبر ، فوجد عليه امرأة تبكى ، فقال لها : "اتق الله واصبرى" .. قالت : إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى فتركها وانصرف ، فقيل لها : ويحك يا امرأة إنه النبى ﷺ . فأتت باب النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين ، فقالت : يارسول الله لم أعرفك . فقال ﷺ :" إنما الصبر عند الصدمة الأولى"[4] .

---

(١) احياء علوم الدين ٧٨/٤ .
(٢) سورة النحل الآية ١٦ .
(٣) سورة الرعد الآية ٢٢ .
(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الجنائز باب الصبر عند الصدمة الأولى ٤١٤/٣-٤١٥ من الفتح ، ومسلم فى صحيحه . كتاب الجنائز باب الصبر عند الصدمة الأولى ٢٢٧/٦-٢٢٨ شرح النووى .

والصبر عند الصدمة الأولى : أى عند قوة المصيبة وشدتها ، والصدم : ضرب الشيء الصلب بمثله . الصدمة المرة منه[1] .

نماذج من صبر الأنبياء

إن التحلى بخلق الصبر هو السبيل الأكيد لابتغاء مرضاة الله تعالى ؛ حيث يدخل فيه أكثر أخلاق الإيمان ، وحرصا على توجيه المؤمنين إلى التخلى به وممارسته خلقا وسلوكا أمثلة خالدة لتطبيق الصبر وصور مشرفة تحملت الكثير من صنوف الأذى والعذاب من أجل إعلاء كلمة لا إله إلا الله . من هؤلاء الأنبياء :

١- صبر نوح -عليه السلام-

لقد لبث نوح -عليه السلام- ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى دون كلل ولا ملل قال تعالى : ﴿**ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ...**﴾[2] .

استخدم معهم كل أساليب الدعوة إلى الله : دعاهم فى الليل والنهار ، والسر والإجهار ، بالترغيب تارة والترهيب أخرى ، وكل هذا لم ينجح فيهم ، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ، ونصبوا له العداوة فى كل وقت وتوعدوا من آمن به بالرجم والإخراج .

قال تعالى : ﴿**لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين * قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى**

---

(١) النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ١٩/٣ .

(٢) سورة العنكبوت من الآية ١٤ .

رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون﴾[١] .

وقال جل ذكره : **﴿قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائى إلا فرارا * وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا * ثم إنى دعوتهم جهارا * ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا﴾**[٢] كان نوح – عليه السلام – قمة فى الصبر ، وآية فى الحلم على قومه .

ولكن لم يكن صبره على قومه فحسب ولكن تعداه إلى أهل بيته . فلم تكن زوجته سكنا له . رحيمة به واقفة بجانبه مواسية له لا . بل ابتلاه الله بها قال تعالى : **﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾**[٣] .

أيضا ابتلاه الله بابنه فقد أعرض عن أبيه ورفض الدخول فى الدين الإسلامى . وقد حاول نوح إنقاذ ابنه من الشرك ولكن هيهات ، قال تعالى : **﴿ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾**[٤] .

---

(١) سورة الأعراف الآيات ٥٩-٦٢ .
(٢) سورة نوح الآيات من ٥-٩ .
(٣) سورة التحريم الآية ١٠ .
(٤) سورة نوح ٢١ ، ٢٢ .

لقد استخدم نوح – عليه السلام – كل المراحل : مرحلة الدعوة ومرحلة الشرح ، ومرحلة الحجة ، وفى كل مرة لم يزدادوا إلا عصيانا وكفرا.

بعد هذا أخذ نوح – عليه السلام – يشكو إلى ربه عصيان قومه **﴿قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا * ومكروا مكرا كبارا﴾**[1] .

ولكن لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ورأى أنهم لا خير فيهم ، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق ، من فعال ومقال ، دعا عليهم دعوة غضب لله عليهم ، فلبى الله دعوته ، وأجاب طلبته قال الله تعالى : **﴿قال رب إن قومى كذبون * فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين﴾**[2] .

وقال سبحانه : **﴿فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر﴾**[3] .

وقال جلا علاه : **﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾**[4] .

هكذا جزاء الصابرين النصر والفوز بالدنيا والآخرة ، وعقاب المعاندين المخالفين ، العذاب فى الدنيا والآخرة .

٢- صبر إبراهيم -عليه السلام- :

لقد نشأ سيدنا إبراهيم – عليه السلام – فى بيئة كان كل أهلها يعبدون الكواكب والأصنام ، كانوا كلهم كفارا ، سوى إبراهيم الخليل . وامرأته سارة وابن أخيه لوط -عليه السلام- .

---

(١) سورة هود الآيتان ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) سورة الصافات الآيتان ٧٥ ، ٧٦ .
(٣) سورة الشعراء الآيتان ١١٧ ، ١١٨ .
(٤) سورة نوح من الآية ٢٥ .

وقد أتاه الله رشده في صغره ، وابتعثه رسولا واتخذه خليلا في كبره قال تعالى : ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين**﴾[1] .

وكان أول دعوته لأبيه ، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام ، لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له ، كما قال تعالى : ﴿**واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا * يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا * يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا**﴾[2] .

ثم دعا قومه الذين أصروا على ضلالهم حتى واقعة تحطيم الآلهة وتكسير الأصنام ، فأرادوا أن ينتقموا لآلهتهم ، فجمعوا حطبا وأطلقوا فيه النار ، وعلا شررها ، ثم ألقوا إبراهيم – عليه السلام – في النار مقيدا مكتوفا وهو صابر محتسب وهو يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل . قالها إبراهيم –عليه السلام– حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : "إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء"[3][4] .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٥١ .

(٢) سورة مريم الآيات من ٤١ – ٤٥ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه . كتاب التفسير سورة آل عمران ١٩٧/٩ من الفتح .

(٤) سورة آل عمران الآيتان ١٧٣ ، ١٧٤ .

ولم يكله الله إلى نفسه وكان أمره سبحانه أسرع فقال جل ذكره ﴿قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم﴾[1] .

وكما ابتلى إبراهيم بكفر قومه وإلقائه فى النار فقد امتحن بأن يذبح ابنه وحيده الذى جاءه على كبر ، وقد طعن فى السن .

وهذا اختبار من الله عز وجل لخليله ، فأجاب ربه وامتثل لأمره وسارع إلى طاعته . ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا :

﴿قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم﴾[2] .

هذا هو الإسلام : امتثال واستسلام وتنفيذ وصبر بلا جزع لولا أن تداركته رحمة الله تعالى وجاءت البشرى من السماء : **﴿وفديناه بذبح عظيم﴾** .

٣- صبر أيوب -عليه السلام- :

لقد قرن اسم نبى الله أيوب بالصبر ، وأصبح مضرب الأمثال فقالوا: صبر أيوب .

وهو من ذرية إبراهيم – عليه السلام – كما قرر سبحانه فى قوله **﴿ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون﴾**[3] .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٦٩ .

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٠٢-١٠٧ .

(٣) سورة الأنعام الآية ٨٤ .

قال ابن كثير[1] : قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم : "كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه ، من الأنعام والعبيد والمواشى والأراضى المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران" .

وقال[2] : "وحكى ابن عساكر : أنها كلها كانت له ، وكان له أولاد وأهلون كثير ، فسلب منه ذلك جميعه ، وابتلى فى جسده بأنواع من البلاء ، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر الله عز وجل بهما ، وهو فى ذلك كله صابر محتسب ، ذاكر لله عز وجل فى ليله ونهاره . وطال مرضه حتى عافه الجليس ، وأوحش منه الأنيس ، وأخرج من بلده وألقى على مزبلة ، وانقطع عنه الناس ، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته ، كانت ترعى له حقه ، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه ، وتعينه على قضاء حاجته ، وتقوم بمصلحته ، وضعف حالها ، وقل مالها ، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأوده - رضى الله عنها وأرضاها- وهى صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد وخدمة الناس ، بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة . فإنا لله وإنا إليه راجعون .."

ولم يزد هذا كله أيوب -عليه السلام- إلا صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا.

قال تعالى : ﴿**وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين**﴾[3] .

---

(١) فى قصص الأنبياء ٢٤٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) سورة الأنبياء الآيتان ٨٣ ، ٨٤ .

وقوله تعالى : ﴿**وذكرى للعابدين**﴾ أى : تذكرة لمن ابتلى فى جسده أو ماله أو ولده ، فله أسوة بنبى الله أيوب ، حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب ، حتى فرج الله عنه .

روى عن النبى ﷺ قال : "إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان .

فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين .

فقال له صاحبه : وما ذاك ؟

قال : منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به .

فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب: لا أدرى ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أنى كنت أمر بالرجلين يتنازعان ، فيذكران الله ، فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا فى حق .

قال : وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ، وأوحى إلى أيوب أن ﴿**أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب**﴾[1] فاستبطأته ، فتلقته تنظر وقد أقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان ، فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك ، هل رأيت نبى الله هذا المبتلى ؟ فوالله القدير على كل شىء ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا ، قال: فإنى أنا هو .

---

(١) سورة ص الآية ٤٢ .

قال : وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الورق حتى فاض"[(١)] .

هكذا فقد اختبر الله تعالى أنبياءه بأشد أنواع البلاء فلم يجزعوا ويعترضوا على ما أصابهم . بل كانوا صابرين محتسبين .

قال رسول الله ﷺ : "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل"[(٢)] .

وسير الصابرين من أنبياء الله تعالى كثيرة مثل يعقوب وموسى وعيسى وخاتمهم محمد ﷺ وإذا حاولنا سردها لطال بنا المقام . ولكن اكتفى بهذا القدر أعنى : نوح وإبراهيم وأيوب - عليهم السلام - .

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ص٢٤٧ .

(٢) سبق تخريجه ص١٦ .

الموضوع السابع
أدب الحــوار

إن الدارس المتأمل لآيات القرآن الكريم يجدها تحتوى على آداب جمة منها أدب الحوار . وحقيق علينا أولا أن نبين مفهوم الحوار لغة واصطلاحا .

أولاً : معنى الحوار لغة :

الحوار مصدر حار أى رجع ، والمحاورة المجاوبة ، والتحاور التجاوب[1] . قال ابن منظور : المحاورة مراجعة المنطق والكلام فى المخاطبة[2] .

ثانيا : معنى الحوار فى الاصطلاح :

هو مشاركة بين طرفين فى الكلام على سبيل التجادل أو التجاوب .

فالحوار هو أساس التخاطب والتفاهم بين البشر وهو وسيلة من وسائل الدعوى إلى الله .

وعلى الرغم من أهمية الحوار إلا أننا نجد كثيرا من الناس لا تدرك خطورة الحوار وأهميته ، وتتجاهل آدابه ، ولا يقدرها حق قدرها إلا القليل النادر .

فالكلمة لها خطورتها ، وقد بين الرسول ﷺ أثر الكلمة الطيبة وأثر الكلمة السيئة وما يترتب على كل منهما . قال ﷺ "إن الرجل ليتكلم

---

(١) انظر مختار الصحاح ص١٦١ .

(٢) لسان العرب لابن منظور ١٠٤٢/٢ .

بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة"(١).

وبذلك يتضح لنا أثر الكلمة الطيبة ، فعلى المسلم أن ينتقى الكلمة الطيبة فى حواره مع الآخرين ، فإن ذلك من أدب الحوار فى الإسلام فالكلمة رسالة وأمانة ومسئولية . ومن هنا تأتى أهمية انتقاء الكلمة فى الحوار ؛ لأنه وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله تعالى وإقامة الأدلة على وحدانيته تعالى ، وعلى صدق الرسل فيما يبلغون عن ربهم عز وجل .

أيضا فإنه وسيلة التخاطب بين الناس ، ومن ثم فلابد أن يقوم الحوار على آداب وأسس .

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ ٩٨٥/٢ .

آداب وأسس الحوار

للحوار آداب وأسس ينبغي على المسلم أن يلتزم بها فى حديثه مع الناس لأنها الطريق الوحيد لنيل رضى اللـه تعـالى ولكسب قلـوب النـاس، وقد وضع القرآن الكريم آداب وأسس الحوار فى ثنايا آياته منها :

١- أن يقوم الحوار على الصدق :

وقد أمـر اللـه تعـالى بـه فقـال : ﴿**يـا أيهـا الذيـن آمنـوا اتقـوا اللـه وكونوا مع الصادقين**﴾[١] وقال عز من قائل : ﴿**والـذى جـاء بـالصدق وصدق به أولئك هم المتقون**﴾[٢] .

ومن الحوارات التى قامت على الصدق والبعد عن الكذب فى القرآن الكريم الحوار الذى تم بين موسى وأخيـه هـارون عليهمـا السـلام وبيـن فرعون عليه لعنة الله ﴿**قال فمـن ربكمـا يـا موسـى * قـال ربنـا الـذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى * قـال فمـا بـال القرون الأولـى * قـال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى**﴾[٣] فالأخيار فى هـذه الآية ينطقـون بـالصدق والحق وهـو أقصـر الطـرق لكسـب ثقـة النـاس وجلب احترامهم وتقديرهم .

٢- اللين والرفق فى الحوار :

إن اللين فى الحوار يؤدى إلى كسب وجلب قلوب الناس والميـل إلـى المحاور والاستماع إليه .

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٩ .

(٢) سورة الزمر الآية ٣٣ .

(٣) سورة طه الآيات ٤٩-٥٢ .

ومن هنا يجب أن يكون الحوار فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ممزوجا باللين قال تعالى : **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾**[1] .

وقال ﷺ "إن الرفق لا يكون فى شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه"[2] وقال – عليه الصلاة والسلام– "إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف ومالا يعطى على سواه"[3] .

فالرفق خلق رفيع أوصى به الإسلام ، ونوه إليه القرآن الكريم قال تعالى : **﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾**[4] .

كما حث عليه رسول الله ﷺ . وما ذاك إلا لما له من آثار طيبة فى النفس والمجتمع فيؤلف القلوب ويقارب بين الأرواح وتتلاقى حوله الأفكار .

ومن صور الحوار فى القرآن الكريم الممزوج بالرفق واللين قصة إبراهيم –عليه السلام– مع أبيه وقومه ودعوته لهم إلى ترك عبادة الأصنام وتوحيد الله بالعبادة والتزامه بالأدب الجميل والخلق الرفيع والصبر الطويل قال تعالى : **﴿واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا * يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى**

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه : كتاب البر والصلة . باب فضل الرفق ١٦/١٤٦– ١٤٧ شرح النووى .

(٣) نفس المصدر السابق ١٦/١٤٦ .

(٤) سورة طه الآيتان ٤٣ ، ٤٤ .

أهدك صراطا سوياً * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا * يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا﴾[1].

نجد فى هذه الآيات أدب جم ولطف ولين وحب من إبراهيم -عليه السلام - فى حواره مع أبيه لدعوته إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام.

فقد بدأ دعوته -عليه السلام- لأبيه مناديا له بلطف بقوله "يا أبت" ولم يكتف بذكرها مرة واحدة بل كررها عدة مرات فعندما قدم له البرهان العقلى على بطلان معتقده وعبادته للأصنام قال له : يا أبت لم تعبد أحجاراً لا تسمع ولا تبصر ولا تملك لك جلب نفع أو دفع ضر .

ثم كرر النصح باللطف والرفق واللين قائلا : يا أبت إنى جاءنى من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية مالا تعلمه أنت ونجده -عليه السلام- لم يصف أباه بالجهل الشنيع فى عبادته للأصنام ، ولا نفسه بالعلم الفائق.

ثم ختم نصحه لأبيه بخوفه -عليه السلام- أن يموت أبوه على كفره فيحل به عذاب الله الأليم ويكون قرينا للشيطان بالخلود فى النيران .

وبالرغم من التلطف واللين والرفق من جانب إبراهيم -عليه السلام- وأدبه فى حواره مع أبيه وتكراره لفظ "يا أبت" إلا أن أباه لم يبادله استعطافه ولطفه فى الإرشاد وإنما قابله بالفظاظة والغلظة والعناد ولم يقابل قوله "يا أبت" بلفظ "يا بنى" بل هدده وتوعده بالرجم بالحجارة .

---

(١) سورة مرين الآيات ٤١-٤٥ .

ومع ذلك فقد استمر إبراهيم - عليه السلام - فى حواره المؤدَّب اللين فيقول لأبيه : ﴿**سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً**﴾[1] .

ومن خلال حوار سيدنا إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه يتضح لنا كيفية الحوار مع الوالدين ، وهو أن يكون الحوار معهم بأدب ولطف ورفق حتى ولو كانا غير مسلمين فواجبنا نحوهم الطاعة فيما لا يغضب الله وإلانة القول لهم .

أيضا من صور الحوار فى القرآن الكريم الممزوج بالرفق واللين حوار موسى وهارون -عليهما السلام- مع فرعون الطاغية حين أمرهما الله تعالى أن يبلغا فرعون الرسالة الإلهية بلين ورفق ﴿**فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى**﴾[2] ولهذا فقد استعمل موسى -عليه السلام- جميع أساليب الرفق فى الحوار والاقناع عن طريق الفعل فحين قال فرعون ﴿**وما رب العالمين**﴾[3] أجابه موسى -عليه السلام- بالصفة المشتملة على ربوبيته تعالى للكون المنظور كله وما فيه ﴿**قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين**﴾[4] وهو جواب يكافىء ذلك التجاهل ويغطيه إنه رب هذا الكون الهائل الذى لا يبلغ إليه سلطانك يا فرعون ولا علمك . وحين سأل فرعون موسى وهارون قائلاً ﴿**فمن ربكما ياموسى**﴾ أجاب ﴿**ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه**

---

(١) سورة مريم الآية ٤٧ .

(٢) سورة طه الآية ٤٤ .

(٣) سورة الشعراء الآية ٢٣ .

(٤) سورة الشعراء الآية ٢٤ .

ثم هدى﴾[1] ثم أخذ –عليه السلام– يعدد أنواعا أخرى مما خلق الله ﴿**الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماءاً...**﴾[2] الآية .

فنجد موسى –عليه السلام– استعمل فى حواره الرفق واللين والأدلة العقلية فهى أقرب إلى الإقناع سيما إذا كانت بأسلوب رفيق لين يفيض أدبا ورقة ورحمة .

وقد يبتلى الإنسان بمحاور لا يجدى معه اللين والمنطق والحجة ، وهذا ما نراه جليا فى الحوار الذى دار بين ابنى آدم فقد حكى الله تعالى عن قابيل أنه قال لهابيل ﴿**لأقتلنك**﴾ وذلك فى قوله تعالى : ﴿**واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك**﴾[3] أى إن لم يتقبل منه توعد أخاه وحلف ليقتلنه. فماذا كان جواب أخيه "هابيل" ؟ أجابه بأحسن جواب . قال : ﴿**إنما يتقبل الله من المتقين**﴾ أى لا يقبل الله الصدقات وغيرها من الأعمال إلا ممن يتصف بتقوى الله والخوف من عقابه باجتنابه الشرك وسائر المعاصى كالرياء والشح واتباع الهوى .

ثم رد عليه بأدب ولطف ولين قائلا : ﴿**لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين**﴾[4] نجد أسلوبا يفيض لينا ورقة ورحمة ولم يقابل السيئة بالسيئة قائلا : لتقتلنى

---

(١) سورة طه الآية ٥٠ .

(٢) سورة طه الآية ٥٣ .

(٣) سورة المائدة الآية ٢٧ .

(٤) سورة المائدة الآية ٢٨ .

لأقتلنك . حاشا لله :بل قال : إن مددت يدك لتقتلنى فما أنا بالمجازى لك على السيئة بسيئة مثلها فذلك لا يتفق مع شمائلى وصفاتى ، إذ لست ممن يتصف بهذه الصفة المنكرة التى تنافى تقوى الله والخوف من عذابه .

ومع ذلك فلم يؤثر هذا الحوار فى نفس الكافر المعاند ، ولم تُجد المواعظ فيه فتيلا ولا قطميرا ، فما تغنى الزواجر والعظات فى نفس الحاسد الظالم ؟ ﴿**فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين**﴾[1] .

٣- العلم :

على المحاور أن يتكلم فيما يعلمه علما يقينيا ، وأن يترك الحديث عما لا يعلمه حتى لا يوقع نفسه فى حرج ، ويستطيع إقناع من يحاوره، والقرآن الكريم خير معلم . قال تعالى : ﴿**ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا**﴾[2] فلا يحاور فى موضوع يجهله ولا ينافح عن فكرة لم يقتنع بها .

٤- التواضع وتجنب الغرور

فالتواضع خلق إسلامى أمرنا به الله تعالى فى شخص الرسول ﷺ قائلاً له : ﴿**واخفض جناحك للمؤمنين**﴾[3] وقد وصف الله تعالى المؤمنين الذين يحبهم ويحبونه بأنهم يخفضون جناحهم للمؤمنين فى

---

(١) سورة المائدة الآية ٣٠ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٢٦ .

(٣) سورة الحجر الآية ٨٨ .

مذلة متواضعين وفى نفس الوقت أعـزة علـى الكـافرين غير منكسـرين لهم قال تعالى ﴿**أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾[1] .

وإذا تأملنا حوار سيدنا سليمان -عليه السلام- الذى أعطاه اللـه ملكـا لا ينبغى لأحد من بعده للهدهد حين أقبل على سيدنا سـليمان بعـد غيـاب قائلا له بكل شجاعة أحطت بما لم تحط به ، ويقبل سليمان بكل تواضـع حجة الهدهد ويكلفـه بحمـل رسـالة إلـى تلـك الملكـة ملكـة سـبأ ويـروى القرآن الكريم جانبا من هذه القصة فيقول : ﴿**وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين * فمكث غير بعيد فقال أحطت بمـا لـم تحـط بـه وجئتك من سبأ بنبأ يقين * إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت مـن كـل شىء ولها عرش عظيم...**﴾[2] ونلحظ التـواضع حين استمع سليمـــان -عليـه السـلام- إلـى حجـة الهدهـد حيـن دفاعـه عـن نفسـه بكـل حريـة وشجاعة ولم ينكر عليه قوله ﴿**أحطت بما لـم تحـط بـه**﴾ أيضـا تواضـع ملكة سبأ بقولها ﴿**...رب إنى ظلمـت نفسـى وأسلمت مـع سـليمان للـه رب العالمين**﴾[3].

ومن صور الحوار الممزوج بالتواضع وتجنب الغرور الحـوار الـذى دار بين سيدنا موسى -عليه السلام- مع العبد الصـالح "الخضـر" حيث يتجلى قمة التواضع وعدم الغرور من أجل التعليم وتهذيب الأخلاق .

---

(١) سورة التوبة الآية ٥٤ .

(٢) سورة النمل الآيات ٢٠-٢٣ .

(٣) سورة النمل من الآية ٤٤ .

فسيدنا موسى -عليه السلام- مع مكانته وما أعطاه الله من العلم وما خصه به من مكانة لم تعطى لغيره فهو كليم اللـه تعالى . مع كل هذا يسأل سيدنا موسى -عليه السلام- الخضر سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار أن يصطحبه معه ويرافقه حتى يتعلم منه شيئا يسترشد به فى أمره من علم نافع وعمل صالح ؛ حيث إن هذا الرجل قد أتاه الله علما من لدنه . قال تعالى : **﴿فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا * قال إنك لن تستطيع معى صبرا * وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا * قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا * قال فإن اتبعتنى فلا تسئلنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا...﴾** [١] .

٥- ترك المراء والجدال :

على المحاور أن يترك الجدل مع محاوره عموما ، وأيضا على الداعى أن يترك المراء والجدال خصوصاً وهو يدعو إلى الله ، لأن الدعوة إلى الله لا يقبلها المعاندون بل غالبا ما يضطرون الدعاة إلى جدالهم بالحسنى ثم ينقلب ذلك الجدال وتلك المناقشة إلى مراء .

"فعلى الداعى أن يلاحظ ذلك دائما وأن يكون كلامه فى الجدال والمناقشة بالحسنى وبالكلام الطيب والأدب الجم والتواضع والهدوء وعدم رفع الصوت ... ولييق كلامه معه على مستواه العالى الرفيع الرقيق اللين المحبوب الخالى من الفظاظة والخشونة ولكن فيه قوة الاقناع ووضوح الحق ومثل هذا يستفاد من قوله تعالى **﴿ادع إلى سبيل**

---

(١) سورة الكهف الآيات من ٦٥-٨٢ .

ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾[1] فإذا أصر المدعو على باطله ولج فى عناده وأصبح الكلام معه عبثا فليقطع الداعى الجدل معه ويذكر قول الله تعالى : ﴿**يا أيها الناس قد جاءكم الحق فمن ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل**﴾[2] وقوله تعالى : ﴿**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾[3] وهذا المسلك وهو قطع الجدل مسلك سديد لأن بعض الناس لا ينفع معهم الجدل لأنهم لا يريدون من جدلهم الوصول إلى الحق وإنما يريدون المكابرة والعناد والجحود"[4] .

وحتى لا يكون فى الحوار جدال ، فعلى كل محاور أن يحرص ألا يتطور الحوار إلى الجدال والمراء بل يكون حرص كل منهما الوصول للحق والخير مع افتراض كل منهما الخطأ فى رأيه كما يفترض فيه الصواب . ومن أقوال بعض الفقهاء الحكماء : "رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب" .

٦- حسن البيان :

فمما ينبغى أن يلتزم به المحاور أن يكون كلامه واضحا لا غموض فيه يفهمه السامع ، وأن يقبل بوجهه على من يحدثه ، ويوضح الألفاظ بصوت مناسب لا هو بالخافت الذى لا يسمع ولا بالمرتفع المؤذى ، فالصوت المرتفع فى الحديث يؤذى السامع وينهى الحوار إلى غير رجعة مع ذلك الشخص الذى رفع صوته قال تعالى حاكيا عن وصية

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٢) سورة يونس الآية ١٠٨ .

(٣) سورة الكهف الآية ٢٩ .

(٤) أصول الدعوة د/عبد الكريم زيدان ص٤٧٨ .

لقمان لابنه :﴿...واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾[1] فالحجة الظاهرة غنية بذاتها عن كل صوت .

كما يجب على المحاور أن يتأنى فى الكلام حتى يستوعب السامع كلامه ويفهمه ، وألا يتعاظم ويتكلف فى نطقه وأن يبتعد عن روح الاستعلاء على المدعو واحتقاره .

٧- التحدى والإفحام بالحجة والبرهان :

فقد جبلت النفس البشرية على طلب التيقن بالحجة والدليل والبرهان، لذلك لا نجد رسولا ورد ذكره فى القرآن الكريم إلا وقد جاء إلى قومه بما يثبت لهم صدقه ويقوى دعوته من آية أو معجزة أو دليل بين واضح.

لذلك كان من أسس وآداب المحاور أن يعتمد على الأدلة والبراهين الواضحة الناطقة بما يثبت فكرته . وكذلك فعل سيدنا إبراهيم -عليه السلام- حينما حاجه النمروز وجادله فى ربه الذى آتاه الملك . قال تعالى **﴿ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين﴾**[2] فحين قال إبراهيم -عليه السلام- ربى الذى يحيى ويميت وأنت لا تحيى ولا تميت . فقال النمروز : أنا أحيى وأميت فرد عليه إبراهيم حجته قائلا : ربى يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فاندهش النمروز وتحير وانقطع دليله .

---

(١) سورة لقمان الآية ١٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٨ .

وفى هذا دليل على جواز انتقال المجادلة من حجة إلى أخرى أوضح منها .

ولذلك يقول الزمخشرى[1] : "ولكن إبراهيم لما سمع جوابه الأحمق لم يحاجه فيه ولكن انتقل إلى مالا يقدر فيه على نحو ذلك الجواب ليبهته أول شىء وهذا دليل على جواز انتقال المجادل من حجة إلى حجة" .

نماذج من أدب الحوار فى القرآن الكريم

إن القرآن الكريم زاخر بالعديد من الحوارات التى من خلالها فيها تعليم وأدب لكل من قرأه بدقة وإمعان ولنذكر هنا نماذج من أدب الحوار فى القرآن الكريم .

أولاً : أدب الحوار فى التثبت من الأخبار

إن الإنسان الحكيم هو الذى يتثبت ويتبين الخبر الذى يلقى إليه حتى لا يتصرف تصرفا غير لائق فيندم على ما فعل . قال تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾**[2] .

فإذا حاور بلطف وبأدب فلا شك أنه سيصل إلى نتيجة يكون فيها كل الخير ، ولا يندم عليها أبدا .

من ذلك ما جاء فى القرآن الكريم من حوار بين نبى سخر الله تعالى له كل المخلوقات من جن وإنس وطير وغيره .. ومع ذلك استمع إلى

---

(١) الكشاف ١/١٤٧ .

(٢) سورة الحجرات الآية

طائر عندما جاءه بخبر وحاوره بلطف ليستوثق من الخبر . قال تعالى: **﴿فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين * إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون * ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم * قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾**[1] .

فى هذه الآيات الكريمة يتجلى لنا بوضوح أدب الحوار فى التثبت من الأخبار فعندما جاء الهدهد إلى سيدنا سليمان -عليه السلام- وأخبره أنه أتى إليه بخبر هام وأمر خطير وهو أنه رأى فى مدينة سبأ امرأة تسمى بلقيس ملكة لهم ووجدهم يدينون بالطاعة لها ، وأخبر سيدنا سليمان كذلك أن هذه المرأة أعطيت من كل شىء من الأشياء التى يحتاج إليها الملوك ، وأن لها عرش عظيم بديع الصنعة ثم يتعجب الهدهد من أمر هذه المرأة وقومها فى سجودهم للشمس ، التى حسن لهم إبليس عبادتها، وسجودهم لها من دون الله .

ويتعجب كذلك من عدم سجودهم لله الخالق العظيم الذى يعلم السر والعلن .

عندما جاء الهدهد إلى سليمان -عليه السلام- وأخبره بهذه الأخبار نجد سيدنا سليمان لم ينكر عليه ما أخبر به وفى نفس الوقت لم يسرع فى تصديقه بل أجابه بلطف قائلا له : **﴿سننظر أصدقت أم كنت من**

---

(١) سورة النمل الآيات ٢٢-٢٦ .

الكاذبين﴾ أى أصدقت فى هـذه الأخبـار أم أنـك تكـذب حتـى لا أعـاقبك على غيابك .

وهنا يقدم سيدنا سليمان -عليه السلام- احتمال الصدق على الكـذب فـى حواره مع الهدهد ، ولم يكذبه على الفور ، وإنمـا أخبره بأنـه سيبحث فـى هذا الأمر ليتبين هل هذا الخبر حق وصدق أم كذب الهدهد فى هذا الخبر .

ومع أن الهدهد من جنود سيدنا سليمان -عليه السلام- إلا أنه يحاوره بلطف ، وأظهر حسن الظن بهذا الهدهد ، وفيه إرشاد إلـى البحـث عن الأخبار والكشـف عـن الحقـائق وعـدم قبـول خبـر المخبرين تقليـدا لهـم واعتمادا على كلامهم .

ثانيا : أدب الحوار فى الشورى :

إن الشورى مبدأ عظيـم مـن مبـادئ الإسـلام ولكـن لابـد مـن التـأدب والتلطف فى أداء هذا المبدأ حتى يتحقق الغرض المطلوب منه .

فالجماعة أبعد عن الخطأ من الفرد فى أكثر الحالات ، وما ينشأ مـن الخطر على الأمة بتفويض أمرها إلى واحد مهمـا حَصُـف رأيـه ، أشـد من الخطر الذى يترتب على رأى الجماعة .

وللشورى فوائد جمة منها :

١- أنها تبين مقـادير العقـول والأفهـام ، ومقـدار الحـب والإخـلاص للمصالح العامة .

٢- إن الآراء فيها تقلب على وجوهها ، ويختار الرأى الصـائب مـن بينها .

٣- إنـه يظهـر فيهـا اجتمـاع القلـوب علـى إنجـاح المسـعى الواحـد ، واتفاق القلوب على ذلك مما يعين على حصول المطلوب .

وقد عمل النبى ﷺ بالشورى فى حياته ، فكان يستشير السواد الأعظم من المسلمين ، فاستشارهم يوم أحد وبدر وغيرهما .

ونستطيع أن نتفهم أدب الحوار فى الشورى من قول بلقيس الذى حكاه لنا المولى عز وجل فى قوله تعالى : **﴿قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب كريم * إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين * قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون * قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين﴾**[1] .

قال ابن عباس : كان معها ألف قيْل[2] وقيل : اثنا عشر ألف قيْل مع كل قيْل مائة ألف * والقيْل الملِك دون الملك الأعظم .

فأخذت فى حسن الأدب مع قومها ، ومشاورتهم فى أمرها ، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها فى كل أمر يعرض ، بقولها :

﴿ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون﴾ فكيف فى هذه النازلة الكبرى. فراجعها الملأ بما يقر عينها ، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس ، ثم سلموا الأمر إلى نظرها . وهذه محاورة حسنة من الجميع[3] .

ويتضح لنا فى هذه الآيات أدب الحوار فى المشاورة من جانب المشير ومن جانب المشار عليه ، فعلى المشير أن يلقى المشورة على المشار عليه بلطف وبطريقة مهذبة لاعلى وجه الإلزام والقهر ولابطريقة فيها تكبر واستعلاء وإنما الأدب فى إلقاء الأمر المشار به يترك أطيب الأثر فى النفوس.

---

(١) سورة النمل الآيات ٢٩-٣٣ .

(٢) انظر تفسير القرطبى ١٢٩/١٣ .

(٣) المرجع السابق .

ثالثا: أدب الحوار فى الفصل بين الخصوم :

إن الحاكم الذى يفصل بين المتخاصمين يجب أن يكون حليما ورعا يسمع إلى المتخاصمين بصدر رحب ، وهذا ما اتصف به سيدنا داود -عليه السلام- حين طلب منه أحد المتخاصمين أن يحكم بينهم بالحق ، وأن لايجور ولايظلم، ولايغتر بمنصب النبوة فلم ينكر داود على الرجل طلبه هذا . قال تعالى : ﴿**هل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولاتشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب**﴾[1].

كما يجب على الحاكم ألا يحكم لأحد المتخاصمين قبل أن يسمع من الآخر. وهذا ماصدر من سيدنا داود -عليه السلام- حين قص القرآن علينا قوله: ﴿**قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض**﴾[2] قال ﷺ :" إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض لأحدهما حتى تسمع من الآخر" وقال الإمام مالك : "وينبغى أن يكون متيقظا كثير التحذر من الحيل ، وأن يكون عالما بالشروط"[3] .

وقد بين لنا الرسول ﷺ أدب الحوار فى الفصل بين الخصوم عندما جاءه يهودى يتقاضاه دينا كان له عليه فرفع صوته على الرسول ﷺ

---

(١) سورة ص الآيات ٢١-٢٣ .

(٢) سورة ص الآية ٢٤ .

(٣) تفسير القرطبى ١١٨،١١٧/٢٥ .

وأساء فى التقاضى فقام إليه عمر بن الخطاب ليضربه بسيفه فنهاه الرسول ﷺ عن ذلك وأرشده إلى ماينبغى عند الفصل بين الخصوم وقال له : كان عليك أن تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن التقاضى .

وروى عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت :"سمع رسول اللهﷺ صوت خصوم بالباب . عالية أصواتهما . وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه فى شىء وهو يقول والله لا أفعل فخرج رسول الله ﷺ عليهما فقال أين المتألى[1] على الله لايفعل المعروف ؟ قال : أنا يا رسول الله ! فله أى ذلك أحب"[2] .

ففى هذا الحديث يوضح لنا الرسول ﷺ أدب الحوار فى الفصل بين الخصوم ، فقد خرج عليه الصلاة والسلام إلى هؤلاء المتخاصمين عندما ارتفعت أصواتهما بالباب وسمع أحدهما يطلب من الآخر أن يضع عنه بعض الدين ، ويرفق به فى الإستيفاء والمطالبة . ولكن صاحب الدين يحلف بالله أن لايفعل شيئا مما طلبه منه . فعندما سمع الرسول ﷺ خرج عليهما وذكر صاحب الدين بلطف وبأدب فقال :"أين المتألى على الله لايفعل المعروف" وهذا تذكير منه ﷺ لمن له الدين بأن يفعل المعروف ويضع عن هذا الرجل شيئا من الدين الذى عليه . فعندما سمعه الرسول ﷺ يحلف على ترك الخير ، فلم ينكر عليه ذلك ولم يوبخه وإنما ذكره بلطف وبأسلوب مهذب منه ﷺ .

---

(١) المتألى : الحالف ، والآلية : اليمين .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب المساقاه . باب استحباب الوضع من الدين ٢٢٠/١٠ شرح النووى .

وفى رد الرجل :"أنا يارسول الله : فله أى ذلك أحب" يتضح لنا من هذا الرد حسن أدب الصحابة رضوان الله عليهم فى حوارهم مع الرسول ﷺ وامتثالهم لأوامره .

رابعاً : أدب الحوار فى الدعوة إلى الله تعالى :

إن الدعوة إلى الله تعالى تتطلب من الداعية أن يبتعد عن العنف والغلظة وأن يتمسك باللين والتسامح والرفق والرحمة وذلك كما بينا فى آداب وشروط الحوار ، أيضا يجب أن يكون الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة قال تعالى :﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن**﴾[١] .

وقد بين القرآن الكريم كيف تكون الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة من خلال ما قصه علينا من حوار الأنبياء السابقين مع أممهم وكيفية عرضهم للدعوة ،والأسلوب البليغ الذى اتبعوه معهم . قال تعالى :﴿**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب**﴾[٢] .

فنجد إبراهيم -عليه السلام- يحاور قومه بالحجة والبرهان : وأبطل افترائهم وبين لهم أن معبوداتهم ليست آلهة حقيقية ، لأنها لاتخلق شيئا وهى تخلق ، ولاتسمع ولاتبصر وأنها لاتقدر على منفعة ولامضرة ، أما الله الواحد القهار فهو القادر هو الذى يحيى ويميت ، ويعاقب المذنب ويتوب على المستغفر قال تعالى :﴿**قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرءيتم ماكنتم تعبدون ***

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥ .

(٢) سورة يوسف الآية ١١١ .

أنتم وآباؤكم الأقدمون* فإنهم عدو لى إلا رب العالمين* الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين* والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين﴾[1] .

وفى نهاية الحوار تبرأ إبراهيم –عليه السلام– من كل مايعبده قومه من دون الله تعالى قائلا لهم :" ياقوم إنى برىء مما تشركون " فبعد أن استنفذ كل الحجج والبراهين تبرأ من معبوداتهم بطريقة لم يكن فيها ذم ولاسب لقومه ، بل قال "ياقوم" وفيها إشعار لهم بأنه منهم وهم أهله وقومه ، ويحب لهم مايحب لنفسه فما أروع الحكمة ، وما أروع الدعوة النبوية وحوار القرآن على لسان الأنبياء والصالحين فى الدعوة إلى الله تعالى .

فهذه صورة من صور الحوار فى الدعوة إلى الله تعالى ، والقرآن الكريم يحتوى على العديد من ذلك منها أيضا حوار يوسف –عليه السلام– مع صاحبيه فى السجن ودعوته لهما بعبادة الله الواحد القهار ، ونبذ عبادة كل ماسواه يقول تعالى على لسان يوسف –عليه السلام– :**﴿ياصاحبى السجن أرباب متفرقون خيرأم الله الواحد القهار* ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألاتعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾**[2] .

---

(١) سورة الشعراء الآيات ٧١-٨٢ .

(٢) سورة يوسف الآيتان ٣٩،٤٠ .

فنجده -عليه السلام- لم يدعهم دعوة مباشرة وإنما قال " أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار" فلا شك أن كل ذى لب وفطرة يقول: الله الواحد القهار خير أن يدين العباد لربوبيته من أن يدينوا للأرباب المتفرقة الأهواء ، الجاهلة القاصرة العمياء .

وهكذا يمكننا أن نستفيد بحوارات القرآن فى الدعوة إلى الله لمناقشة أفكار الجماعات القاصرة عن فهم الإسلام وحقيقته ، ومحاولة إصلاحها من خلال الحوار البناء من قبل علماء لديهم مهارة وحذق فى الكلام ولباقة فى أدب الحوار .

أيضا فى نشر العقيدة الصحيحة وخاصة بين البسطاء من المسلمين من خلال الحوار الواضح البسيط والدروس فى وسائل الإعلام ، وفى المساجد.

أيضا بث الدعوة الإسلامية إلى الدول الغير إسلامية ذات الأقليات المسلمة من خلال الحوار ، وعمل المناظرات لتوضيح عظمة الإسلام لغير المسلمين. وحسبنا من حوارات ومناظرات دونت فى مؤلفات أسفرت عن جذب أعداد من غير المسلمين إلى الإسلام منها :

١- الفاصل بين الحق والباطل لأبى عبيدة الخزرجى .

٢- تحفة الأديب فى الرد على الصليب .

٣- مناظرات أحمد ديدان .

ومن خلال الحوار ينبغى محاربة التقليد والمحاكاة العمياء لأهل الأديان الأخرى ، وتربية الشخصية المسلمة ذات الاعتزاز بدينها .

ولذلك ينبغى تعليم جميع طلبة العلوم الدينية كيفية الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة من خلال التدريب العملى ، وكيف يكون أدب الحوار والمناظرات ، وذلك لتخريج كوادر قادرة على الحوار بالحكمة والموعظة الحسنة .

الموضوع الثامن
بر الوالدين

لقد أمر الله سبحانه وتعالى بعبادته وتوحيده ، وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك فقال :﴿**وقضى ربك ألاتعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا**﴾[1] . كما قرن شكرهما بشكره فقال :﴿..**أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير**﴾[2] .. وقد سئل رسول الله ﷺ : أى العمل أحب إلى الله عزوجل ؟ قال :الصلاة على وقتها قال السائل : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين قال السائل ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله"[3] إذن فبر الوالدين هومن أفضل الأعمال بعد الصلاة التى هى من أعظم دعائم الإسلام .

كما يعتبر عقوق الوالدين من أكبر الكبائر لقول رسول الله ﷺ "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثا..قالوا : بلى يا رسول الله قال: الشرك بالله، وعقوق الوالدين . وكان متكئا فجلس ، وقال : ألا وشهادة الزور"[4] .. وهذا الحديث مصداق لقول الحق تبارك وتعالى:﴿**قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا**﴾[5] .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٢٣ .

(٢) سورة لقمان الآية ١٤ .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب . باب البر والصلة ١٣/٤ من الفتح .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب . باب عقوق الوالدين من الكبائر ١٣/١٥-١٦ من الفتح .

(٥) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

وقد نهى الله تعالى عن قول كلمة (أف) لهما ، وهى كلمة تضجر ورفض ، كما نهى عن نهرهما ، وهو الزجر والغلظة .

ومازاد عن كلمة (أف) فهو فى النهى أشد .. كما نهى النبى ﷺ عن التسبب فى شتمهما ، ولو عن غير قصد ، وعد ذلك من الكبائر فقال : " من الكبائر شتم الرجل والديه. فقالوا : يارسول الله، هل يشتم الرجل والديه ؟ فقال : نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه . ويسب أمه فيسب أمه"[1] .

وبر الوالدين موافقتهما فى أغراضهما .. **والعقوق** : مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما . وعليه إذا أمر أحدهما بأمر وجبت الطاعة، إذا لم يكن فى الأمر معصية لله تعالى . لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

ولايختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين . بل إن كانا كافرين وجب أيضا برهما ، والإحسان إليهما ، فقد ورد عن أسماء بنت أبى بكر الصديق –رضى الله عنها– أنها قالت : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبى ﷺ مع أبيها فاستفتيت النبى ﷺ فقلت : إن أمى قدمت على وهى راغبة[2] أفأصل أمى ؟ قال : نعم صلى أمك[3] وقيل : إن هذا هو سبب نزول قول الله عزوجل:﴿**لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**﴾[4] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب . باب لايسب الرجل والديه ٧/١٣ من الفتح .

(٢) أى راغبة فى صلتى أو راغبة عن الإسلام .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب . باب صلة المرأة أمها ولها زوج ١٨/١٣ من الفتح .

(٤)سورة الممتحنة الآية ٨ .

وقد روى أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ يستأذنه فى الجهاد فقال : "أحى والداك ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد[1] .. كما جاء رجل إلى النبى ﷺ يبايعه على الهجرة ، وترك أبويه يبكيان فقال له : ارجع عليهما فأضحكهما كما أبكيتهما[2] .

ولاينتهى بر الوالدين بوفاتهما ، بل يستمر حتى بعد مماتهما ، فقد جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله ، هل بقى على من بر والدى من بعد موتهما شيء أبرهما به ؟

قال : نعم ... الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لارحم لك إلا من قبلهما. فهذا الذى بقى عليك .

وبر الوالدين فى الكبر من أهم الطاعات والقربات لأنهما فى هذه المرحلة أولى بالرعاية ، وأحق بالعناية . والعبد هو الذى يبادر باغتنام فرصة برهما لئلا تفوته بموتهما فيندم على ذلك . والشقى من عقهما فقد قال النبى ﷺ رغم أنفه .. رغم أنفه .. رغم انفه . قيل : من يارسول الله ؟

قال : من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ، ثم لم يدخل الجنة[3] .

وكما أن بر الوالدين يدخل صاحبه الجنة ، فإنه يفيده فى الدنيا بأن يبره أبناؤه لقول النبى ﷺ :"بروا آباءكم تبركم أبناؤكم" . وبر الأم مقدم

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الجهاد بإذن الوالدين ٤٨٠/٦ من الفتح .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الجهاد . باب الرجل يغزو وأبواه كارهان ١٧/٣ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب البر والصله ١٠٩/١٦ شرح النووى .

على بر الأب ، ومحبة الأم ، والشفقة عليها ينبغى أن تكون ثلاثة أمثال حب الأب . فقد تحملت : الحمل ، والولادة ، والإرضاع . ثم تشترك مع الأب فى التربية وقد تنفرد بها الأم دون الأب . وقد جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال: ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك .

وقد يكون تكرار الأم ثلاث مرات - فى هذا الحديث الشريف - والأب مرة واحدة ليس لأنها تفضل الأب ، ولكن لإبراز الدور الذى قامت به فى فترة كان الابن جنينا فى بطن أمه تحملت متاعب الحمل ثم الولادة ، ومشقة الرضاعة . ففى كل هذه الأطوار التى مر بها الطفل لايدرى ولايعى شيئا عن المتاعب والآلام التى تحملتها أمه من أجله . وعندما كبر وبدأ يتعرف على من حوله وجد أباه يعمل ويكد من أجله ، فهو ليس بحاجة إلى من يذكره بأبيه . أما بالنسبة للدور الذى قامت به الأم فكان بحاجة إلى من يذكره به ، لهذا ذكرها الرسول ﷺ ثلاث مرات .

ولهذا ورد عن الإمام مالك أن رجلا استفتاه قائلا: إن أبى على سفر، وأرسل يستدعينى وأنا مقيم مع أمى ، فأبت علىَّ السفر ، وطلبت منى البقاء معها ، فأيهما أطيع ؟ قال الإمام مالك : أطع أباك ولاتعصى أمك.. فخرج الرجل متحيراً .

وبركة بر الوالدين لاحدود لها فعن ابن عمر -رضى الله عنهما- عن رسول الله ﷺ قال : "بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر ، فمالوا إلى غار فى الجبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم . فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها لله صالحة فادعوا الله بها لعله يفرجها . فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى

والدان شيخان كبيران . ولـى صبيـة صغـار كنت أرعـى عليهم ، فـإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالـدى أسقيهما قبـل ولـدى ، وإنـه نـأى بـى الشجر فمـا أتيت حتـى أمسيت فوجدتهمـا قد نامـا . فحلبت كمـا كنـت أحلب. فجئت بـالحلاب فقمت عند رءوسهما ، أكره أن أوقظهمـا مـن نومهما ، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمـى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر فإذا كنت تعلم أنى فعلت ذلـك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج اللـه لهم فرجـة يرون منها السماء . وقال الثانى : اللهم إنـه كـانت لـى ابنـة عم أحبهـا كأشد مايحب الرجال النساء ، فطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيهـا بمائـة دينار ، فسعيت حتى جمعت مائـة دينـار فلقيتهـا بهـا ، فلمـا قعدت بيـن رجليها قالت : ياعبد اللـه اتق اللـه ، ولايفتـح الخـاتم إلا بحقـه ، فقمـت عنها ، اللهم فإن كنت تعلم أنى قد فعلت ذلـك ابتغـاء وجهك فـافرج لنـا منها ، ففرج لهم فرجة . وقال الآخر : اللهم إنى كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز . فلما قضى عمله قال : اعطنى حقى ، فعرضت عليـه حقـه فتركه ورغب عنه ، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا وراعيتهـا ، فجاءنى فقال : اتق الله ولاتظلمنى وأعطنى حقى ، فقلت : اذهـب إلـى تلك البقر وراعيها ، فقال : اتق الله ولاتهزأ بـى ، فقلـت : إنـى لاأهـزأ بك فخذ تلك البقر وراعيها فأخذه فانطلق . فإن كنت تعلم أنـى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج مابقى ففرج الله عنهم"[1] .

وهكذا رأينا بر الوالدين ينجي من المهالك ، وأنه من الأعمـال التـى قد يلجأ الإنسان بها إلى الله تعالى حال الكرب ، فيكشف بها كربه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب . باب إجابة دعـاء من بـر والديـه ٨،٧/١٣ من الفتح .

الموضوع التاسع
تــربيــة الأبنــاء

إن حديث القرآن عن الطفولة حديث كله حب وسماحة وثراء وعاطفة ، فهم بشرى ، وهم قرة عين وهم نعمة جليلة ، لذلك نجد عباد الرحمن متصفين بحب الأطفال ، فهم إلى جانب ما اتصفوا به من التقوى والمعاملة الحسنة وعدم الكبرياء وسهرهم للعبادة ، يحبون الأطفال ، فحب الأطفال سمة من سماتهم الطيبة التى يحبهم الله من أجلها ، واختصهم لذلك بأنهم عباده ، فهم يدعون الله أن يرزقهم من نعمة الذرية وأن يحببهم فى الطفولة : ﴿**والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما * خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما**﴾[1] .

ولاعجب أن يصور القرآن العظيم هذه المشاعر الأبوية الصادقة ، أجمل تصوير ، فيجعل من الأولاد تارة زينة الحياة الدنيا :﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**﴾[2] . ويعتبرهم أخرى نعمة عظيمة تستحق شكر الواهب المنعم :﴿**وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا**﴾[3] .

---

(١) سورة الفرقان الآية ٧٤-٧٦ .
(٢) سورة الكهف الآية ٤٦ .
(٣) سورة الإسراء الآية ٦ .

إلى غير ذلك من هذه الآيات القرآنية التى تصور عواطف الآبوين نحو الأولاد ، وتكشف عن صدق مشاعرهما ، ومحبة قلبيهما ، تجاه أفلاذ الأكباد وثمرات الفؤاد .

والرسول ﷺ يتنسم فى الطفولة وفى الطفل ريح الجنة فيقول : "ريح الولد من ريح الجنة " رواه الطبرانى فى الأوسط .

وكان –عليه السلام– يتخفف فى الصلاة إذا سمع بكاء الطفل ، وقد مر ذات يوم فى الفجر ببيت فاطمة ابنته وهو فى طريقه إلى الصلاة فبلغ مسمعه بكاء الحسين فحث فاطمة منبها وقال لها :" أو ماعلمت أن بكاءه يؤذينى "؟

ومن المشاعر النبيلة التى أودعها الله فى قلبى الآبوين ، شعور الرحمة بالأولاد ، والرأفة بهم ، والعطف عليهم ، وهو شعور كريم له أثر فى تربية الأولاد ، وفى إعدادهم وتكوينهم أفضل النتائج وأعظم الآثار .

ولذلك لم يوصى القرآن الكريم بالرأفة والعطف على الأبناء لأنها غريزة أودعها الله تعالى فى قلبيهما . فى حين أوصى الأبناء بالأباء .

والقلب الذى يتجرد من خلق الرحمة ، يتصف صاحبه بالفظاظة العاتية ، والغلظة اللئيمة القاسية ، ولايخفى مافى هذه الصفات القبيحة من ردود فعل فى انحراف الأولاد ، وفى تخبطهم فى أو حال الشذوذ ، ومستنقعات الجهل والشقاء .

لهذا كله نجد شريعتنا الإسلامية الغراء ، قد رسخت فى القلوب خلق الرحمة ، وحضت الكبار من آباء ومعلمين ومسؤولين على التحلى بها، والتخلق بأخلاقها .

وإليكم اهتمام الرسول صلوات الله وسلامه عليه بموضوع الرحمة بالصغار ، وحرصه الزائد على تحلى الكبار بهذا الخلق الكريم ، والشعور النبيل :

- روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده -رضى الله عنهم- قال : قال رسول الله ﷺ :" ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف حق كبيرنا"[1] .

- وعن أبى هريرة ﷺ قال :" أتى النبى ﷺ:" رجل ومعه صبى ، فجعل يضمه إليه ، فقال النبى ﷺ أترحمه ؟ قال : نعم ، قال : فالله أرحم بك منك به ، وهو أرحم الراحمين"[2] .

- وكان - عليه الصلاة والسلام- إذا رأى أحداً من أصحابه لايرحم أولاده يزجره بحزم ، ويوجهه إلى مافيه صلاح البيت والأسرة والأولاد .. فقد روى البخارى فى الأدب المفرد عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاء أعرابى إلى النبى ﷺ فقال : أتقبلون صبيانكم. فما نقبلهم؟ فقال النبى ﷺ : "أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟"

- **وأخرج البخارى**[3] أن أبا هريرة ﷺ قال : قبل رسول الله ﷺ الحسن بن على ، وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالس ، فقال الأقرع :

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب البر . باب ماجاء فى رحمة الصبيان ٣٢٢/٤ وأبو داود . كتاب الأدب . باب فى الرحمة ٢٨٦/٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب ٣٧/١٣ من الفتح .

(٣) فى صحيحه ، كتاب الأدب . باب رحمة الولد وتقبيله ٣٥/١٣ من الفتح .

إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً ، فنظر رسول الله ﷺ إليه ثم قال : " من لايرحم لايرحم " . - وروى البخارى فى الأدب عن أنس بن مالك قال : "جاءت امرأة إلى عائشة - رضى الله عنهما- ، فأعطتها عائشة ثلاث تمرات ، فأعطت كل صبى لها تمرة ، وأمسكت لنفسها تمرة ، فأكل الصبيان التمرتين ونظرا إلى أمهما ، فعمدت الأم إلى التمرة فشقتها فأعطت كل صبى نصف تمره ، فجاء النبى ﷺ ، فأخبرته عائشة ، فقال : ومايعجبك من ذلك ؟ لقد رحمها الله برحمتها صبييها " .

وكان -عليه الصلاة والسلام- إذا رأى طفلا يحتضر ، وأوشكت أن تفيض روحه ، فاضت عيناه بالدمع حزنا وعطفا على الصغار ، وتعليما للأمة فضيلة العطف والرحمة .. عن أسامة بن زيد -رضى الله عنهما- قال : "أرسلت بنت النبى ﷺ إلى أبيها أن ابنى قد احتضر[1] فاشهدنا ، فأرسل عليه الصلاة والسلام يقرى السلام ، ويقول : "إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب" ، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها ، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ورجال رضى الله عنهم ، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبى فأقعده فى حجره ، ونفسه تقعقع[2] ففاضت عيناه ، فقال سعد : يا رسول الله ما هذا ؟ فقال : "هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"[3] .

---

(١) أى حضرته مقدمات الموت .

(٢) تقعقع أى تتحرك وتضطرب .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الجنائز . باب قول النبى ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته ٣٩٧/٣-٣٩٩ من الفتح .

ومما لا شك فيه أن ظاهرة الرحمة إذا حلت قلب الأبوين وترسخت فى نفسيهما ، قاما بما يترتب عليهما من واجب ، وأديا ما عليهما من حق تجاه من أوجب الله عليهما حق الرعاية ، وواجب المسئولية ، ألا وهم الأولاد .

المراحل التى يمر بها الإنسان فى حياته

اتفق العلماء على أنه يمكن تقسيم حياة الفرد إلى المراحل التالية :

من يوم الولادة إلى سن سنتين .... مرحلة المهد

من سن سنتين إلى ٦ سنوات .... مرحلة الطفولة المبكرة

من سن ٦ سنوات إلى سن ١٢ سنة ...... مرحلة الطفولة المتأخرة

من سن ١٢ سنة إلى سن ١٥ سنة .... مرحلة بداية المراهقة

من سن ١٥ سنة إلى ١٨ سنة .... مرحلة وسط المراهقة

من سن ١٨ سنة إلى سن ٢٢ سنة .... مرحلة المراهقة المتأخرة

من سن ٢٢ سنة إلى سن ٣٠ سنة .... مرحلة النضج والشباب

من سن ٣٠ سنة إلى سن ٦٠ سنة .... مرحلة وسط العمر أو الرجولة

من سن ٦٠ سنة فما فوق .... مرحلة الشيخوخة

وواضح أن مرحلتى الطفولة والمراهقة تشكلان الأساس فى تكوين شخصية الإنسان ، وعلى قدر اهتمام الأباء والمربين بالأطفال خلال هاتين المرحلتين ، يكون النجاح فى بناء الشباب الأصحاء نفسيا وعقليا وبدنيا .

لقد عنى الإسلام بالطفولة منذ تكوينها بل قبل أن ترى الحياة فـأوجب لها الرعاية فى مراحلها المختلفة ، وحدد لكل مرحلة حقوقا .

المرحلة الأولى : قبل الولادة

وتتلخص فى النقاط التالية :

١- اختيار الزوجة الصالحة .
٢- العناية بالأم الحامل لسلامة جنينها .
٣- حقوق الجنين .

١- اختيار الزوجة الصالحة :

إن الأسرة تبدأ من شخصين زوج وزوجة .. وهما الحجر الأساسى فـى بنائها ، أو هما التربة التى تنشأ فيها شجرة الأسرة ، وتنمو وتثمر ، وعلـى قدر صلاحيتها وسلامتها ، يكون النبات الذى ينبت فيها وتكون الثمرة .

﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لايخرج إلانكدا﴾[1].

ومن أجل هذا يوجه الإسلام عناية خاصة لإيجاد هذا الأساس وتوفير هذه التربة فيقول الرسول ﷺ :"تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء"

فمن حق الطفل على أبيه أن يحسن اختيار أمه لأنها المنبت له ، ومثله الأعلى فى طفولته المبكرة ، فهى شديدة التأثير فيه .

يقول النبى ﷺ :"تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك"[2] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٨ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب النكاح . باب الأكفاء فى الدين ١١/٣٦-٣٧ من الفتح .

إن حسن اختيار الزوج لزوجته يضمن له استقرار واستمرار الحياة الزوجية مما يهيء للطفل الحياة السعيدة الكريمة فى ظل من العطف والحنان والحب المتبادل بين الأبوين نحو أولادهم .

وتحقيقا لهذا الاختيار أجاب عمر بن الخطاب ﷺ ، عن سؤال لأحد الأبناء لما سأله ماحق الولد على أبيه ، بقوله :"أن ينتقى أمه، ويحسن اسمه ، ويعلمه القرآن" .

وبالمقابل أرشد النبى ﷺ أولياء المخطوبة بأن يبحثوا عن الخاطب ذى الدين والخلق ، ليقوم بالواجب الأكمل فى رعاية الأسرة ، وأداء حقوق الزوجية ، وتربية الأولاد ، والقوامة الصحيحة فى الغيرة على الشرف ، وتأمين حاجات البيت بالبذل والإنفاق .

روى الترمذى[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال :" إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض " .

وهذا الانتقاء الذى وجه إليه رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ، يعد من أعظم الحقائق العلمية ، والنظريات التربوية فى العصر الحديث .. فعلم الوراثة أثبت أن الطفل يكتسب الصفات الخلقية والجسمية والعقلية ، منذ الولادة ، فعندما يكون انتقاء الزوج ، أو اختيار الزوجة على أساس الأصل والشرف والصلاح ، فلا شك أن الأولاد ينشؤون على خير ما ينشؤون من العفة والطهر والاستقامة .. وعندما يجتمع فى الولد عامل الوراثة الصالحة ، وعامل التربية الفاضلة ،

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب النكاح . باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه ٣٨٦/٣ .

يصل الولد إلى القمة فى الدين والأخلاق ، ويكون مضرب المثل فى التقوى والفضيلة ، وحسن المعاملة ، ومكارم الأخلاق .

ومن هنا فعلى راغبى الزواج أن يحسنوا الاختيار، إن أرادوا أن تكون لهم ذرية صالحة ، وسلالة طاهرة ، وأبناء مؤمنون .

٢- العناية بالأم الحامل لسلامة جنينها :

لقد اهتم الإسلام بالأم الحامل وجعل لها حقوقا ، وسن لها رخصا من أجل الحفاظ على جنينها منها :

أ- نفقة الزوجة على زوجها : وتستمر النفقة الزوجية مادام رباط الزوجة قائما ، فإن حصل طلاق رجعى فلها نفقة العدة حتى انتهائها ، أما إذا كانت حاملا فإن نفقتها واجبة على الأب حتى الولادة وذلك مراعاة للجنين قبل ولادته ، وتستمر نفقة الرضاع والحضانة على الأب بعد الولادة . يقول تعالى :﴿**وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن**﴾[١] .

ب - إباحة الفطر فى رمضان للحامل : إذا دعت الحاجة الحامل إلى الفطر فى رمضان ، جاز الإفطار ، وإن كانت هناك ضرورة لذلك وجب الإفطار ، وهذه أمور يقررها الطبيب المسلم .

وعلى الأم الحامل التى أفطرت القضاء بعد ذلك .

ج- عدم إقامة الحد على الحامل حتى تضع حملها: إذا ارتكبت الحامل ما يوجب الحد أو القصاص . وقف تنفيذ ذلك حتى مابعد

---

(١) سورة الطلاق الآية ٦ .

الحمل والفطام حرمة للجنين والولد ، لأن قتل الحامل هو قتل للجنين أيضا وهذا غير جائز لما رواه النبى ﷺ حيث قال :"إذا قتلت المرأة عمداً لم تقتل حتى تضع مافى بطنها وحتى تكفل ولدها" .

كما روى عنه ﷺ أنه قال للمرأة الغامدية التى زنت وجاءته ليقيم عليها الحد لأنها أرادت أن تطهر نفسها فقال لها -عليه الصلاة والسلام- : "اذهبى حتى تلدى فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة وقالت: هذا قد ولدته . قال : اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه"(١) .

٣- حقوق الجنين :

تتمثل حقوق الجنين فى الأمور التالية :

أ- **تحريم الإجهاض :** لاخلاف بين الفقهاء فى أن الإجهاض أمر محرم متى نفخت الروح فى الجنين لأنه أصبح إنسانا له حرمة الإنسان وقال فقهاء المالكية : يحرم الإجهاض ولو قبل نفخ الروح فقد ورد فى القوانين الفقهية :"وإذا قبض الرحم المنى لم يجز التعرض له ، وأشد من ذلك إذا نفخ فيه الروح فإنه قتل للنفس إجماعا"(٢) .

وعلى هذا لايجوز الإجهاض ولو قبل الأربعين يوما لأنه فى طريقه للتكوين .

أما إذا تعرضت الأم إلى ضرر بالغ يودى بحياتها نتيجة هذا الحمل، نظرنا إلى أقل الضررين ، وأخذنا بالمقولة "الحى أبقى من الميت" على أن يقر بهذا طبيب مسلم ماهر يتقى الله ويخافه .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه . كتاب الحدود . باب حد الزنا ٢٠٣/١١ شرح النووى .

(٢) القوانين الفقهية لابن جزى المالكى ص ٢٣٥ .

ب- عدم الاعتداء على الجنين : إذا اعتدى شخص على المرأة الحامل فسقط الجنين ميتا . وجبت الغرة وهى نصف عشر الدية ، أما إذا سقط الجنين حيا ثم مات متأثراً من الاعتداء عليه فتجب فى هذه الحالة الدية كاملة(1) .

ج- حفظ ميراث الجنين حتى ولادته : يستحق الجنين الميراث من مورثه ويحفظ له مقدار معين حتى ولادته فيسلم المبلغ الموروث إلى وليه . ويمكن تأجيل توزيع التركة إلى مابعد وضع الحمل الوارث إلا إذا طلب الورثة التوزيع فيترك للجنين أوفر النصيبين .

د- حفظ الموصى به للجنين : تجوز الوصية للجنين إذا كان موجودا وقت الإيصاء فى بطن أمه ، ويحفظ المبلغ الموصى به حتى ولادة الجنين حيا فيدفع هذا المبلغ إلى وليه .

هـ- حفظ المال الموقوف للجنين : وكذلك إذا أوقف شخص بعض أمواله للجنين فإن هذه الأموال تبقى محفوظة حتى ولادة الجنين فتدفع إلى وليه ليقوم بتنميتها واستثمارها وإدارتها .

المرحلة الثانية : حقوق الطفل بعد الولادة

فكما تعهد الإسلام الجنين بالرعاية والحماية قبل الولادة أيضا تعهده بعدها وحرص على تربيته وحفظه حتى يبلغ سن الرجولة لأن الطفل هو اللبنة الأولى الصغيرة فى بناء الأسرة عماد المجتمع . وهذه بعض القواعد والأحكام التى وضعها الإسلام لرعاية الطفل :

---

(1) المغنى لابن قدامة ٣١٨/٨ .

١- استحباب التأذين والإقامة عند الولادة :

فمن الأحكام التىشرعها الإسلام للمولود : التأذين فى أذنه اليمنى ، والإقامة فى أذنه اليسرى ، وذلك حين الولادة مباشرة .

فقد روى الترمذى[1] **وأبو داود**[2] عن أبى رافع أنه قال :"رأيت رسول الله ﷺ أذن فى أذن الحسن بن على حين ولدته فاطمة " .

وسر التأذين والإقامة - كما ذكر ابن قيم الجوزية فى كتابه تحفة المودود :"أن يكون أول مايقرع سمع الإنسان كلمات النداء العلوى المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته ، والشهادة التى أول مايدخل بها فى الإسلام ، فكان ذلك كالتلقين له شعار الإسلام عند دخوله فى الدنيا ، كما يلقن كلمة التوحيد عند خروجه منها ، وغير مستنكر وصول أثر التأذين إلى قلبه وتأثره به وإن لم يشعر .

مع مافى ذلك من فائدة أخرى : وهى هروب الشيطان من كلمات الأذان ، وهو كان يرصده حتى يولد . فيسمع شيطانه مايضعفه ويغيظه أول أوقات تعلقه به .

وفيه معنى آخر : وهو أن تكون دعوته إلى الله وإلى دينه -الإسلام - وإلى عبادته ، سابقة على دعوة الشيطان ، كما كانت فطرة الله التى فطر الناس عليها ، سابقة على تغيير الشيطان لها ونقله عنها ، إلى غير ذلك من الحكم " أ.هـ

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب الأضاحى . باب الأذان فى أذن المولود ٩٧/٤ .

(٢) وأبو داود فى سننه . كتاب الأدب . باب فى الصبى يولد فيؤذن فى أذنه ٣٢٨/٤ .

٢- حسن اختيار اسم المولود :

من العادات الاجتماعية المتبعة ، أن المولود حين يولد يختار له أبواه اسما يعرف به . فيجب على المربى عند تسمية الولد ، أن ينتقى له من الأسماء أحسنها وأجملها ، وذلك لما يترك من آثار طيبة فى نفس الطفل حين ينشأ ويصبح شابا ودليل على اهتمام الأبوين به منذ اللحظة الأولى فى حياته ، يقول النبى ﷺ "إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم"(١) .

وروى مسلم فى صحيحه(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : "إن أحب أسمائكم إلى الله عزوجل عبدالله وعبد الرحمن" .

٣- ذبح شاة أو أكثر (العقيقة) :

من وسائل التعبير عن الفرح بالمولود الجديد ، فقد أمر الإسلام بالعقيقة وهى الذبيحة التى تذبح للمولود فى اليوم السابع من ولادته لما روى عن النبى ﷺ أنه قال : "كل غلام رهين بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى فيه ويحلق رأسه"(٣) .

ويعق عن الغلام بضعف ما يعق به عن الجارية ، عن عائشة – رضي الله عنها– أن رسول الله ﷺ أمرهم "أن يعق عن الغلام شاتان متكافئتان، وعن الجارية شاة"(٤) .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه . كتاب الأدب . باب فى تغيير الأسماء ٢٨٧/٤ .

(٢) كتاب الآداب . باب ما يستحب من الأسماء ١١٣/١٤ شرح النووى .

(٣) أخرجه أبو داود . كتاب الأضاحى . باب فى العقيقة ١٠٦/٣ ، والنسائى كتاب: العقيقة . باب متى يعق ١٦٦/٧ .

(٤) أخرجه الترمذى : كتاب العقيقة ٩٦/٤-٩٧ ، وابن ماجة كتاب الذبائح ١٠٥٦/٢ .

ولهذا ذكر الفقهاء أن العقيقة واجبة ، وقال بعضهم إنها سنة مؤكدة وهو رأى جمهور الفقهاء[1] .

وقوله "متكافئتان" قال الخطابى[2] : المراد التكافؤ فى السن فلا تكون إحداهما مسنة ، والأخرى غير مسنة ، بل يكونان مما يجزئ فى الأضحية ، وقال زيد بن أسلم[3] متشابهتان تذبحان جميعا أى لا يؤخر ذبح إحداهما عن الأخرى ، وقال الزمخشرى[4] : معناه متعادلتان .

وفى قوله ﷺ "ويحلق رأسه" دليل على مشروعية حلق رأس المولود يوم سابعه ، وظاهره عام لحلق رأس الغلام والجارية .

٤- الرضاع :

لابد للطفل منذ ولادته من رعاية وحفظ وتربية ، ومن أول ما يحتاجه الطفل الوليد غذاؤه الذى ينمو به ، وتقوم عليه حياته ولا غنى له عنه قال تعالى **﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده * وعلى الوارث مثل ذلك * فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾**[5] .

---

(١) سبل السلام ١٩٠/٤ .
(٢) عون المعبود شرح سنن أبى داود ٣٨/٨ .
(٣) عون المعبود شرح سنن أبى داود ٣٨/٨ .
(٤) عون المعبود شرح سنن أبى داود ٣٨/٨ .
(٥) سورة البقرة الآية ٢٣٣ .

وقال تعالى : ﴿**وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن * فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن * وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى**﴾[1] من خلال هذه الآيات الكريمات وهدى سنة رسول الله ﷺ وضع الفقهاء أحكام الرضاع ويمكن إيجازها فيما يلى[2] :

فإن رضاع الطفل أمر واجب شرعا وطبعا على الأبوين هذا إذا كانت الحياة بينهما تسير سيرها الطبيعى . أما إذا استحالت الحياة وتغيرت الأحوال وتفرق الأبوان فقد حمى الشارع الطفل بنص يضمن له الغذاء فى المدة الكافية ، وينظم العلاقة بين الأبوين تنظيما سليما .

فإذا كانت الأم مطلقة فلا تجبر على إرضاع طفلها لأن الإرضاع كالنفقة ، ونفقة الصغير على أبيه ، وعلى الأب استئجار مرضع لطفله إذا رفضت الأم إرضاعه .

أما إذا امتنع الطفل عن قبول ثدى غير أمه ، ففى هذه الحالة تجبر الأم على إرضاعه حفظا لحياته ، ويضاف إلى ذلك إذا امتنع أيضا عن تناول المستحضرات الطبية كالحليب المجفف مثلا .

فإن مات الأب ولا مال للصبى لاستئجار مرضع له . فالرضاع واجب على الأم .

---

(١) سورة الطلاق الآية ٦ .

(٢) راجع تفسير ابن جرير الطبرى ٢/٣٠٤ - ٣٠٥ ، وتفسير القرطبى ٣/١٠٦-١٠٧ وتفسير ابن كثير ١/٢٦٨-٢٦٩ .

ولكن هل تستحق الأم أجرة على الإرضاع ؟

إن كانت الرضاعة أثناء الحياة الزوجية أو فى عدة الطلاق الرجعى فإن الزوجة لا تستحق نفقة لإرضاعها طفلها لأن نفقة الزوجة والمعتدة رجعيا على الزوج . أما المطلقة طلاق بينونة فلا رضاع عليها ، والرضاع على الزوج إلا أن تشاء هى ؛ فهى أحق بأجرة المثل[1] .

وهذا يبرز حق الأبناء على الآباء فى وجوب الرضاع ، وتربيتهم جسميا تربية تبعدهم عن العلل والأمراض .

كما ينبغى تعهد الطفل بالتربية العقلية ، بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ، ومن هنا كان اهتمام السلف الصالح بوضع المناهج لأبنائهم قبل أن توجد المناهج والمدارس. والتأكيد على أن يكون المعلم قدوة طيبة لتلميذه ، فإنه يتأثر بسلوكه قبل أن يتأثر بالمنهج المرسوم .

وهذه وصية عمر بن عقبة لمؤدب ولده "ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت ، علمهم كتاب الله ، ولا تملهم فيه فيتركوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، وروهم من الحديث أشرفه ومن الشعر أعفه، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموا ، فإن ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم ، وعلمهم سنن الحكماء وجنبهم محادثة النساء" .

ومن أعظم ما يعلمه الآباء للأبناء ما وصى به النبى ﷺ عبد الله بن عباس حيث قال له . "يا غلام إنى أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ،

---

(١) راجع تفسير القرطبى ١٠٦/٣ .

احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف"(١).

ولكن هذه الجوانب التربوية لا يمكن أن تلقن للطفل دفعة واحدة وإنما لابد فيها من التدرج ، ومراعاة سن الطفل ، فمن أدب ولده صغيرا سر به كبيرا ، ومن لم يتدبر العواقب كان لا شك من النادمين .

فالطفل فى أول أمره وأيام طفولته ينشأ على فطرة سليمة ونفس صافية ، تتأثر بالخير كما تتأثر بالشر ، وتنطبع فيها الأخلاق الحسنة كما تنطبع فيها الأخلاق السيئة . فإذا وجد فى هذا الوقت من يحكم تربيته ، ويحسن تأديبه ، ويسلك به سبيل الاستقامة ، وطريق الأدب والكمال . شب حسن الأخلاق ، طيب النفس ، متعلقا بأهداف الفضيلة ، متمسكا بحبل الهدى والرشاد والتهذيب ، وإلا نشأ سيء الأخلاق ، خبيث النفس ، كارها للخير ، كلا على أهله وعشيرته . وكان شقاءً على نفسه وبلاء على الناس أجمعين . وكان على ولى أمره كفل عظيم من تبعات شروره وجرائمه ، لإهماله فى تربيته وتأديبه ؛ فهو مسئول عن ذلك أمام الله تعالى قال ﷺ "إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته"(٢) .

ومن أعظم ما يجب أن يتحلى به الوالدان العدل بين الأبناء فهو عامل مهم وضرورى جداً فى التربية السليمة .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب صفة القيامة ٦٦٧/٤ قال أبو عيسى : حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب الجهاد . باب ما جاء فى الإمام ٢٠٨/٤ .

فالتفرقة فى معاملة الأبناء ، وتفضيل البعض على الآخر لأى سبب من الأسباب يملأ القلوب الصغيرة بالحسرة والمرارة ، فيكرهوا بعضهم وتستمر هذه المشاعر البغيضة إلى أن يكبروا ويتزوجوا وربما تنتقل إلى أبنائهم .

ومن المؤسف أن بعض الآباء والأمهات يفضلون الابن الأكبر على إخوته ويحيطونه بالحب والرعاية والاهتمام وتكون النتيجة أن الولد يتصور أنه رب البيت فيستهين بإخوته الأصغر .

كما نجد بعض الأسر تدلل الابن الصغير لمجرد أنه آخر الأولاد . فيشترى له الأب كل ما يطلب ، وتخصه الأم بالرعاية والحنان ، كما يجد التدليل من كل أفراد الأسرة وتكون النتيجة أن هذا الولد يتصرف بميوعة وعدم مبالاة تؤدى إلى الانحراف .

إن العدل بين الأبناء يسعدهم ويقيهم من الإصابة بعقد نفسية ، كما أنهم يصبحون مواطنين صالحين متفائلين يقبلون على الحياة وينجحون فى العمل ويحبون الناس .

إن تربية الأبناء فى صغرهم على مبادئ الدين الحنيف ، وتعويدهم علي مكارم الأخلاق ، من أهم المسائل التى يجب على الآباء أن ينتبهوا لها ، والمصلحين أن يعنوا بها ، وأن يعلموا أن عليها تدور حياة الأمة فى مستقبلها ، وعليها وحدها يتوقف رقيها .

فما الأمم إلا بالأخلاق ، وما الأخلاق إلا بالتربية الدينية الصحيحة .

إننا لو تأملنا جميع ما نشكوا منه اليوم من فساد الأخلاق وانتشار المنكرات وانتهاك الحرمات ، وتهاون فى تنفيذ أوامر الدين – لو تأملنا كل ذلك لوجدنا أن السبب فى كل هذا هو ترك التربية الدينية ، وإهمال التأديب فى وقته .

فالولد قطعة من أبيه ، وأمانة فى عنقه ، فلنتقى الله فى ثمرات قلوبنا وفلذات أكبادنا ؛ بتعليمهم ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم، وغرس حب الدين وآدابه فى قلوبهم ، والعمل بأحكامه وشرائعه ، وأمرهم بأداء الصلوات فى أوقاتها ، وتعويدهم على الأخلاق الحسنة ، قال ﷺ : "مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع"(١) وكل ذلك يكون بالرفق واللين . ففى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال : "إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا ينزع من شىء إلا شانه"(٢) .

كما يجب على الوالدين إبعاد الولد ذكرا كان أم أنثى عن رفاق السوء لأنه يكتسب منهم عادات ليست فى مصلحته . واكتساب العادات السيئة يأتى بسرعة فائقة . ولذلك حذر النبى ﷺ من مصاحبة أقران السوء ورفاق الشر قال : "إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير . فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة"(٣).

هذا الاتجاه الإسلامى بهذه الروح فى تربية الأولاد يعتبر ركيزة صلبة من ركائز حماية المجتمع من التشرد وانحراف الأحداث .

أسأل الله السميع العليم التوفيق والسداد لأبنائنا وأبناء المسلمين ، وأن يجنبهم شر الشياطين : شياطين الإنس والجن إنه سميع مجيب الدعوات.

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه . كتاب الصلاة . باب متى يؤمر الغلام بالصلاة ١٣٣/١.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب البر والصلة . باب فضل الرفق ١٤٦/١٦-١٤٧ شرح النووى .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الذبائح . باب المسك ٨٢/١٢ من الفتح .

الموضوع العاشر
صلـة الـرحـم

الرَّحِمُ والرَّحْمُ : بيت منبت الولد ووعاؤه فى البطن .. وقال ابن الأثير : ذوو الرحم هم الأقارب ، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب ، ويطلق على الفرائض على الأقارب من جهة النساء . يقال : ذو رحم محرم ومحرم ، وهو من لا يحل نكاحه كالأم والبنت والأخت والعمة والخالة[1] .

وقيل : "هى قرابات الرجل من جهة طرفى آبائه وإن علو وأبنائه وإن نزلوا ، وما يتصل بالطرفين من الإخوة والأخوات والأعمام والعمات ، والأخوال والخالات ، وما يتصل بهم من أولادهم برحم جامعة"[2] .

وكلمة "الرحم" مشتقة من كلمة "الرحمة" ، وهى أيضا اشتقاق من اسم "الله" تبارك وتعالى "الرحمن" . وقد جاء فى الحديث القدسى قول "الله" عز وجل للرحم : "**أنا الله وأنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها من اسمى ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته**"[3] .

والصلة بمعنى : الوصل ، أى وصل ما قطع وانفصم . ولذلك كان من أعلى الأخلاق أن تعفو عمن ظلمك ، وأن تصل من قطعك وأن

---

(١) لسان العرب ٢٣٢/١٢ ، ٢٣٣ .

(٢) دليل الفالحين ١٤٩/٢ ، ١٥٠ .

(٣) بتته : البت القطع ، والتشديد هنا للمبالغة فى القطع ، والحديث أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب البر والصلة . باب ما جاء فى قطيعة الرحم ٣١٥/٤ .

تعطى من حرمك ، قال ﷺ : "ليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها"(١) أى ليست حقيقة الواصل الذى يكافىء صاحبه بمثل فعله ويعطيه نظير ما أعطاه ، ولكن الواصل الذى إذا مُنع أعطى .

وصلة الرحم من أهم الأمور فى الإسلام ... وتأتى أهميتها بعد أهمية الوالدين مباشرة .. فقد جاء فى سورة النساء الأمر بتوحيد الله تبارك وتعالى وطاعته ، ثم الأمر ببر الوالدين ، ثم الأمر بصلة الرحم قال تعالى : ﴿**واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى...**﴾(٢) .

وهذه الصلة تتنوع بحسب حال الرحم الموصولة : فإن كان القريب فقيرا . فإن صلته تكون بالمساعدة بالمال قال النبى ﷺ : "الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم "القربى ثنتان : صدقة، وصلة"(٣) .

وإن كان القريب مظلوما فَصِلَتُه:بنصره ، وتأييده ، ومحاولة رفع الظلم عنه .. وإن كان مريضا فصلته : بالزيارة والتخفيف عنه وابتغاء العلاج له ، ومباشرة أحواله ، والعناية بأهله وأولاده الذين منعه مرضه من رعايتهم . وإن كان ضالا فصلته : محاولة هدايته ، ونصحه ، وإرشاده بالرفق ، واللين ، والحب دون تعنيف أو هجر .

---

(١) أخرجه البخارى كتاب الأدب ٢٩/١٣ من الفتح .

(٢) سورة النساء الآية ٣٦ .

(٣) أخرجه الترمذى . كتاب الزكاة . باب ما جاء فى الصدقة على ذى القرابة ٣٨/٣ .انظر فتح البارى لابن حجر ٢٣/١٣ .

قال القرطبى[1] : "الرحم التى توصل عامة وخاصة ، فالعامة رحم الدين ، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم ، والنصفة فى معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة ، كتمريض المرضى وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة ودفنهم ، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم . وأما الرحم الخاصة وهى رحم القرابة من طرفى الرجل أبيه وأمه ، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة ، كالنفقة وتفقد أحوالهم ، وترك التغافل عن تعاهدهم فى أوقات ضروراتهم ، وتتأكد فى حقهم حقوق الرحم العامة ، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدىء بالأقرب فالأقرب" .

وقال ابن أبى حمزة[2] : "تكون صلة الرحم بالمال ، وبالعون على الحاجة ، وبدفع الضرر ، وبطلاقة الوجه وبالدعاء" .

والمعنى الجامع لكل ما ذكر هو إيصال ما أمكن من الخير ودفع ما أمكن من الشر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحسب الطاقة وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة ، فإن كانوا عصاة أو فجارا فمقاطعتهم فى الله هى صلتهم بشرط بذل الجهد فى وعظهم ، والدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى رشدهم وإلى الطريق المستقيم، ولنا فى إبراهيم –عليه السلام– أسوة حسنة ، حيث قال لأبيه – بعد ما يئس منه– كما يحكى القرآن : **﴿قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا﴾**[3] .

---

(١) تفسير القرطبى ١٦٤/١٦ .

(٢) انظر فتح البارى لابن حجر ٢٣/١٣ .

(٣) سورة مريم الآية ٤٧ .

إن القريب ذا الرحم أولى من غيره من المؤمنين بـولاء قريبـه وبـره ومقدم عليه فى جميع الولايات المتعلقة به ، قال تعالى **﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾**(١) فإذا وجد قريب وبعيد يستحقان البر والصلة ، فالقريب أولى . قال رسول الله ﷺ : "ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فـإن فضل شـيء فلأهلـك ، فـإن فضـل شـيء من أهلـك فلذى قرابتك فإن فضل عن ذى قرابتك شيء فهكذا وهكذا" أى فللمستحق مـن الأجانب .

ورضا الله تبارك وتعالى متوقف على رضا الرحم التى حين خلقهـا الله تعالى تعلقت بساق العرش ، مستجيرة من القطيعة ، كما يحكـى لنـا النبى ﷺ بقوله : "إن الله لما خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه ، قـالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ؟ قـال : نعـم ، أمـا ترضيـن أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يا رب ، قال : فهـو لك ، قال رسول الله ﷺ : فاقرءوا إن شئتم **﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾**(٢) .

قال القاضى عياض : "الرحم التى توصل وتقطـع وتـبر إنمـا هـى معنى من المعانى ليست بجسم وإنما هى قرابة ونسب يجمعه رحم والدة ويتصل بعضه ببعض وسمى بذلك الاتصال رحما ، والمعـانى لا يتـأتى منها القيام ولا الكلام ، فيكون ذكر قيامها فى الحديث وتعلقهـا ضـرب مثل وحسن استعارة على عادة العرب استعمال ذلك ، والمراد تعظيم

---

(١) سورة الأنفال الآية ٧٥ .

(٢) الآيـة : سـورة محمد الآيـة ٢٢ ، والحديـث : أخرجـه البخـارى : كتـاب الأدب ١٣/٢١-٢٢ من الفتح ، ومسلم . كتاب الـبر والصلـة والآداب ١٢٢/١٦ شـرح النووى .

شأنها وفضيلة واصلها وعظيم اسم قاطعها بعقوقهم ولذلك سُمى العقوق قطعاً ... قال : ويجوز أن يكون المراد قيام ملك من الملائكة تعلق بالعرش وتكلم على لسانها بذلك بأمر الله تعالى أهـ[1] .

وروى عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : "الرحم شجنة[2] من الرحمن . فقال الله : من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته"[3] .

قال الاسماعيلى[4] معنى الحديث أن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن فلها به علقة ، وليس معناه أنها من ذات الله ، تعالى الله عن ذلك .

إثم قاطع الرحم :

إن قاطع الرحم لا يدخل الجنة لما روى عن جبير بن مطعم أنه سمع النبى ﷺ يقول : "لا يدخل الجنة قاطع"[5] قال سفيان يعنى قاطع رحم .

قال الإمام النووى : هذا الحديث يتأول تأويلين :

---

(١) دليل الفالحين ١٤٨/٢ .

(٢) شجنة : أصل الشجنة : عروق الشجر المشتبكة ، والشجن بالتحريك واحد الشجون : وهى طرق الأودية : ومنه قولهم : "الحديث ذو شجون" أى ذو شعب وامتساك بعضه ببعض ، وقوله "من الرحمن" أى أخذ اسمها من هذا الاسم . انظر : النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ٤٤٧/٢ ، وفتح البارى لابن حجر ٢٣/١٣ .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه الأدب . باب من وصل وصله الله ٢٣/١٣ من الفتح

(٤) انظر فتح البارى لابن حجر ٢٣/١٣ .

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب إثم قاطع الرحم ١٩/١٣ من الفتح ومسلم فى صحيحه . كتاب البر والصلة والآداب ١١٤/١٦ شرح النووى .

أحدهما : حمله على من يستحل القطيعة بلا سبب ولا شبهة مع علمه بتحريمها فهذا كافر يخلد فى النار ولا يدخل الجنة أبدا .

والثانى : معناه ولا يدخلها فى أول الأمر مع السابقين بل يعاقب بتأخره القدر الذى يريده الله تعالى .

ولكنى أرى : أن قاطع الرحم يعتبر كافر ولا يدخل الجنة أبدا إذا كان قاطعا لرحمه ، مضافا إليها الشرك بالله ، وعدم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .. ويدل على ذلك الحديث الذى رواه أبو أيوب الأنصارى أن رجلا قال : يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ؟ فقال النبىﷺ : "تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة، وتصل الرحم"[١] .

أما إذا كان مؤديا لكل ما أمره الله تعالى ما عدا صلة الرحم فإنه لا يدخل الجنة مع السابقين بل يعاقب بتأخره إلى حين أن يشاء الله . والله أعلم .

فضل صلة الرحم :

إن أثر وفضل صلة الرحم ليس قاصر على الآخرة فحسب كما سبق أن بينا فى الحديث السابق بأنها تدخل الجنة ولكن أثرها يظهر فى الحياة الدنيا فمن وصل رحمه بسط الله فى رزقه وأطال فى عمره . روى عن مالك أن رسول الله ﷺ قال : "من أحب أن يبسط فى رزقه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب . باب فضل صلة الرحم ١٣/١٩ من الفتح .

وينسأ[١] له فى أثره ، فليصل رحمه"[٢] .

وفى حديث آخر زاد فضيلة من فضائل صلة الرحم وهى محبة الأهل . وهذا شىء طبيعى ، لأنها تؤدى إلى التواصل والتواد والتعاطف والتراحم وهذا بدوره يؤدى إلى المحبة بين الأهل .

روى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : "تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإن صلة الرحم محبة فى الأهل ، مثراة فى المال، منسأة فى الأثر"[٣] .

قال ابن التين[٤] : ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى : **﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[٥] .**

والجمع بينهما من وجهين :

أحدهما : أن هذه الزيادة كناية عن البركة فى العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة وعمارة وقته بما ينفعه فى الآخرة وصيانته عن تضييعه فى غير ذلك ، ومثل هذا ما جاء أن النبى ﷺ تقاصر أعمار أمته بالنسبة

---

(١) النسىء : التأخير .. ويكون فى العمر والدين . النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ٤٤/٥ . وسمى الأجل أثرا لأنه يتبع العمر ، وأصله من أثر مشيه فى الأرض فإن من مات لا يبقى لقدمه فى الأرض أثر انظر فتح البارى لابن حجر ٢٠/١٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب . باب من بسط له فى الرزق لصلة الرحم ٢٠/١٣ من الفتح ، ومسلم . كتاب البر والصلة والآداب ١١٤/١٦ شرح النووى .

(٣) أخرجه الترمذى . كتاب البر والصلة . باب ما جاء فى تعليم النسب ٣٥١/٤.

(٤) انظر فتح البارى لابن حجر ٢٠/١٣-٢١ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٣٤ .

لأعمال من مضى من الأمم فأعطاه الله ليلة القدر . وحاصله أن صلة الرحم تكون سببا للتوفيق للطاعة ، والصيانة عن المعصية فيبقى بعده الذكر الجميل فكأنه لم يمت . ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذى ينتفع به من بعده والصدقة الجارية عليه والخلف الصالح .

ثانيهما : أن الزيادة على حقيقتها وذلك بالنسبة إلى علم الموكل بالعمر . وأما الأول الذى دلت عليه الآية فبالنسبة إلى علم الله تعالى كأن يقال للملك مثلا إن عمر فلان مائة مثلا إن وصل رحمه ، وستون إن قطعها ، وقد سبق فى علم الله أنه يصل أو يقطع فالذى فى علم الله لا يتقدم ولا يتأخر ، والذى فى علم الملك هو الذى يمكن فيه الزيادة والنقص وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾[1] فالمحو والإثبات بالنسبة لما فى علم الملك ، ومافى أم الكتاب هو الذى فى علم الله تعالى فلا محو فيه البتة ويقال له القضاء المبرم ، ويقال للأول القضاء المعلق أ . هـ .

والوجه الأول أليق بلفظ الحديث ، فإن الأثر ما يتبع الشىء فإذا أخر حسن أن يحمل على الذكر الحسن بعد فقد المذكور .

فماذا يطمع الإنسان بعد ذلك ؟! من جنة الله وعطفه ورحمته ولطفه وإحسانه ، وتوسعة فى رزق العبد وزيادة فى أجله أليس كل هذا دافعا إلى صلة العبد لرحمه .

ويشير القرآن إلى أهمية الرحم فى كثير من المواضع .. فمثلا حين غضب موسى -عليه السلام- من أخيه هارون -عليه السلام- وعاتبه على عدم اتباعه - حين اتخذ قومه العجل - استدر هارون -عليه السلام-

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٩ .

عطف أخيه بتذكيره بصلة الرحم ، فقال له ، كما يحكى القرآن: ﴿**قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى...**﴾[١] .

ونلاحظ أنه لم يخاطبه بقوله : يا أخى ، وإنما بقوله "يا ابن أم ، أى: يا من شاركتنى فى رحم واحدة وكذلك حين دخلت أم هانئ بنت أبى طالب على رسول الله ﷺ بعد فتح مكة تشكو أخاها عليا بن أبى طالب قائلة : يا رسول الله زعم ابن أمى علىٌّ أنه قاتل رجلاً قد أجرته ، فلان بن هبيرة ، فقال لها : "قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ"[٢] .

نلاحظ أنها لم تقل : إن أخى ، ولم تقل : إن عليا ، وإنما قالت : ابن أمى ، وقصة الغلام الذى قتله الخضر - عليه السلام- ، يقول تعالى : ﴿**فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما**﴾[٣] أى : أطهر منه وأصلح وأشد رعاية للرحم ، وقد يتعلل بعض الناس بمشاكل الحياة وهمومها من عدم سؤالهم عن ذوى القربى ومودتهم . ولكن إلى جانب ذلك فهناك من الوسائل المتاحة - الآن- ما لم يكن متاحاً من قبل ، مثل: إرسال البرقيات للتهنئة ، أو للعزاء ، وإرسال الورود للمرضى فى بيوتهم ، أو مراكز العلاج ، وكذلك الاتصال بالوسائل السلكية "التليفون" وإرسال الخطابات ، .. وما إلى ذلك مما يوجد الألفة ، والمحبة ، ودوام الصلة .

---

(١) سورة طه الآية ٩٤ .

(٢) أخرجه البخارى . كتاب الجزية باب أمان النساء وجوارهن ٨٣/٧ من الفتح .

(٣) سورة الكهف الآية ١٨ .

الموضوع الحادى عشر
رعايــة اليتيــم

اليتيم فى اللغة : الإنفراد . واليُتمُ واليَتَمُ : فقدان الأب . وقال ابن السكيت : اليتم فى الناس من قبل الأب ، وفى البهائم من قبل الأم ، ولايقال لمن فقد الأم من الناس يتيم ، ولكن منقطع . وقال ابن برى : اليتيم الذى يموت أبوه ، والعجمى الذى تموت أمه ، واللطيم الذى يموت أبواه[١] وقد قيل : من مات أبوه فهو يتيم ومن ماتت أمه فهو لطيم .

وإذا بلغ الذكر والأنثى زال يسمون عنهما اسم اليتيم حقيقة ، وقد يطلق عليهما مجازا بعد البلوغ كما كانوا يسمعون النبى ﷺ ، وهو كبير "يتيم أبى طالب" استصحابا لما كان . قال تعالى : ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم**﴾[٢] أراد باليتامى الذين كانوا أيتاما ، كقوله تعالى:﴿**وألقى السحرة ساجدين**﴾[٣] ولاسحر مع السجود ، فكذلك لايتم مع البلوغ .

وقد حرم الله تعالى أكل أموال الناس عامة بالباطل فى قوله تعالى : ﴿**ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون**﴾[٤] ومع ذلك خص مال اليتيم بالذكر ، وشدد فى تحريم أكله بالباطل بقوله : ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا**﴾[٥] .

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٦٤٥/١٢ .
(٢) سورة النساء الآية ٢ .
(٣) سورة الأعراف الآية ١٢٠ .
(٤) سورة البقرة الآية ١٨٨ .
(٥) سورة النساء الآية ١٠ .

ففى هـذه الآيـة بين سبحانه أن أكلـة أمـوال اليتـامى سيصلون نـاراً مسعرة أى موقودة مشعلة شديدا حرها .

أخرج الطبرى عن السدى قال : "إذا قام الرجل يـأكل مـال اليتيـم ظلما يبعث يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيـه ومـن مسـامعه ومـن أذنيه وأنفه وعينيه يعرفه من رآه يأكل مال اليتيم"[١] .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : " اجتنبوا السبع الموبقـات ، قـالوا يارسول الله وماهن؟ قـال:" الشـرك باللـه والسـحر ، وقتـل النفس التـى حـرم اللـه إلا بـالحق ، وأكـل الربـا ، وأكـل مـال اليتيـم ، والتولـى يـوم الزحـف ، وقـذف المحصنـات الغافـلات المؤمنات"[٢] .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : "حدثنا النبى ﷺ عن ليلـة أسـرى به قال نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكـل بهـم مـن يأخذ بمشافرهم ثم يجعل فى أفواههم صخرا من نـار يخـرج من أسـافلهم. قلت: ياجبريل من هؤلاء قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمـا إنما يأكلون فى بطونهم نـارا"[٣] .

وروى أن هذه الآية نزلت فى رجل من غُطفان يقال لـه : مرثـد بـن زيد ولى مال ابن أخيـه وهـو يتيم فأكلـه ، فـأنزل اللـه تعـالى فيـه هـذه الآية[٤] .

وسمى أخذ المال أكلا ، لأنه المقصود وبه أكثر إتلاف الأشياء .

---

(١) تفسير الطبرى ١٨٤/٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الوصايا ٣٢٢/٦ من الفتح .

(٣) المرجع السابق .

(٤) تفسير القرطبى ٣٦/٥ .

وخص البطون بالذكر ، لبيان نقصهم ، والتشنيع عليهم ، ووصفهم بما هو ضد مكارم الأخلاق .

وسمى المأكول نارا ، باعتبار ما يؤول إليه . نحو قوله تعالى : ﴿إنى أرانى أعصر خمراً﴾[1] أى عنبا .

لهذا أمر الله تعالى الأولياء والأوصياء على اليتامى بإيتائهم أموالهم فقال: **﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب ولاتأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا﴾**[2] .

معنى إيتاء اليتامى أموالهم :

قال القرطبى[3] : إيتاء أموال اليتامى يكون بوجهين :

أحدهما : اجراء الطعام والكسوة مادامت الولاية ، إذ لايمكن إلا ذلك لمن لايستحق الأخذ الكُلّى كالصغير والسفيه الكبير .

الثانى : الإيتاء بالتمكن وإسلام المال إليه ، وذلك عند الابتلاء والارشاد ، ويكون تسميته مجازا . أ.هـ

مايجب على الوصى والكفيل ليحفظ مال اليتيم :

فقد كانوا فى الجاهلية – لعدم الدين – لايتحرجون عن أكل أموال اليتامى ، فكانوا يأخذون الطيب والجيد من أموال اليتامى ويبدلونه بالردىء من أموالهم ، بأن يبدلوا الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة ، ويقولون : اسم باسم ورأس برأس ، فنهاهم الله عن ذلك فقال:

---

(١) سورة يوسف الآية ٣٦ .

(٢) سورة النساء الآية ٢ .

(٣) تفسير القرطبى ٨/٥ .

﴿ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب﴾(١) وقيل : المعنى لاتـأكلوا أمـوال اليتـامى وهى محرمة خبيثة وتدعوا الطيب وهو مالكم.

وقـال مجاهد : المـراد لاتتعجلـوا أكل الخبيـث مـن أموالهـم وتدعـوا انتظار الرزق الحلال من عند الله(٢) .

أيضا من أجل الحفـاظ علـى مـال اليتيـم نهـى اللـه تعـالى عـن أكلهـا إسرافا ومجاوزة للحد ، ومبادرة كبرهم ، بأن يستغنم مـال اليتيـم فيأكلـه الوصى ويقول : أبادر كبره لئلا يرشد ويأخذ ماله ، فنهاهم الله عن ذلك فقال : **﴿ولاتأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا﴾**(٣) .

كما كشف القرآن عن نوايا وحيل بعض الأوصيـاء وهـى أن يـتزوج الوصى من اليتيمة التى يكفلها ، طمعا فى مالها ، ولايقسط فـى مهرهـا بأن يعطيها أقل مايعطيها غيره من الأزواج ، فنهاهم اللـه أن ينكحوهـن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى ماهو لهن من الصداق قال تعالى: **﴿وإن خفتـم ألاتقسـطوا فـى اليتـامى فـانكحوا ماطـاب لكـم مـن النسـاء مثنى وثلاث ورباع﴾**(٤) أخـرج مسلم(٥) " عن عـروة بـن الزبـير عـن عائشة -رضى الله عنها- قـالت : يـابن أختـى هـى اليتيمـة تكـون فـى حجر وليها تشاركه فى ماله فيعجبـه مالهـا وجمالهـا فـيريد أن يتزوجهـا بغير أن يقسـط فـى صداقهـا فيعطيها مثل مايعطيهـا غـيره فنهـوا أن

---

(١) سورة النساء الآية ٢ .

(٢) انظر تفسير القرطبى ٨/٥ بتصرف .

(٣) سورة النساء الآية ٦ .

(٤) سورة النساء الآية ٣ .

(٥) فى صحيحه . كتاب التفسير ١٥٤/١٨ شرح النووى .

ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق وأمروا أن ينكحوا ماطاب لهم من النساء سواهن" .

للوصي الفقير أن يأكل من مال وليه بالمعروف :

لما أمر الله تعالى الوصي الغني بالإمساك والاستعفاف عن مال اليتيم وذلك في قوله تعالى :﴿**ومن كان غنيا فليستعفف**﴾[1] أباح للوصي الفقير أن يأكل من مال وليه بالمعروف قال تعالى : ﴿**ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف**﴾[2] ففي صحيح مسلم[3] "عن عائشة رضي الله عنها قالت : نزلت الآية في والي مال اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجا أن يأكل منه" وأخرج أبو داود[4] من حديث حسين المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : إني فقير ليس لي شيء ولي يتيم . فقال :" كل من مال يتيمك غير مسرف ولامباذر ولامتأثل"[5] .

اختلاف العلماء في الأكل بالمعروف :

" اختلف الجمهور في الأكل بالمعروف .

فقال قوم[6] : هو القرض إذا احتاج ويقضي إذا أيسر ، قاله عمر ابن الخطاب وابن عباس وعبيده وهو قول الأوزاعي . ولايستسلف أكثر من حاجته . قال عمر : ألا إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة الولي

(١) سورة النساء الآية ٦ .

(٢) سورة النساء الآية ٦ .

(٣) في صحيحه . كتاب التفسير ١٥٦/١٨ شرح النووي .

(٤) في سننه . كتاب الوصايا . باب مالولي اليتيم أن ينال من مال اليتيم ١١٥/٣ .

(٥) التأثل : اتخاذ أصل المال ، والمعنى : غير جامع . لسان العرب ٩/١١ .

(٦) نقلت هذه الأقوال من تفسير القرطبي ٢٩/٥-٣٠ باختصار .

من مال اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، فإذا أيسرت قضيت .

وقول ثان - روى عن إبراهيم وعطاء والحسن البصرى والنخعى وقتادة : لاقضاء على الوصى الفقير فيما يأكل بالمعروف لأن ذلك حق النظر ، وعليه الفقهاء . قال الحسن : هو طعمة من الله له ، وذلك أن يأكل مايسد جوعته ، ويكتسى مايستر عورته ، ولا يلبس الرفيع من الكتان ولاالحلل .

القول الثالث : روى عن مجاهد قال : " ليس له أن يأخذ قرضا ولاغيره . وذهب إلى أن الآية منسوخة ، نسخها قوله تعالى:﴿**ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم**﴾[1] وهذا ليس بتجارة .

القول الرابع : وهو الفرق بين الحضر والسفر ، فيمنع إذا كان مقيما معه فى المصر . فإذا احتاج أن يسافر من أجله فله أن يأخذ مايحتاج إليه ، ولايقتنى شيئا ، قاله أبو حنيفة وصاحباه أبو يوسف ومحمد .

القول الخامس : قال أبو قلابة : فليأكل بالمعروف مما يجنى من الغلة فأما المال الناض[2] فليس له أن يأخذ منه شيئا قرضا ولاغيره .

---

(١) سورة النساء الآية ٢٩ .

(٢) الناض من المتاع . ماتحول ورقا أو عينا . قال الأصمعى : اسم الدراهم والدنانير عند أهل الحجاز الناض والنض ، وإنما يسمونه ناضا إذا تحول عينا بعد ماكان متاعا . لسان العرب ٢٣٧/٧ .

من خلال عرض الأقوال السابقة فمنهم من يمنع أخذ الوصى من مال اليتيم حتى ولوكان الوصى فقيراً ومنهم من يجوز الأكل .

ولكنى أرى أن للوصى الفقير أن يأكل من مال اليتيم قدرا لايصل إلى حد السرف ، وإذا كان مال اليتيم كثيرا ويتطلب من الوصى القيام عليه وهذا يؤدى إلى شغل الولى عن حاجاته ومهماته فرض له أجرة غير مبالغ فى تقديرها ولكن حسب عرف البلد ، وإن كان المال تافها لايشغله عن حاجاته فلا يأكل منه شيئا ، غير أنه يستحب له شرب قليل اللبن وأكل القليل من السمن والتمر .

تنمية مال اليتيم وإصلاحه :

نهى الله تعالى - الأوصياء - عن كل تعد على مال اليتيم وهضم لحقوقه قال تعالى:﴿**ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن**﴾[1] أى ولاتقربوا مال اليتيم إذا وليتم أمره ، أو تعاملتم به ولو بواسطة وليه أو وصيه إلا بالفعلة التى هى أحسن فى حفظ ماله وتثميره ، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه بالتجارة فيه ، ولايشترى منه ولايستقرض ، وأن يعمل كل مافيه مصلحة لليتيم كالإنفاق منه على تربيته وتعليمه مابه يصلح معاشه ومعاده .

والنهى عن القرب فى قوله تعالى:﴿**ولاتقربوا**﴾ أبلغ من النهى عنه، فإن الأول يتضمن النهى عن الأسباب والوسائل المؤدية إليه ، وعن الشبهات التى هى مظنة التأويل .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٢ .

روى أبو داود[1] **عن ابن عباس قال** : لما أنزل الله عزوجل **﴿ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن﴾** و **﴿إن الذين ياكلون أموال اليتامى ظلما﴾** انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنزل الله عزوجل **﴿ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾** فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه .

لما أذن الله عز وجل فى مخالطة الأيتام مع قصد الإصلاح كان ذلك دلالة على جواز التصرف فى مال اليتيم بالبيع والشراء والمضاربة والإجازة إذا وافق الصلاح .

كيفية دفع أموال اليتامى :

أمر الله تعالى بحفظ مال اليتيم ، ولايسمح له بتبذير شىء من ماله وإضاعته أو الإسراف فيه حتى يبلغ ، فإذا بلغ يسلم ماله إليه ، ولكن لابد من الابتلاء وعمل اختبار لليتيم قبل دفع المال إليه قال تعالى : **﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم﴾**[2] الابتلاء : الاختبار . وهذه الآية خطاب للجميع فى بيان كيفية دفع أموالهم . وقيل : إنها نزلت فى ثابت بن رفاعة وفى عمه . وذلك أن رفاعة توفى وترك ابنه وهو صغير ، فأتى عم ثابت

---

(١) فى سننه . كتاب الوصايا . باب مخالطة اليتيم فى الطعام ٣/١٤٤-١٤٥ .

(٢) سورة النساء الآية ٦ .

إلى النبى ﷺ فقال :إن ابن أخى يتيم فى حجرى فما يحل لى من مالـه ، ومتى أدفع إليه ماله ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية[1] .

إذن فلا يدفع المال لليتيم إلا بعد أمور ثلاثة :

أولا : الإبتلاء (الاختبار) :

وذلك بـأن يتـأمل الوصـى أخـلاق يتيمـه ، ويسـتمع إلـى أغراضـه فيحصل له العلم والمعرفة بنجابته والسعى فى مصالحـه وضبـط مالـه ، أو العكس وهو الإهمال لذلك .

واليتيم لايخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون غلاما أو جاريـة ، فـإذا كان غلاماً اختبره فى نفقة الدار شهرا ، أو أعطاه شـيئا قليـلا يتصـرف فيه ، ليعرف كيف يديره ويتصرف فيه ، وهو مع ذلك يراعيه ويراقبـه من بعيد لئلا يتلفه .

وإن كانت جارية وُكِّل إليها تدبير البيت والنظر فى شئونه لمدة مـا . مع المراقبة أيضا . فإن رآها رشيدة مدبرة عاقلة مقتصـدة غير مبـذرة سلم إليها مالها .

ثانيا: بلوغ النكاح :

المقصود مـن النكـاح الحُلُم . قـال تعـالى :﴿**وإذا بلـغ الأطفـال منكم الحلم**﴾[2] أى البلوغ وحال النكاح .

قال الجمهور من العلماء : البلـوغ فـى الغـلام تـارة يكـون بـالحُلُم وهو أن يرى فى منامه ماينزل به الماء الدافق الذى يكـون منـه الولـد .

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٥/٢٤ .

(٢) سورة النور الآية ٥٩ .

أخرج أبو داود[1] عن على ﷺ - قال حفظت من رسول الله ﷺ" لايتم بعد احتلام ..." وفى حديث آخر عن عائشة -رضى الله عنها- عن النبى ﷺ قال :"رفع القلم عن ثلاثة عن الصبى حتى يحتلم أو يستكمل خمس عشرة سنة وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق"[2] .

ثالثا : الرشد :

أمر الشارع الأوصياء بحفظ مال اليتيم ولايسمحوا له بتبذير شىء من ماله وإضاعته أو الإسراف فيه . فإن أونس منه الرشد العقلى والأخلاقى بكثرة المران والتجارب فى المعاملات دفعوا له ماله قال تعالى :﴿**فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم**﴾[3] .

واختلف العلماء فى تأويل "رشدا"[4] .

قال الحسن وقتاده وغيرهما : صلاحا فى العقل والدين .

وقال ابن عباس والسدى والثورى: صلاحا فى العقل وحفظ المال.

وقال مجاهد : يعنى فى العقل خاصة .

وإنى أميل إلى أن المقصود من الرشد هو الصلاح فى العقل والدين فبهما يحافظ الإنسان على ماله . قال سعيد بن جبير والشعبى :

---

(١) فى سننه .كتاب الوصايا . باب متى ينقطع اليتم ١١٥/٣ .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه . كتاب الحدود ١٤١/٤ ،والترمذى بنحوه ٣٢/٤ .

(٣) سورة النساء الآية ٦ .

(٤) انظر تفسير القرطبى ٢٦/٥ .

"إن الرجل ليأخذ بلحيته ومابلغ رشده، فلا يدفع إلى اليتيم ماله وإن كان شيخا حتى يؤنس منه رشده"[١] أى فى العقل والدين .

كما أمر سبحانه الأولياء بحفظ مال اليتيم حتى يبلغ أشده قال تعالى : **﴿ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده﴾**[٢] يعنى قوته ، وقد تكون فى البدن ، وقد تكون فى المعرفة بالتجربة .

مما سبق نقول : لايدفع لليتيم ماله حتى يجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح ، وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد ، فلو مكن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعد حصول القوة الجسدية لأذهبه فى شهوته وبقى صعلوكا لامال له وإن وجد أحدهما دون الآخر لم يجز تسليم المال .

ولكى نتأكد من ثبوت هذين الشرطين (إيناس الرشد وبلوغ النكاح).

فلابد من إجراء اختبار له حتى نرى أحسن التصرف أم لا .

وهذا ماشرطه الشارع الحكيم لإيتاء اليتامى أموالهم بلوغ سن الحلم والرشد فى المعاملات المالية بالاختبار كما سلف فى سورة النساء من قوله تعالى :**﴿وابتلوا اليتامى﴾** الآية .

الإشهاد عند تسليم اليتامى أموالهم :

أمر الله تعالى بالإشهاد وقت دفع الأوصياء أموال اليتامى تنبيها إلى التحصين وزوالا للتهم قال تعالى :**﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا**

---

(١) المرجع السابق .

(٢) سورة الأنعام من الآية ١٥٢ .

عليهم وكفى بالله حسيبا﴾[1] أى إذا حصل مقتضى الدفع فدفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم أنهم قبضوها منكم لتندفع عنكم التهم وتأمنوا عاقبة الدعاوى الصادرة منهم .

وقيل : إن الإشهاد المشروع هو رد على ما استقرضه . " فقد رأى عمر بن الخطاب ﷺ وابن جبير أن هذا الإشهاد إنما هو على دفع الوصى فى يسره ما استقرضه من مال يتيمه حالة فقرة .

وقال أبو عبيدة : هذه الآية دليل على وجوب القضاء على من أكل ،والمعنى : فإذا اقترضتم أو أكلتم فأشهدوا إذا غرمتم "[2] وقيل هو ما أنفقه عليهم الأولياء قبل رشدهم . ولكن ظاهر النظم القرآنى مشروعية الإشهاد على مادفع إليهم من أموالهم وهو يعم الإنفاق قبل الرشد ، والدفع إليهم بعد الرشد .

وقد ختم سبحانه الآية بقوله **﴿وكفى بالله حسيبا﴾** أى حاسبا لأعمالكم شاهدا عليكم فى كل شىء تعملونه، ومن جملة ذلك معاملتكم لليتامى فى أموالهم ، وفيه وعيد عظيم . وبهذا نرى مناسبة تذييل وختام الآية لمضمونها . وهذا سر من أسرار إعجاز النظم القرآنى .

وبين القرآن الكريم خطورة الإساءة إلى اليتيم فقال تعالى :**﴿أرأيت الذى يكذب بالدين *فذلك الذى يدع اليتيم * ولايحض على طعام المسكين﴾**[3] ويمتن الله تبارك وتعالى على حبيبه المصطفى ﷺ

---

(١) سورة النساء الآية ٦ .
(٢) تفسير القرطبى ٣١/٥ .
(٣) سورة الماعون الآيات من ١-٣ .

ويوصيه باليتيم فيقول :﴿**ألم يجدك يتيما فآوى**﴾[1] ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر**﴾[2] .

فضل من يعول يتيما :

لقد أشاد الله تعالى بمن يطعم يتيما فقال :﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا**﴾[3] فمن سمة الأبرار أنهم يطعمون الطعام مع قلته وحبهم إياه وشهوتهم له .

كما حث سبحانه على إطعام اليتيم خاصة حال المجاعة فقال :﴿**أو إطعام فى يوم ذى مسغبة * يتيما ذا مقربة**﴾[4] .

أيضا فإن رعاية اليتيم من أهم الأمور التى أوصى بها الرسول ﷺ وبشر عليها بعلو الدرجات فى الجنة . عن سهل بن سعد قال "قال ﷺ أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا"وأشار بأصبعيه : السبابة والوسطى ، وفرج بينهما "[5] .

قال ابن بطال : حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبى ﷺ فى الجنة ولامنزلة فى الآخرة أفضل من ذلك[6] .

---

(١) سورة الضحى الآية ٦ .

(٢) سورة الضحى الآية ٩ .

(٣) سورة الإنسان الآية ٨ .

(٤) سورة البلد الآيتان ١٤ ، ١٥ .

(٥) أخرجه البخارى فىصحيحه . كتاب الأدب . باب فضل من يعول يتيما ٤٣/١٣ من الفتح ، والترمذى . كتاب البر والصلة ٣٢١/٤ .

(٦) انظر فتح البارى شرح البخارى لابن حجر ٤٣/١٣ .

وقال ابن حجر : ومثل هذا لايثبت بالاحتمال ويكفى فى إثبات قرب المنزلة من المنزلة أنه ليس بين الوسطى والسبابة أصبع أخرى .. ويحتمل أن يكون المراد قرب المنزلة حالة دخول الجنة لما أخرجه أبو يعلى من حديث أبى هريرة رفعه "أنا أول من يفتح باب الجنة فإذا امرأة تبادرنى[1] فأقول : من أنت ؟ فتقول : أنا امرأة تأيمت على أيتام لى"[2].

ولعل الحكمة فى كون كافل اليتيم يشبه فى دخول الجنة أو شبهت منزلته فى الجنة من النبى ﷺ لكونه ﷺ بعث إلى قوم لايعقلون أمر دينهم فكان كاملا لهم ومعلما ومرشدا ، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لايعقل أمر دينه بل ولادنياه ، ويرشده ويعلمه ويحسن أدبه .

كما بين النبى ﷺ أن كفالة اليتيم ورعايته باب يؤدى إلى الجنة قال -عليه السلام- : "من قبض يتيما من بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتة إلا أن يكون قد عمل ذنبا لايغفر"[3] ومعلوم أن الذى لايغفر من الذنوب هو الشرك فقط .

ومن هنا .. أنادى كل القلوب الرحيمة المؤمنة المسلمة القادرة ماديا ومعنويا ، ولكن شغلتها هموم الدنيا أن تفزع وتتفقد دور اليتامى وهى منتشرة فى جميع أنحاء بلدنا العزيز وتشارك بما أعطاها الله ، لتنال الثواب والأجر العظيم ، وسواء أكانت هذه المشاركة ماديا من مال أو طعام أوملابس - حتى ولو كانت مستعملة ولكن بحالة جيدة -

---

(١) تبادرنى : أى تدخل معى أو لتدخل فى أثرى .

(٢) انظر فتح البارى ٤٣/١٣ .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب البر والصلة . باب ماجاء فى رحمة اليتيم وكفالته ٣٢٠/٤ .

أو معنويا . فالابتسامة والانطلاقة والتشجيع بالكلمة الطيبة الحانية لها تأثير فعال للإنسان فما بالنا إذا كانت ليتيم حرم من أبويه . قال تعالى : ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء﴾(١) .

وقال ﷺ :" إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول الله تعالى لملائكته : ياملائكتى ، من ذا الذى أبكى هذا اليتيم الذى غيبت أباه فى التراب؟ فتقول الملائكة : ربنا ، أنت الذى أعلم ، فيقول الله تعالى لملائكته : ياملائكتى ، اشهدوا أن من أسكته وأرضاه ، أن أرضيه يوم القيامة "(٢) وقال ﷺ :" خير بيت من المسلمين : بيت فيه يتيم يحسن إليه .. وشر بيت من المسلمين : بيت فيه يتيم يساء إليه"(٣) .

ومن الأشياء التى لاتكلف الإنسان شيئا ومع ذلك يثاب عليها المسح على رأس اليتيم . قال ﷺ :" من وضع يده على رأس يتيم ترحما كانت له بكل شعرة تمر عليها يده حسنة(٤) .

كما أن المسح على رأس اليتيم علاج للقلب القاسى . روى أن رجلا شكا إلى النبى ﷺ قسوة قلبه فقال:" إن أردت أن يلين قلبك فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين"(٥) .

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٤ .

(٢) انظر تفسير القرطبى ٦٨/٢٠ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه . كتاب الأدب .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٣٨٧،٢٦٣/٢ .

الموضوع الثانى عشر
الإصلاح بين الناس

إن الإصلاح بين الناس من الأمور التى أمر بها الله تعالى ورسوله ﷺ ، إذ بها يصبح المسلمون إخوة متحابون متعاطفون ، وتذهب الشحناء ، والتباغض ، والتدابر قال تعالى: ﴿..**فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين**﴾[1] .

أخرج ابن جرير الطبرى[2] عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال الرسول ﷺ :" من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا قال : فتسارع فى ذلك شبان الرجال وبقيت الشيوخ تحت الرايات فلما كانت الغنائم جاؤا يطلبون الذى جعل لهم فقالت الشيوخ لاتستأثروا علينا فإنا كنا ردأ لكم وكنا تحت الرايات ولو انكشفتم لفئتم إلينا فتنازعوا فأنزل الله ﴿**يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم**﴾[3] .

من خلال سبب النزول السابق ذكره يتبين لنا أنه عندما مالت النفوس إلى التشاحن والتشاجر أمرهم الله تعالى بالتقوى والإصلاح .

كما بين النبى ﷺ مايجب أن تكون عليه أمته فقال : "ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد : إذا اشتكى عضو تداعى

---

(١) سورة الأنفال الآية ٨ .

(٢) تفسير الطبرى ١١٦/٩ .

(٣) سورة الأنفال من الآية : ١ .

له سائر جسده بالسهر والحمى"[١] كما نهاهم عن التخاصم وإذا حصل بينهم التخاصم فلا يحل أن يستمر التخاصم أكثر من ثلاث ليال قال ﷺ: "لايحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث"[٢] قال ابن حجر[٣] :"إنما عفى عنه فى ذلك [أى الثلاث] لأن الآدمى مجبول على الغضب فسومح بذلك القدر ليرجع ويزول ذلك العارض" .

والخصومة غالبا ماتنشا بين الناس بسبب حب الدنيا ، والتنافس عليها، مما يورث الحسد ، والحقد ، والكراهية ، والبغضاء . وكل ذلك حذر منه النبى ﷺ بقوله :"إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولاتحسسوا[٤] ولاتجسسوا[٥] ولاتحاسدوا[٦] ولاتدابروا[٧] ولاتباغضوا[٨] ، وكونوا عباد الله إخوانا"[٩] .

---

(١) أخرجه البخارى . كتاب الأدب . باب رحمة الناس والبهائم ٤٦/١٣ من الفتح.

(٢) أخرجه البخارى . كتاب الأدب . باب الهجرة وقول النبى ﷺ لايحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ١٠٣/١٣ من الفتح .

(٣) فتح البارى ١٠٣/١٣ .

(٤) التحسس : بالحاء . الاستماع ، والبحث عن عيوب الناس وتتبعها .

(٥) التجسس : بالجيم . التفتيش عن بواطن الأمور . وقيل : التحسس بالحاء أن يطلبه لنفسه ، والتجسس بالجيم أن يطلبه لغيره . وقيل معناهما واحد فى طلب معرفة الأخبار وذكر الثانى للتأكيد . انظر النهاية فى غريب الحديث ٢٧٢/١ ، وفتح البارى ٩٣/١٣ .

(٦) الحسد : أن يرى الرجل لأخيه نعمة فيتمنى أن تزول عنه وتكون له دونه . النهاية فى غريب الحديث ٣٨٣/١ .

(٧) لاتدابروا : أى لايعطى كل واحد منكم أخاه دبره وقفاه فيعرض عنه ويهجره . النهاية فى غريب الحديث ٩٧/٢.

(٨) لاتباغضوا : أى لاتتعاطوا أسباب البغض لأن البغض لايكتسب ابتداء . وقيل : المراد النهى عن الأهواء المضلة المقتضية للتباغض . فتح البارى ٩٣/١٣ .

(٩) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الأدب باب ماينهى عن التحاسد والتدابر ٩٢/١٣-٩٤ من الفتح .

وقوله "عباد الله" أى ياعباد الله بحذف حرف النداء ، فيه إشارة إلى أنكم عبيد لله فحقكم أن تتواخوا ، وذلك باكتساب ماذكر فى الحديث لتصبحوا إخوانا تسودكم المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون فى الخير ونحو ذلك مع صفاء القلوب والنصيحة .

وقد ينشأ التخاصم بين الناس بسبب السخرية والاحتقار وغمط الناس، وتداعى بعضهم بعضا بألقاب يكرهونها وغير محببة إلى نفوسهم لذلك فقد نهى الله تعالى عنها قال عز من قائل :**﴿ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولاتلمزوا أنفسكم ولاتنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾**(١) .

قال الإمام الغزالى : "معنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء"(٢) .

ومعنى "ولاتلمزوا أنفسكم" أى لايعب بعضكم بعضا .

والتنابز بالألقاب : التداعى بالألقاب مطلقا حسنا كان أو قبيحا وخص فى العرف بالقبيح .

ففى هذه الآية الكريمة ينهى الله سبحانه عن الأسباب المؤدية إلى الكراهية بين الناس وإلى الخصام وهى السخرية بالناس واحتقارهم واستصغارهم والاستهزاء بهم ، فقد يسخر الرجل الغنى من الرجل الفقير ، والقوى من الضعيف ، وقد تسخر الجميلة من القبيحة ، والشابة

---

(١) سورة الحجرات الآية ١١ .

(٢) احياء علوم الدين ٣/١٤٠ .

من العجوز ، والمعتدلة من المشوهة ، والغنية من الفقيرة . ومن السخرية اللمز والتنابز التى يكرهها أصحابها .

ولكن إذا لم ننته عما نهانا عنه الله تعالى ، وإذا لم نعمل بما نصحنا به المصطفى ﷺ ماذا ستكون النتيجة ؟

نتيجة الخصام

إن الخصام بين الناس يؤدى إلى ضعف المسلمين ، وتهالكهم ، وإذا حدثت العداوة بين الناس . ضعفت الأمة وتشتتت وتفرقت قلوبها وتكون كالذين قال الله فى شأنهم ﴿**تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون**﴾[1] فتصغر الأمة فى أعين أعدائها ، فيغلبوها ، كما أمرنا النبى ﷺ منذراً ، ومحذراً بقوله :" يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها " فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ؟ قال : "بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن" فقال قائل : يارسول الله ، وما الوهن ؟ قال :" حب الدنيا وكراهية الموت"[2]. صدق رسول الله ﷺ ، فقد قيل : إن حب الدنيا رأس كل خطيئة .

ولعل المسلمين ينتبهون إلى عبرة التاريخ ويستفيدون من الدروس السابقة . ويدركون أن ما أصاب الأمة من وهن ، وضعف ، وتمزق ماهو إلا بسبب الاختلاف ، والفرقة ، والتنافس على الدنيا .. ولو عملوا

---

(١) سورة الحشر الآية ١٤ .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه . كتاب الملاحم . باب فى تداعى الأمم على الإسلام ١١١/٤ .

بالنصيحة ، فأصلحوا ذات بينهم ، لتوحدت الجهـود ، وتـآلفت القلـوب ، وماطمع فيهم أعداؤهم ، واجترءوا عليهم ، فاقتطعوا أرضـهم ، ونهبـوا ثرواتهم .

وقد يؤدى الخصام إلى توارث البغضاء والعداوة عن الآبـاء ، وينشـأ الثأر ، فيقتل الناس بعضهم بعضاً أخذاً بالثأر ، وتسفك دماء بريئة بغـير ذنب أو جريرة .

عـن أبـى بكـرة قـال : سـمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول : "إذا التقـى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، فقلت : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه"[١] .

الأمر بالإصلاح بين المتخاصمين

أولا : الإصلاح بين الزوجين

لقد أوصى الإسلام كلا من الزوجين أن يحسن معاملـة الآخـر ، وأن يحفظه فى السر والعلن ، بل ذهب القرآن الكريم إلـى الأمـر بالمعاشـرة الحسنة ولو مع الكراهية تجنباً للطلاق الذى هو أبغض الحلال إلـى اللـه قال تعالى : **﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل اللـه فيـه خيرا كثيرا﴾**[٢] ، وقال ﷺ : " لايفرك مؤمن مؤمنة إن كـره منهـا خلقـا رضى منها آخر"[٣] .

---

(١) أخرجـه البخـارى فـى صحيحـه . كتـاب الإيمـان . بـاب : وإن طائفتـان مـن المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ٩٤/١ من الفتح .

(٢) سورة النساء الآية ١٩ .

(٣) أخرجه مسلم فـى صحيحـه . كتـاب الرضـاع . بـاب الوصيـه بالنسـاء ٥٨/١٠ شرح النووى .

أما إذا نشأ خلاف بين الزوجين فقد أوصى القرآن كلا منهما بالصبر ومعالجة الأمر بحسن المعاشرة ولو مع الكراهية وإذا نفد الصبر فلابد من محاولات لإصلاح من نشز من الزوجين .

١- **نشوز الزوجة** : قال تعالى :**﴿واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾**(١) فقد تدرج القرآن فى إصلاح الزوج لزوجته من الوعظ إلى الهجر إلى الضرب حسب النساء وطبائعهن فرب كلمة طيبة أجدى من هجر لدى زوجة أخرى أو العكس .

٢- **نشوز الزوج** : قال تعالى :**﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير﴾**(٢) فإذا شعرت الزوجة بكراهية الزوج لها أو إعراضه عنها فعليها أن تحاول الإصلاح ما أمكنها ذلك .

أما إذا ظهر شقاق بين الزوجين خيف منه فصم عرى الزوجية بينهما ، فقد نص القرآن الكريم على علاج هذه الحالة بقوله :**﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما﴾**(٣) .

والخطاب بقوله تعالى :**﴿وإن خفتم﴾** موجه إلى الحاكم . فإذا عرف الحاكم أن شقاقا وقع بين الزوجين أو رفع الأمر إليه ، فيجب أن يرسل

---

(١) سورة النساء الآية ٣٤ .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٨ .

(٣) سورة النساء الآية ٣٥ .

حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة للإصلاح بينهما ، فقد يصلا إلى حل يرضاه الطرفان وإلا فالطلاق .

لذا يجب على الحكمين أن يبذلا أقصى جهدهما من أجل إزالة كل أسباب الخلاف والشقاق بين الزوجين . فالأسرة هى اللبنة الأولى فى المجتمع ، ومن مصلحة المجتمع تقوية الأسرة بعدم ظهور الشقاق والخلاف بين أفرادها .

ثانياً : الإصلاح بين الفئتين المتخاصمتين

لقد أمر الله تعالى بالإصلاح بين فئات المسلمين وطوائفهم قال تعالى: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾**[١] .

لما حذر الله تعالى المؤمنين من تصديق النبأ الصادر من الفاسق وذلك فى قوله تعالى :**﴿ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنباء فتبينوا﴾**[٢] أشار فى هذه الآية إلى مايلزم منه استدراكا لما يفوت ، فقال فإن اتفق أنكم تبنون على قول من يوقع بينكم ، وآل الأمر إلى قتال طائفتين من المؤمنين فأزيلوا ما أثبته ذلك الفاسق وأصلحوا بينهما[٣] .

والخطاب فى الآية لكل من يتأتى منه الإصلاح ومقاتلة الباغى فمتى تحقق البغى من طائفة كان حكم إعانة المبغى عليه حكم الجهاد .

---

(١) سورة الحجرات الآية ٩ .

(٢) سورة الحجرات الآية ٦ .

(٣) انظر كتابنا تفسير سورة الحجرات ص ٥٩-٦٥ .

والأمر للوجوب : فيجب الإصلاح ويجب قتال الباغية ماقاتلت وإذا كفت وامتنعت عن الحرب تركت .

قال الزمخشري : "ولاتخلوا الفئتان من المسلمين فى اقتتالهما: إما أن يقتتلا على سبيل البغى منهما جميعا فالواجب فى ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة ، فإن لم تتحاجزا ولم تصلحا وأقامتا على البغى صير إلى مقاتلتهما .

وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما محقة فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة وإطلاعهما على مراشد الحق . فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ماهديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين .

وإما أن تكون إحداهما الباغية على الأخرى فالواجب أن تقاتل فئة البغى إلى أن تكف وتتوب فإن فعلت أصلح بينها وبين المبغى عليها بالقسط والعدل وفى ذلك تفاصيل :

إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لامنعة لها ضمنت بعد الفيئة ماجنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة لم تضمن ، إلا عند محمد ابن الحسن – رحمه الله – فإنه كان يفتى بأن الضمان يلزمها إذا فاءت.

وأما قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها ، فما جنته ضمنته عند الجميع ، فحمل الإصلاح بالعدل فى قوله تعالى : ﴿**فأصلحوا بينهما بالعدل**﴾ على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل . وعلى قول غيره وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد .

والذين ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات ، ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط أ.هـ[1]

والذى أميل إليه أن الضمان يلزم الفئة الباغية سواء أكانت قليلة العدد، أم كانت كثيرة العدد ، فما جنته ضمنته تأديباً ، وحتى لا تعود لمثل ذلك مرة ثانية .

وسر تقييد الصلح بالعدل فى قوله :﴿**فأصلحوا بينهما بالعدل**﴾ ولم يذكر العدل فى قوله:﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما**﴾[2] .

قال فخر الدين الرازى : "لأن الإصلاح هناك بإزالة الاقتتال نفسه، وذلك يكون بالنصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب ، والإصلاح هنا بإزالة آثار القتل بعد اندفاعه من ضمان المتلفات وهو حكم فقال"بالعدل" فكأنه قال : واحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق وأصلحوا بالعدل مما يكون بينهما . لئلا تؤدى إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى[3] .

لذا فقد أمرنا الله تعالى بتحرى العدل فى جميع أمورنا ومايعترضنا من قضايا ومشكلات ومايصادفنا من منازعات وخصومات دون أن نتحيز إلى صديق أو قريب أو نجور على عدو قال تعالى:﴿**يا أيها**

---

(١) الكشاف ٤/١١-١٢ .

(٢) سورة الحجرات من الآية ٩ .

(٣) تفسير الفخر الرازى ٢٨/١٢٨-١٢٩ .

الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾[1] وقال تعالى :**﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾**[2] ، وقد صدق أحد الحكماء حين قال : لو تراحم الناس لاستراح القاضى ، ولبات كل عن أخيه راض .

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٥ .

(٢) سورة النساء الآية ٥٨ .

فضل الإصلاح بين الناس

إن الصلح بين الناس فيه فضل عظيم وأجر كبير لأن فيه حقن للدماء وتحقيق للمودة والصفاء بين المؤمنين لأنهم إخوة قال تعالى :﴿**إنما المؤمنون إخوة**﴾[1] فالجميع إخوة فى الدين . كما قال المصطفى ﷺ "المسلم أخو المسلم لايظلمه ولايسلمه" وقال ﷺ :"مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[2].

والقائم على الإصلاح بين المتخاصمين له ثوابه وجزاؤه إذا ابتغى به وجه الله . قال النبى ﷺ :"ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة ، والصدقة "؟ قالوا : بلى ، قال "إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين الحالقة"[3] أى التى تحلق الدين .

ويشير الحق تبارك وتعالى إلى فضل الإصلاح بين الناس فيقول : ﴿**لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما**﴾[4] .

والمعنى : لاخير فى كثير من تناجى الذين يسرون الحديث إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، والمراد بالنجوى الكثيرة

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٠ .

(٢) أخرجه مسلم . كتاب البر والصلة والآداب . باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ١٤٠/١٦ شرح النووى .

(٣) أخرجه أبو داود . كتاب الأدب . باب فى إصلاح ذات البين ٢٨٠/٤ .

(٤) سورة النساء الآية ١١٤ .

المنفى عنها الخير : هى النجوى فى شؤون الناس ومن ثم استثنى منها الأشياء الثلاثة التى هى جماع الخير للناس ، لأن خيرتها أو كمالها تتوقف على الكتمان وجعل التعاون عليها سرا . عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال : من أصلح بين اثنين أعطاه الله بكل كلمة عتق رقبة(١) . وقال النبى ﷺ لأبى أيوب :"ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله ، تصلح بين أناس إذا تفاسدوا ، وتقرب بينهم إذا تباعدوا"(٢) وقال الأوزاعى : ماخطوة أحب إلى الله عزوجل من خطوة فى إصلاح ذات البين ، ومن بين اثنين كتب الله له براءة من النار(٣). وقال محمد بن المنكدر : تنازع رجلان فى ناحية المسجد فملت إليهما ، فلم أزل بهما حتى اصطلحا ، فقال أبو هريرة وهو يرانى: سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أصلح بين اثنين استوجب ثواب شهيد(٤).

وعلى الرغم من أن الكذب ممنوع إلا أن رسول الله ﷺ قد رخص فيه عند الإصلاح بين الناس فقال : "ليس بالكاذب من اصلح بين الناس فقال خيرا أو نمى خيرا"(٥) وعن أسماء بنت يزيد قالت :"قال رسول الله ﷺ : لايحل الكذب إلا فى ثلاث : يحدث الرجل امرأته ليرضيها ، والكذب فى الحرب ، والكذب ليصلح بين الناس"(٦) .

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) قال القرطبى فى تفسيره ٢٤٧/٥"ذكر هذه الأخبار أبو مطيع مكحول ابن المفضل النسفى فى كتاب اللؤلئيات له ، وقال : وجدته بخط المصنف فى وريقة ولم ينبه على موضعها ﷺ .

(٥) أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب البر والصلة باب ماجاء فى إصلاح ذات البين ٣٣١/٤ .

(٦)أخرجه الترمذى فى سننه . كتاب البر والصلة باب ماجاء فى إصلاح ذات البين ٣٣١/٤ .

ولهذا ينبغى على كل مؤمن إذا رأى نزاعا بين طائفتين أو خلافا وقع بين اثنين فليبادر إلى إزالة الخلاف والشقاق وليكن شعاره فى ذلك تقوى الله عزوجل ، وطلب رضاه لتعمنا رحمته ويغمرنا فضله ومغفرته .

وأخيرا : فالالتزام بالأخلاق الإسلامية لاتعنى مجرد المعرفة ، أو سرد مطالب هذا الخلق ، أو هدفه وغايته ، ومعرفة نتيجة البعد عنه أو مجرد الحديث عنه فيما بين الناس .

إنما الخلق هو انفعال النفس وتأثرها بما ينبغى أن يكون فيفعل ، وبما لاينبغى أن يكون فيترك .

والخلق بهذا المعنى هو الصمام والمعتصم ، الذى يتمسك به من أراد أن يكون مسلما حقا ، فالإيمان بالله تعالى دون خلق ، شجرة لاظل بها ولاثمرة ، والخلق دون إيمان بالله تعالى ظل لشبح غير مستقر .

أخى القارىء . أختى القارئة

تلك كانت إشارات لبعض الأخلاق فى القرآن الكريم والسنة النبوية التى لايمكن أن توفيها العبارات .. والتى من أجلها كانت الرسالات .. والتى بها تصح المعاملات .. وتنال أرفع الدرجات .. وأعلى المقامات.. وليس من العسير التخلق بها .. بالقليل من المجاهدات .. فالنفس إن لم نشغلها بالحق شغلتنا بالباطل .

والله نسال أن يهدينا لأحسن الأخلاق

ولايهدى لأحسنها إلا هو

وأن يصرف عنا سيئها .. لايصرف عنا سيئها إلا هو

وأن يؤتى نفوسنا تقواها .. ويزكيها

هو خير من زكاها .. له مماتها .. ومحياها

عفاف النجار

فهرس المراجع

١- **القرآن الكريم** .

٢-**أخلاق اسلامية من القرآن والسنة** للدكتور/الحسينى أبو فرحة.

٣-**أصول الدعوه** : للدكتور/عبد الكريم زيدان .

٤-**أيسر التفاسير لكلام العلى الكبير** : لأبى بكر الجزائرى . الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٦٧م .

٥-**احياء علوم الدين** : للإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى، دار الريان للتراث الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .

٦-**البحر المحيط** : لأبى حيان . مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٩هـ .

٧-**التفسير المنير فى العقيدة والشريعة** والمنهج للدكتور/وهبه الزحيلى . دار الفكر المعاصر . الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

٨-**التفسير الواضح** : للدكتور/محمد حجازى . دار الجبل - بيروت - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

٩-**التفسير الوسيط للقرآن الكريم** : للإمام الأكبر الدكتور/سيد طنطاوى شيخ الأزهر طبعة دار الكتب العلمية .

١٠-**الخلق الكامل** : لمحمد أحمد جاد المولى بك . المطبعة العثمانية. الطبعة الأولى .

١١-**الرسالة الخالدة** : للاستاذ/ عبد الرحمن عزام .

١٢-**السيرة النبوية** : لابن هشـام . دار احيـاء الـتراث العربـى - بيروت .

١٣-**الشفا بتعريـف حقوق المصطفـى** : للقـاضى عيـاض - مؤسسة علوم القرآن . مكتبة الفارابى . الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

١٤-**الفوائد** : لابن قيم الجوزيه . المكتبـة القيمـة للطباعـة والنشـر ١٩٨٧م .

١٥-**القوانين الفقهية** : لابن جزى المالكى .

١٦-**المستدرك على الصحيحين** .

١٧-**المعجم الوجيز** : مجمع اللغة العربية .

١٨-**المعجم الوسيط** : لمجمـع اللغـة العربيـة . مطبعـة مصـر - الطبعة الثالثة .

١٩-**المغنى** : لابن قدامة .

٢٠-**المفردات فى غريب القرآن** : للراغب الأصفهانى .

٢١-**النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير** : المكتبة العلميـة . بيروت.

٢٢-**بنـو اسـرائيل فـى القـرآن والسـنة** للإمـام الأكـبر الدكتور/محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٢٣-**تفسير أبى السعود** : دار احيـاء الـتراث العربـى -بيروت - الطبعة الثانية .

٢٤-**تفسير ابن كثير** : مؤسسة الكتب الثقافية . الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

٢٥-**تفسير القرطبي** : دار الكتب العلمية . الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

٢٦-**تفسير الكشاف** : دار المعرفة بيروت - لبنان .

٢٧-**تفسير المراغى** : دار احياء التراث العربى - بيروت .

٢٨-**تفسير المنار** .

٢٩-**تفسير سورة الحجرات** : للدكتورة/ عفاف النجار . الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

٣٠-**حياة محمد ﷺ** : للأستاذ محمد حسين هيكل . مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثالثة عشر ١٩٦٨م .

٣١-**دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين** : لمحمد بن علان الصديقى . دار الكتب العلمية . بيروت .

٣٢-**روح المعانى** : للألوسى . دار احياء التراث العربى . بيروت الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ .

٣٣-**رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين** : للإمام النووى. دار التراث القاهرة . الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م .

٣٤-**سبل السلام** .

٣٥-**سنن أبى داود** : دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

٣٦-**سنن ابن ماجه** : القاهرة . دار احياء الكتب العربية١٩٥٢م.

٣٧-**سنن البيهقى .**

٣٨-**سنن الترمذى :** القاهرة . المكتبة الإسلامية ١٩٦٢م .

٣٩-**صحيح ابن حيان .**

٤٠-**صحيح مسلم :** شرح النووى . دار احياء التراث العربى - بيروت الطبعة الثالثة .

٤١-**عون المعبود :** شرح سنن أبى داود .

٤٢-**غرائب القرآن ورغائب الفرقان على مصحف التهجد . للنيسابورى** . دار الصفوه . الطبعة الأولى .

٤٣-**فتح البارى :** شرح صحيح البخارى . مكتبة مصطفى البابى الحلبى الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .

٤٤-**فتح القدير :** للشوكانى . دار احياء التراث العربى . بيروت١٣٩٨هـ .

٤٥-**قصص الأنبياء :** لابن كثير . دار العنان . الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

٤٦-**كشف الخفاء :** للعجلونى . مكتبة التراث العربى .

٤٧-**كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين المتقى الهندى :** مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الخامسة.

٤٨-**لسان العرب :** لابن منظور . دار صادر - بيروت .

٤٩-**مختار الصحاح :** للشيخ أبى نصر اسماعيل بن حماد الجويرى ط دار المعارف .

٥٠-**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين:**
دار الكتب العلمية . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م .

٥١-**مسند الإمام أحمد** . القاهرة ١٣١٣هـ .

٥٢-**معالم التنزيل** : للبغوى . دار الكتب العلمية . الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م .

٥٣-**مفاتيح الغيب** : للفخر الرازى . دار احياء التراث العربى . بيروت . الطبعة الثالثة .

٥٤- **موطأ مالك** .

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع : ٢٠٠٠/٥٣٤٦

الترقيم الدولى : I.S.B.N

977 - 5819 - 63 - 6



دار جاد للطباعة

دار السلام

ت : ٣٢٠٩٩١٤ محمول : ٠١٠/ ٥١٠٦٩٥٠